

الياس مرقص

مكسيم رُودَنسُون

إميل توما

الأمة، المسألة القومية، الوحدة العربية

و
الساكنية



مَكْسِيم رُودَنْسُون الياس مُرْقَصٌ

إميل توما

الأمة، المسألة القوميّة، الوحدة العربيّة

و
الماركسيّة

•

دار الحقيقة

للطباعة والنشر في بيروت

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الاولى

أيار ١٩٧١

تقديم

يضم هذا الكتاب ثلاثة أقسام . يحوي القسمان الاول والثاني دراسات ،
والثالث نصوصاً .

القسم الاول يتضمن دراستين للمستشرق الفرنسي الماركسي مكسيم
رودنسون . يبسط في الاولى النظرة الماركسية الى مسألة الامة والتكوينات
والقيم القومية . ويتناول في الثانية نظرية ستالين في الامة بالنقد والتحليل ،
مبيناً ثغراتها وحدودها والعواقب السياسية الضارة التي تؤدي اليها . وفي
هاتين الدراستين لا يكتفي رودنسون بعرض المقولات الماركسية الكلاسيكية ،
بل يبين خلفيتها السياسية ويضعها في منظور تاريخي ويحللها على ضوء
مكتسبات السوسيولوجيا الماركسية وعلم الشعوب .

القسم الثاني يتضمن ثلاث دراسات لـ « الياس مرقص » و « مكسيم
رودنسون » و « اميل توما » ، تتناول من زوايا مختلفة تطور الحركة القومية
وتحتوي الوحدة العربية .

القسم الثالث يتضمن نصوصاً لماركس وانجلز تقدم للقارئ فكرة عن
مسألة الامة الحديثة والقومية عموماً وعن موقفها من الوحدة الالمانية خصوصاً .
كما يتضمن نصوصاً للنينين تعطي فكرة عن رؤيته للثورة القومية المعاصرة
وعلاقتها بالثورة الاشتراكية . اما نصوص ستالين فقد أوردناها لأن القسم

الاول قد تضمن دراسة نقدية لها ، ورأينا من المناسب ان يجد القارئ امامه النص والنقد معاً .

وهنا لا بد من تسجيل ملاحظات قصيرة قد تفيد القارئ :

١ - بالرغم من ان الكتّاب الثلاثة ينتمون الى المدرسة الماركسية إلا ان نظرتهم تختلف او تتخالف ، الى هذا الحد او ذاك ، في عدد من النقاط ، في تصورهما للحركة القومية العربية . واذا جاز لنا التصنيف يمكن القول ان رودنسون ومرقص يقفان في جانب ، ويقف توما في جانب آخر .

٢ - يرى رودنسون ومرقص الى الحركة القومية العربية كحركة جماهير موجبة اساساً وموضوعياً ضد الامبريالية . واذا كان رودنسون يرى ، بصواب ، ان قيادة الحركة القومية العربية قد انتقلت من ايدي الارستقراطية العقارية الكبيرة ثم الى البرجوازية ، ثم الى البرجوازية الصغيرة ، إلا انه لم يشر البتة الى ان النزوع الوحدوي جاء نتيجة التطور البرجوازي العربي (كما قال توما) بل جاء جواباً على محاولات التريك أولاً ثم رداً على الهيمنة الامبريالية ثانياً ، ثم محاولة للوقوف في وجه التحدي الصهيوني ثالثاً . واذا كان رودنسون يتجاهل دور التطور البرجوازي ، فذلك ناجم عن أن هذا التطور ، فضلاً عن كونه محدوداً وملجوماً باعتباره تطوراً برجوازياً في بلدان متخلفة ، كان محكوماً بآلية السوق الامبريالية وخاضعاً لهيمنة الاقتصاد الامبريالي ، فكان بالتالي عاملاً في اضعاف النوازع الوجدوية وعنصرأ في عملية بلورة أمم وكيانات قطرية ، وذلك لأن اقتصاد كل قطر يشكل جزءاً مكملاً للاقتصاد الامبريالي . ان توما بالرغم من انه يؤكد على محتوى الوحدة العربية المعادي للامبريالية وطابعها الجماهيري ، وبالرغم من انه يعترف ان الطبقات العربية المستغلة كفرت بالوحدة العربية (ص ٢٠٠) وأن العامل الاقتصادي البرجوازي لم يعد له من دور حاسم في مسألة تحقيق الوحدة (ص ٢٠٤) ، إلا أنه يقوم ، بتأثير نظرية ستالين

خصوصاً ، بعملية سحب ، عندما يؤكّد على دور البرجوازية المصرية في تقوية النزوع الوحدوي في مصر ^(١) .

٣ - والواقع إننا اذا تجنّبنا عمليات السحب واستنطقنا الوقائع العيانية نرى بوضوح ان النزوع الوحدوي قبل عبد الناصر كان جد هامشي ، إذ انه كان موجوداً بين حلقات مثقفين ضيقة هي بالاحرى تقليدية اسلامية ما قبل برجوازية . ان النزوع الوحدوي في مصر لم يصبح واضحاً وجدياً إلا عندما نمت حركة الجماهير المعادية للامبريالية وأدركت القيادة المصرية ان استقلال مصر الحقيقي يقتضي تصفية النفوذ الاستعماري في الوطن العربي . ومن جهة اخرى فإن القول بأن البرجوازية السورية هي التي حققت الوحدة (ص ١٩١) ينطوي على جهل بحقيقة موقف القوى الطبقية والسياسية في سوريا خلال ١٩٥٧ / ١٩٥٨ . ان طريق الوحدة بين سوريا ومصر قد فتحه النهوض الجماهيري الذي تصاعد بدءاً من المعارك ضد حلف بغداد وصولاً الى العدوان الثلاثي . وجاء حزب البعث والجيش السوري ليفرضا هذا النزوع الجماهيري على اسياذ الارض والبرجوازية معاً ، الممثلين بحزب الشعب وكتلة خالد العظم والحزب الوطني .

٤ - ان توما في معرض حديثه عن اسباب الانفصال (ص ١٩٤ / ١٩٥) ينسب الفاعل الأصلي : الامبريالية . ان وحدة تفتقر الى بعض الشروط الموضوعية (كالاتصال الجغرافي) بحاجة اشد الى الوعي الذي يمكن ان يلحم ثغرة غياب ذلك الشرط الموضوعي . وكان قصور الوعي لدى قيادة دولة الوحدة الثغرة التي نفذت منها الامبريالية لتضرب الوحدة . ولكن هل كان الانفصال ممكناً لو كان ثمة اتصال جغرافي ، ولو ان ميزان القوى لم يجعل عبد الناصر يتراجع امام التهديدات الامبريالية بضرب الاسطول المصري ؟

(١) يتبنّى « إدي ماير » ، الملقب بمحمود حسين ، نفس الاطروحة في كتابه : « صراع الطبقات في مصر » ، الذي صدر عن دار الطليعة مؤخراً .

ومن جهة أخرى، فإن البرجوازية السورية، التي لم تؤيد الوحدة عند قيامها، أخذت تقاومها منذ الشهور الأولى، لا لأن البرجوازية المصرية كانت في طريقها الى ابتلاعها، كما ذكر توما (ص ١٩٢، ١٩٥) ^(١)؛ ولكن أولاً لأن دولة الوحدة قد حاولت، بإدخالها جدياً لأول مرة الى سوريا فكرة التخطيط والتنمية وإعطائها مكانة أولوية، ان تحتوي البرجوازية في إطار خطة التنمية وان تطوِّع مصالح البرجوازية لمتطلبات الخطة؛ وثانياً لأن دولة الوحدة، بإصدارها قانون الاصلاح الزراعي، قد ضربت طبقة متداخلة ومتشابكة الى اقصى حد مع البرجوازية، التي نمت في مناخ الاقطاع وترتبته.

٥ - أما ما يذكره توما (ص ١٩٢) عن بنود خالد بكداش الثلاثة عشرة لتعديل الوحدة دستورياً فلم تكن سوى دعوة مقنعة للانفصال، لا لأن الحديث عن الظروف الموضوعية كان مجرد هذر، بل لأن بكداش كان ضد الوحدة منذ البداية وحتى النهاية، وبرقيته الى الكزبري معروفة، التي يهنئه فيها على « الانتصار التاريخي الكبير على الاستعمار المصري »، ومعروف كذلك دعمه الكامل لعهد الانفصال ومحاربه احتمالات عودة الوحدة. ومن هنا كان توما على حق عندما ذكر (ص ١٩٥) ان « القوى التقدمية » قد وقفت موضوعياً مع الرجعية عند وقوع الانفصال.

« الناشر »

(١) لقد صدق توما دون تمحيص (رغم اعتقادنا بنزاهته) اكذوبة أطلقها خيال خالد بكداش وخجل الكزبري عن ترديدها. فلنستنطق الوقائع من خلال المجموعات الاحصائية السنوية السورية: ١ - في آب ١٩٥٨ صدر قانون في الجمهورية العربية المتحدة اخضع تبادل المنتجات الصناعية لرسم تعويضي خاص للحيلولة دون إلحاق ضرر بصناعة قطر على حساب آخر. ٢ - ان الميزان التجاري بين سوريا ومصر كان لصالح سوريا خلال سني الوحدة اجمالاً. ٣ - ان انتاج المواد التي ذكر توما انها لم تستطع الصمود امام منافسة البرجوازية المصرية قد تزايد خلال سني الوحدة بمعدل ١٦٪ للإحذية و ١٣٪ للصابون و ١٢٪ للنسيج. اما النشاط المصرفي في سوريا فقد كان خاضعاً للرأسمال الامبريالي وجاءت الوحدة فحققت الاشراف الوطني عليه ثم أمته. ٤ - ان متوسط قيمة مستوردات سوريا من مصر، بالرغم من اطراد تزايدها (وبالمقابل اطراد تزايد مستوردات مصر من سوريا) كان خلال سني الوحدة اقل من ٦٪ من قيمة المستوردات السورية الاجمالية.

القسم الأول

الماركسية

والأمست والمثالة القومية

(*)

الماركسية والامة

بقلم مكسيم رودنسون

من المدهش ان نلاحظ التاريخ المتأخر جداً الذي تصدّت فيه الحركة الماركسية لدراسة المسألة القومية national والمسألة الأقوامية (١) nationalitaire . يقيناً انه يمكن ان نستخلص من كتابات ماركس افكاراً تتعلق بالأمم ، لكن الظاهر تماماً ان هذه الافكار لم توضع في نظام فكري . وعلى الأكثر يمكن استخلاص نظرية ضمنية ، من كتابات ماركس حول الموضوع ، او بالاحرى استخلاص شذرات نظريات ضمنية . وبعكس الأفكار

(*) عن مجلة L'Homme et la Société ، عدد ٨ ، كانون ثاني - شباط ١٩٦٨ .

(١) استخدم هذا المصطلح « أقوامي nationalitaire » منذ مقال « حول النظرية الماركسية في الأمة » (طرق جديدة - العدد الثاني ، أيار ١٩٥٨ ، ص ٢٥ - ٣٠) وذلك لكي اجتنب كلمة « قومي national » المشتقة من كلمة « أمة nation » ، وهو المفهوم الذي أعطاه البعض (موس ، ستالين) تعريفاً او تحديداً ضيقاً متزمتاً . وهكذا يمكن للمصطلح الذي استعمله ان ينطبق على جميع التكوينات البشرية الكلية التي تتجاوز مستوى العشائر والقبائل ، ومن تلك التكوينات تلك التي كثيراً ما تسمى « قوم ethnies » والتي يسميها الروس « نارودنوست Narodnost » (انظر فيما بعد) . وقد اخذت هذا المصطلح « أقوامي » عن ارنولد فان جينيب : « مبحث مقارن في القوميات » ، القسم الاول : « العناصر الخارجية للامة » ، باريس ، بايو ، ١٩٢٢ ، هذا المصطلح الذي استعاره فان جينيب نفسه من رينيه جوهانيه في كتابه : « مبدأ القوميات » ، باريس - ١٩١٨ . وقد تبني صديقي أنور عبد الملك هذه الضفة معطياً لها معنى مختلفاً الى حد ما ، مستخدماً إياها على الأخص لأجل التمييز بين اهداف الأمم المناضلة من أجل استقلالها او المستقلة حديثاً ، وبين النزعة القومية لدى الأمم الاوروبية القديمة .

الشائعة شبه الدينية عن الماركسية ، المصاغة بصورة بارعة وأحياناً بصورة متحذقة في سنن وقوالب جامدة دون ان يتم تطويرها من جانب الماركسيين - البنيويين ، فان فكر ماركس لم يكن مجهزاً باتساق كامل ، لأن ماركس لم يفكر على طريقة الانسان الأعلى « السوبرمان » . إذن فليس ممكناً ان نستخلص من تلك الكتابات والافكار الماركسية ، بمجرد التفسير والتأويل ، « نظريةً » بالغة الدقة تشمل جميع ميادين الحياة الاجتماعية وبعض الميادين الاخرى . ان افكار ماركس حول الأمم تنبثق في شطر منها من مفاهيمه السوسيولوجية العامة ، ولكن ايضاً من افتراضات ايديولوجية لم تخضع للنقد ، ومن اعتبارات استراتيجية وتكتيكية ، وتنبثق اخيراً ، كما هي الحال لدى كل واحد منا ، من مجرد احكام مسبقة ، هي عبارة عن افكار شائعة جرى تبنيها دون انتقاد ولا ترتبط حق بنظام ايديولوجي . وهذا لا يجردها ، على كل حال ، من منطق داخلي معين ، بالنسبة لشخصية ماركس السككية (بما في ذلك هوام العميق ومشاعره الوجدانية ، الخ) ، هذا المنطق الذي يمكن ان نكتشفه عند أي رجل عادي لكنه لا يستلزم ضمناً وبالضرورة - وذلك مستبعد ! - تلاحماً وتناسقاً على مستوى تلاؤم الافكار المنطقي ، منظوراً اليها بصورة موضوعية ، كما انه يستلزم ، بمقدار أقل ، الصحة الموضوعية لذلك التلاحم والتناسق . ان عمليات التنظير اللاحقة ، في الحركة الماركسية ، قد نبعت على الأخص من اعتبارات تكتيكية . وبصورة استثنائية فقط تدخلت محاولات تنظير ذات ركائز (وليس فقط ذات تلوين) علمية بعض الشيء .

وذلك سوف يبرّر ترتيب عرضي الذي سيبني على هذا النحو :

١ - قضية الأمة في الحركة الايديولوجية الماركسية ^(١) ؛

(١) لا استطيع ان اشرح هنا تفصيلاً ما اعنيه بكل دقة بعبارة « الحركة الايديولوجية » . وقد وضعت خطأ اولية لتعريف لهذا المفهوم ، اعتقده جديداً ، وذلك في مقالتي « مسألة دراسة العلاقات بين الاسلام والشيوعية » (في الندوة الدراسية حول علم الاجتماع الاسلامي ، مجلة Actes ، ١٩٦١ ، بروكسل ، وقد نشرها مركز دراسة قضايا العالم الاسلامي المعاصر ، عام ١٩٦٢ - ص ١١٩ - ١٤٩) .

- ٢ - التكوينات ذات النمط الأقوامي ، وماذا يمكن ان تقدم في هذا الصدد الموضوعات والطرائق السوسولوجية الماركسية في دراسة المسألة ؛
- ٣ - القيم القومية والقيم العليا للايديولوجية الماركسية ، وبعبارة اخرى مكان القيم القومية في علم الاخلاق الماركسي ^(١) .

- ١ -

مسألة الامة في الحركة الايديولوجية الماركسية

١ - أفكار ماركس حول الامة :

لقد بنى ماركس ، على غرار هيغل وخلافاً لكانت وفيخته ، نظرية حول الدولة ، وليس نظرية حول الامة ^(٢) . كتب س. ف. بلوم (وهو الذي كتب الدراسة الجدية الوحيدة حول هذا الموضوع ^(٣)) ، وهي دراسة يجهلها ، كالعادة ، الماركسيون الذين يكونون لدارسي الماركسية نفس النفور الذي كان يكنه علماء اللاهوت القدماء لمؤرخي الاديان) يقول : « اذا كان ممكناً الحديث عن نظرية ماركسية في القومية ، فينبغي ان يكون ذلك بمعنى وصف معمم لخصوصيات الامم الغربية الحديثة - وحول ملاءمة مثل هذا الوصف للمسائل القومية في اجزاء اخرى من العالم » ^(٤) .

(١) لا يشتمل المناضل الماركسي ، منذ ماركس نفسه ، من شيء قدر اشمئزاه من الاعتراف بأن نشاطه دوافع خلقية . لكن هذه الدوافع الخلقية موجودة بكل تأكيد (انظر فيما بعد) .

(٢) راجع ا. كيدوري : « القومية » . لندن ، هيتشنسون ، ١٩٦٠ ، ص ٣٦ .

(٣) س. ف. بلوم : « عالم الامم » . نيويورك ، منشورات جامعة كولومبيا ، ١٩٤١ ،

ص ٢٢٥ .

(٤) المرجع المذكور ، ص ١٦ .

يقبل ماركس ، على العكس من « راديكاليي » عصره الآخرين ، الامة ككائن تاريخي ذي كثافة . ويسمى لمصلحة العامل القومي والعامل الطبقي والتوفيق بينهما على صعيد السياسة . ونظرتة الى تنظيم العالم هي بالأحرى نظرة أممية لا نظرة كوسموبوليتية . هذا يعني انه يعتبر الامم كأمر موجود وقائم وكأمر يُفترض ان يستمر في الوجود في مستقبل منظور ، ولا يعارض اندماج الفرد في الامة ، ولا يبشر — أياً كان موقفه من المسألة التي تعنيه بالذات — بأن على الفرد ان يعتبر نفسه مواطناً عالمياً بلا روابط قومية خاصة .

يرى ماركس ان الامة الحديثة هي مجتمع شمولي وكلي وواسع ، يرتكز على تكامل مساحة واسعة من الارض بعدد كبير من الناس ، ويتحقق هذا التكامل بواسطة صناعة قوية ووسائل مواصلات ونقل متطورة ، وكذلك الاشتراك في سوق قومية واسعة مشتركة بين سائر الاقاليم . فالامة تتحرك وتعمل وهي تنعم بتواصل تاريخي باعتبارها كذلك ، من جراء الترابط ، بين شتى طبقاتها المعنية ، في آلية نظام اقتصادي معطى . ان أفكار الامة ونوازعها واتجاهاتها على صلات ذات دلالة مع البنية التي صنعتها الطبقات التي تشكل الامة . التقاليد القومية هي ظاهرات حقيقية واقعية تماماً . وهي تعكس التطور الاقتصادي للمجتمع ، وعلاقات الطبقات في مراحل مختلفة ، والسمات الخاصة ، وربما المتفردة ، لتاريخ كل بلد . على هذا النحو تبدو الأمم الحديثة التي تشغل ماركس ، كانكلترا وفرنسا والمانيا والولايات المتحدة وروسيا أساساً .

ان ماركس يقيم رباطاً بين هذه المفاهيم ونظريته الرئيسية في صراع الطبقات من خلال نظرية « الطبقة القومية » أو « الطبقة الموجهة » . ففي كل مرحلة تاريخية من حياة شعب ، ثمة طبقة تخدم المصالح العامة للأمة عندما تخدم مصالحها الخاصة . يمتاز هذا التصور ، في إطار بنيته نظرية ماركس marxienne ، بتوفيقه بين واقعة انقسام المجتمع الى طبقات وواقعة جليلة أخرى هي ان الأمة تنعم بشيء من الوحدة وتتبع بعضاً من أهداف مشتركة . ومن زاوية استراتيجية أيضاً ، فان الاحاح على الصراع الطبقي كظاهرة ثابتة ،

والتعاطف مع نضال البروليتارية المضطهدة والآمال التي تثيرها ، يتصالحا ويتوافقا على هذا النحو مع ضرورة دعم طبقة معينة ، ليست بالضرورة الطبقة الأجدر بالعطف والتأييد ، في بعض الظروف الحرجة .

وبكلمة ، فإن ماركس يعيد تحديد وتعريف المفاهيم القومية بتعابير اشتراكية . ان على « الوطني المستنير » ان يدعم البرنامج الاشتراكي ، معتبراً البروليتاريا بمثابة « الطبقة القومية » الحقة ، او التي يفترض ان تصير كذلك في مستقبل قريب ، لأن هذا البرنامج يخدم تقدم الأمة .

وتجدر الملاحظة ان هذا المفهوم ، الذي عرضناه على نحو شديد التبسيط ، يختلف عن النزعة الكوسموبوليتية اللاصقة بعصر الأنوار Aufklärung قبل كانت Kant على الأقل. كما انه يختلف عن القومية الرومانسية الرائجة عهدئذ ، وهي المذهب الذي « يقسم الانسانية الى أمم منفصلة متميزة » ، ويزعم ان هذه الأمم ينبغي أن تؤلف دولاً ذات سيادة ، ويؤكد ان أجزاء أمة ما إنما تكتمل وتصبح حرة بتحقيق الهوية الخاصة بأمتها وتذويب شخصيتها الخاصة في الكلية القومية » ^(١) .

ان هذه القومية الرومانسية ، المقبولة الآونة في سائر أنحاء العالم الثالث بعد ان كانت هوى أوروبا (الوسطى والشرقية منها بخاصة) في القرن التاسع عشر ، المبنية على المصادرة postulat التي أوضحها كيدوري في الأسطر السابقة ، والمقبولة على نحو غير نقدي بمثابة بديهة بينة — هذه القومية الرومانسية بعيدة عن منظور ماركس . لم يكن ماركس قومياً من الطراز الرومانسي الألماني او من الطراز العالم ثالثي حالياً . فالأمة بالنسبة إليه ليست معطى أول ، المؤثلة جذورها الى هذا الحد او ذاك من العمق في الطبيعة ، الصائرة على نحو مسبق وفي جميع الحالات الى تشكيل دولة مستقلة . انها تكوين formation تاريخي محتمل contingente من الممكن جداً ان يكون مختلفاً عما هو عليه .

(١) كيدوري : « القومية » ، ص ٧٣ .

فالأمة الفرنسية مثلاً ، كان من الممكن جداً ألا تضم فرنسا الجنوبية ، وان يبقى جانباً اقليم فرانش كونته ، وكذلك الأمر بالنسبة لبلجيكا والولونية او سويسرا الروماندية (*) .

بالنسبة لإيديولوجية ماركس ، ليست حقوق كل جماعة قومية في تكوين امة مستقلة او دولة مستقلة هي الأهداف الأكثر اهمية . وبين سائر القيم الاخرى فإن اكثر القيم سمواً (او انها القيمة التي تنيف على تلك) هي سعادة — أي اقصى حد من الحرية والمساواة والاخاء — الانسانية جمعاء . وهذه السعادة لا تتحقق إلا في مجتمع اشتراكي ، وإن كل الأمور — بما في ذلك الارادات القومية لأقوام معينة — ينبغي ان تربط بهذا الهدف .

وعلى هذا فإن انجاز قد كتب ، وماركس كان ما يزال حياً ، الى برنشتاين عام ١٨٨٢ بصدد انتفاضة داماسيا (**):

«علينا ان نساعد تحرير البروليتاريا الاوروبية الغربية، وينبغي ان نخضع لهذا الهدف سائر الأهداف الاخرى . ومهما بلغت أهمية الدول البلقانية وغيرها ، فإن جهدها في سبيل التحرر ما ان يتعارض مع مصالح البروليتاريا فإن لآخرين ان يعنوا بها ويتحملوا اعباءها ! ان الالزاسيين مضطهدون ايضاً ولكن اذا اثاروا ، عشية ثورة معبئة مرتقبة، حرباً بين فرنسا وألمانيا ، اذا خلقوا مجدداً وضعاً محتدماً بين هذين الشعبين فأخروا ساعة الثورة ، فإنني سأقول : قفوا ! يمكنكم ان تصبروا بقدر ما تصبر البروليتاريا الاوروبية ! فعندما تحرر هذه البروليتاريا نفسها ستكونون احراراً كذلك . في هذه الحدود ، لن نتسامح بأن تشوشوا مشروعات البروليتاريا المنخرطة في

(*) فرانش كونته : الاسم القديم لمقاطعة تقع شرقي فرنسا ، عاصمتها بيزانسون . أما بلجيكا والولونية فهي قسم من بلجيكا الذي يتكلم سكانه اللغة الفرنسية ، وسويسرا الروماندية هي قسم من سويسرا الذي يتكلم سكانه الفرنسية . (المترجم)

(**) مقاطعة يوغوسلافية تقع على بحر الادرياتيك . (المترجم)

هذا النص ليس تظاهرة من تظاهرات الشوفينية الأوروبية الغربية . فالبروليتاريا الأوروبية الغربية ترى ان مصالحها تحتل مركز الصف الأول ، وهذا امر بديهي بالنسبة لماركس وأنجاز ، وذلك لأنها تجسد نواة البروليتاريا العالمية . يعلق كاوتسكي بحق : « هنا يظهر حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها خاضعاً لمتطلبات التطور الاجتماعي العام الذي يشكل نضال الطبقات البروليتارية قوته المحركة الرئيسية » (٢) .

إن ماركس يعترف بالحقائق الواقعة ، حقائق الأقوام والقوميات . غير انه من الممكن ان يضحى بمصالح بعضها لحساب المصلحة العامة للنضال البروليتاري التي يمكن ان تتفق وتتطابق مع مصالح اقوام اخرى . وهكذا ففي حين أننا نرى بعض الأقوام تفيد من مزية غير مستحقة ، ولكن حالة موضوعية تفرضها ، وترى مصالحها متفقة مع مصالح الانسانية ، نرى اقواماً اخرى محرومة من هذه المزية الى حد احتمال زوالها . من المعروف ان ماركس قد وقف خلال أزمة ١٨٤٨ ضد حركة التشيك والكروات وذلك لأن روسيا الرجعية يمكن ان تلعب بهذه الحركة ضد هنغاريا ، ولأنه كان يرى نضال المجريين في سبيل الاستقلال امراً هاماً بالنسبة لمستقبل الحركة البروليتارية . كان ماركس يعتقد ان التمثيل ظاهرة مرغوبة ومطلوبة بالنسبة للأقوام الصغيرة ، وإنه امر يفترض حصوله بالضرورة ، يدفع اليه ويسببه سير التطور الاقتصادي الذي يسهل تكوين أمم كبيرة . وعلى هذا فإنه قد نذر الامم السلافية (عدا بولونيا) في الامبراطورية النمساوية - المجرية الى الانقراض عبر التمثيل ، تماماً كشأن الباسكيين والبريتونيين او الغالين .

ولكن يجب ان نفهم جيداً ان ماركس كان يقاوم الاضطهاد في أي مكان

(١) استشهد بها كاوتسكي في كتابه : « تحرير الأمم » .

(٢) نفس المرجع .

يظهر فيه ، بما في ذلك البلدان المستعمرة . بيد ان هذا لم يمنعه البتة من الاعتقاد ، أولاً ، ان الاضطهاد يمكن ان يؤدي عبر وسائل فظيعة الى نتائج تعتبر بحد ذاتها مرغوبة . فبصدد الهند مثلاً ، نرى ماركس ، بعد ان يشهر مجرائم الانكليز ودوافعهم الدنيئة الانانية ، يورد اشعاراً لغوته : « أيجب ان يعذبنا ذلك الحزن — ما دام يزيد فرحنا ؟ ألم يتلف نير تيمور — حياة ملايين البشر » (١) .

ومن جهة اخرى ، فإن ماركس لم يقدر ، مثل القوميين الاوروبيين في عصره او قوميي العالم الثالث اليوم ، ان النضال ضد الاضطهاد القومي لا بد ان يؤول بالضرورة الى تكوين دول خاصة تناسب كل قوم وتؤطره . ان التمثل او الامتصاص بالقوة هو امر سيء ما دام تحقيقه يجري بالإكراه . ولكن لنقل مرة اخرى ان النتيجة الحاصلة يمكن ان تكون بحد ذاتها مفيدة ، ومفيد كذلك الوصول الى خلق وحدة قومية كبيرة . وفي كل الاحوال ، ومن خلال هذا المنظور ، فإن كل تمثل لا يمكن إلا ان يشجع .

٢ - افكار الأمية الثانية (٢)

في عهد الأمية الثانية ، فرضت الظاهرة القومية نفسها بقوة شديدة ، بحيث استأثرت بانتباه الجميع . فما هي الحالة الذهنية العامة والايديولوجية ، الضمنية ، التي كانت تمنهج

(١) عن « نصوص حول الاستعمار » . موسكو ، دار النشر باللغات الاجنبية ، ص ٤٣ .
(٢) راجع بصورة خاصة د. بورسنز: « البلاشفة والمسألة القومية والكولونيالية » ، جنيف ، دار منشورات « دروز » في جنيف وباريس - مينار ١٩٥٧ و « دراسات في التاريخ الاقتصادي والسياسي والاجتماعي » و « الماركسية وآسيا - ١٨٥٣ - ١٩٦٤ » ، نصوص قام بترجمتها وتقديمها س. شرام و ه. كارير دانكوس ، باريس ، أرمان كولان ١٩٦٥ .
[نقل الكتاب الى العربية ، ونشرته دار الحقيقة باسم: « الماركسية اللينينية أمام مشكلات الثورة في العالم غير الاوربي »] و « الأمية الثانية والشرق » نشر باشراف ج. هوب و ب. ريبيرو ، باريس ، منشورات كوجاس ، ١٩٦٧ .

في الاعماق، وتعطي معنى لجميع الافكار المشتتة التي كان يعبر عنها الماركسيون في تلك الفترة ؟ يبدو لي ان اللوحة هنا تسودها امانة اجمالية لايدولوجية ماركس . تبقى ثمة معارضة حازمة للاضطهاد القومي ، بوصفه ظاهرة لفرض سلطة استبدادية تنبغي ازلتها . وينبغي ان نتذكر ان السلطة كانت ، في ذلك العهد ، كلياً ، الى جانب الآخرين، اي البورجوازيين والرأسماليين والاقطاعيين . ولكن ، كما كان الامر عند ماركس ، فان الاستقلال القومي لم يكن القيمة العليا ، إذ ينبغي ان يضحى بالقيم القومية ، في كثير من الاحيان ، من اجل تحقيق السعادة القصوى للبشرية ، وبالدرجة الاولى من اجل مصالح الثورة الاشتراكية .

إلا انه يمكننا، أمام هذه الخلفية من الاخلاص للأساس، ان نلاحظ عملية ادخال حاذقة لعناصر من الفكر القومي ، متسترة في شطر كبير منها ، او لا واعية .

ونجد في الحركة الاشتراكية الديمقراطية احساساً حاداً بالتفوق الاوروبي، يدعمه ويؤكد مفهوم الطبقة العاملة الاوروبية بصفتها طليعة للاشتراكية . وهذه هي الفكرة المشتركة بين ماركس وانجلز منذ البدء حول تفوق الحضارة الاوروبية . ومن هذا المفهوم الشامل الذي يفرض نفسه ، حتى على الشعوب خارج اوروبا ، تكتفي الاشتراكية - الديمقراطية بإعطاء صيغة خاصة ، نوعية . واذا كانت اوروبا هي طليعة الحضارة الاوروبية ، فالبروليتاريا الاوروبية هي طليعة الطليعة . وهكذا جرى تطوير مفهوم للتفوق الاوروبي ، يجد ، موضوعياً ، تبريراً له ، الى حد ما ، وبمعنى ما (ولكن بهذا المعنى وحده) ؛ لكن هذا المفهوم لم يحل ، مع ذلك ، دون توليد مشاعر وأفكار وإغراءات عنصرية الطابع ، اذا اخذنا هذه الصفة بمعنى واسع جداً^(١) .

(١) شرحت بعض الشيء في هذا الموضوع في مقالي : « الماركسية والنزعة العنصرية » ، مجلة « لانيف » - السنة ٢١ - العددان ١٩ - ٢٠ (١٩٦٤) .

ومن جهة اخرى ، فان الاحزاب الاشتراكية — الديمقراطية هي هيئات وأجهزة للدفاع عن الطبقة العاملة والطبقات غير المحبوبة في اوروبا. وقد غدت تلك الاحزاب احزاباً جماهيرية . وقد تفاعلت مع تأثير قاعدتها الاجتماعية . كانت هذه الاحزاب تحس بالمصالح الفعلية الواقعية الحقيقية، المباشرة والمموسة لهذه القاعدة، هذه المصالح التي تشمل المشاركة في مكاسب النشاط الاستعماري لكل بلد. وانطلاقاً من رؤية «ماركسية» جداً نقول ان وضع الطبقة العاملة كان يزن على موقفها، وانتهى الامر بهذا الموقف الى التأثير، خفية، على افكار قادة الطبقة العاملة ، رغم جميع الكوابح التي اقامتها ايدولوجيتهم . وقد ولدت من هذا الوضع — وليس فقط إزاء مسألة المستعمرات — نزعة متنامية لمحاباة القيم القومية على حساب مصالح الثورة الأممية ، والتفكير على اساس مصالح الجماعة القومية ، التي تشكل الطبقة العاملة ، المندجة بها اكثر فأكثر، جزءاً منها . وسوف يتجلى ذلك في ساعة الحقيقة ، في آب ١٩١٤ . وسوف يُلاحظ حينئذ ان الايدولوجية الأممية قد قوّضت من الداخل بتلك المواقف التي اتخذتها الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية ، بصفتها هيئات وأجهزة للدفاع عن الطبقات العمالية في كل أمة . وسيحاول لينين ان يفسر الظاهرة ، وذلك بنظريته حول الارستقراطية العمالية في إطار الاقتصاد الامبريالي . ولكن لم تكن تلك خاتمة المسألة ، بل سنشهد الاسباب ذاتها تولد نفس النتائج داخل الأممية الثالثة .

هذه الايدولوجية الضمنية ، بتياراتها المتناقضة ، هي التي يجب ان تكون حاضرة في الذهن حين ندرس التفاعلات السياسية والاستراتيجية والتكتيكية والنظرية للأممية الثانية إزاء المسألة القومية .

هذه التفاعلات كانت حتمية ، لا مناص منها . وكان ينبغي اتخاذ موقف سياسي إزاء المطالب القومية للأقوام التي تشكل أقلييات في امبراطورية النمسا — المجر والامبراطورية الروسية. وهما امبراطوريتان كانت فيهما الحركة الاشتراكية ذات أهمية . وكذلك في جميع البلدان التي تملك مستعمرات ، كان ينبغي

اتخاذ موقف ازاء السياسة الاستعمارية، لم يكن بعد جواباً على مطالب شعوب المستعمرات (التي كانت تعتبر غير موجودة ، او التي كانت نادراً ما تظهر في شكل برامج لأحزاب منظمة ، او ان تلك المطالب كانت ايضاً تتخذ وجوهاً رجعية او دينية ، قليلاً ما كانت تتمتع بعطف الحركة الماركسية) بل نتيجته لتأثيراتها على سياسات المتروبولات ذاتها .

وهكذا طرحت مسائل تكتيكية وتنظيمية .

هل كان يجب ، من الناحية التكتيكية ، دعم جميع تجليات وتظاهرات المطالب القومية ؟ ان كان لا ، فأية مطالب يجب ان تدعم ؟

ومن الناحية التنظيمية ، هل ينبغي السماح لفروع « قومية » ان تقيم تنظيماً لها داخل الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية في الامبراطوريات المتعددة القوميات ؟ ان كان الجواب بالاجاب ، فبأي شكل يكون ذلك التنظيم ؟

هذه المسائل التكتيكية والتنظيمية هي التي كانت تستثير المناقشات البالغة الأهمية والأولية ، والتي ستدفع بعض المثقفين نحو التنظير . وليست النظرية هي التي قادت عمليات الاختيار . ومرة اخرى نلاحظ ، اذا نحن فعلنا ما يرفض الايديولوجيون الماركسيون بعناد ان يفعلوه ، أي درسنا التنظيمات والدول الماركسية بواسطة المقولات السوسيولوجية للماركسية ، وبكلمة ، تطبيق الماركسية على الماركسية ذاتها ، نلاحظ مجدداً بصورة « ماركسية » جداً ، ان أفكار وردود فعل الأيميتين الثانية والثالثة كانت تخضع لمطلبات الوضع المأموس أكثر بكثير من خضوعها لنظرية جاهزة ، قائمة مسبقاً .

ومن الوجهة التكتيكية ، نستطيع ان ندرس الجدال الشهير الذي تابعت فيه روزا لوكسمبورغ (متفقة مع عدد معين من « اليساريين » ومنهم تروتسكي) وجهة نظر ماركس . لقد أعلنت روزا وقوفها ضد استقلال بولونيا ، ذلك لأن ثمة فائدة ، من وجهة نظر البروليتاريا العالمية ، في ان تصبح الامبراطورية الروسية دولة رأسمالية كبرى حيث ستنمو البروليتاريا وتكتسب قوة كبرى . وينبغي ، من اجل هذا ، ان تتسع السوق القومية

الروسية الى اوسع ما يمكن ، وأن تشمل بولونيا بالتالي . وبالعكس ، فان بولونيا مستقلة ستكون دولة زراعية صغيرة ، ذات قاعدة من الاراضي غير كافية لكي تتطور فيها صناعة كبرى ، وسيطر عليها الاقطاعيون . ويمكن القول، في الحقيقة، في ضوء تجربة فترة ما بين الحربين، ان روزا لوكسمبورغ لم تكن على خطأ تماماً . لقد كانت تلح ، من جهة اخرى، على واقع ان جميع النضالات القومية في ذلك العهد كانت لا تعكس المطالب العفوية للأقوام المعنية بقدر ما كانت تعكس الصراعات بين الدول الكبرى التي كانت تستخدم المطامح القومية ، هذا اذا لم تكن تسهم اصلاً في فبركة تلك المطامح . وفي هذه النقطة ايضاً لم تكن روزا لوكسمبورغ على خطأ تام .

ومعروف ان هذه المسألة قد وضعت في جدول أعمال الحزب الاشتراكي-الديمقراطي في الامبراطورية النمساوية - المجرية ، وذلك في مؤتمر بروون (برنو ، اليوم) عام ١٨٩٩ . وبالنسبة لتفاصيل المناقشة المعقدة المتعددة الوجوه التي جرت في ذلك المؤتمر ، سأكتفي بحالة القاريء ، الى كتابي بيبس وبورسنر ، مثلاً، حيث درست تلك المناقشة ^(١) . وفي خاتمة المطاف ، فان القرار الذي اتخذته المؤتمر كان المطالبة بتحقيق «الاستقلال الذاتي الاقليمي» للاقلييات القومية . وكان هذا يعني أن كل قومية قائمة في أراضٍ متصلة في الامبراطورية النمساوية - المجرية يجب أن تُمنَح الاستقلال الذاتي داخل الامبراطورية الثنائية تلك . وعلاوة على ذلك، يجب إقامة «اتحاد» Verband من شأنه ان يعيد تجميع المناطق، حتى الصغيرة، التي تقيم فيها نفس القومية . مثلاً ، كان يوجد في منطقة « الترانثان » إقليم ايطالي ، كما كانت توجد

(١) د. بورسنر ، المرجع المذكور في حاشية سابقة ، ص ٣٢ وما يليها . ر. بيبس: « نشوء الاتحاد السوفياتي - الشيوعية والقومية ، ١٩١٧ - ١٩٢٣ » كامبردج ماس، منشورات جامعة هارفارد، ١٩٥٤، ص ٢٤. وانظر ايضاً تحليلاً اكثر تفصيلاً في مقالي « حول النظرية الماركسية في الامة » (صحيفة « سبل جديدة » العدد ٢ ، ايار ١٩٥٨ ، ص ٢٥ - ٣٠) [منشور في هذا الكتاب] .

جيوب إيطالية صغيرة متناثرة في الامبراطورية . فكان لسكان زارا وراغوز ان يشكلوا اتحاداً Verband مع الترانتان، ويقترح سكان هذا الاتحاد لانتخاب ممثلي الايطاليين في امبراطورية النمسا - المجر. لقد رفض المؤتمر بشدة الاقتراح اليوغوسلافي الذي كان يطلب « الاستقلال الذاتي القومي الثقافي غير الاقليمي extraterritoriale » ، أي ان جميع الأشخاص التابعين لنفس القومية ، ولو كانوا متناثرين وليست لهم أية علاقة اجتماعية بـ « مواطنيهم » ، يشكلون جماعة تُمنح الاستقلال الذاتي في ميداني اللغة والثقافة .

إن مطلب الاستقلال الذاتي القومي والاقليمي كما صاغه مؤتمر بروون ، قد أقره داخل الحزب الاشتراكي - الديمقراطي الروسي بعض المناشفة القفقاسيين ، كما أقره « البوند » ، حزب العمال اليهود . وقد لعبت دوراً في ذلك مكانة وحُظوة ، أعضاء الحزب الاشتراكي - الديمقراطي النمساوي - المجري ، الذين اشتهروا بأنهم أشخاص جديون كاللمان، ويملكون عقلاً نظرياً قوياً . لكن لينين برهن ، في هذا المجال ايضاً ، على أصالة في التفكير . لقد كانت لديه أفكاره الخاصة في هذه المسألة، هذه الأفكار المستخلصة من دراسة الوضع الخاص للأقليات في الامبراطورية الروسية . وكان لينين يرى ان حق الاستقلال الذاتي القومي يجب الاعتراف به ، على كل حال . وكان يلح على هذه النقطة لأنه كان يقدّر ، بعكس روزا لوكسمبورغ ، التي كانت تفكر في أقليات أخرى ، القوة الثورية الكبرى التي يمكن ان تشكلها مطالب القوميات غير الروسية في الامبراطورية الروسية. لكنه كان يضيف على الفور، برهافة فكر ، ان حق الطلاق لا يعني لزوم الطلاق . إن من حق القوميات ان تطلب الاستقلال الذاتي او الاستقلال ، لكن باستطاعة الاشتراكيين الديمقراطيين ، حسب الأحوال ، ان يدعموا هذا المطلب او لا يدعموه . وما من قومية لها حق غير مشروط في مساندتهم، بل إن الديمقراطيين الاشتراكيين سيدعمون المطالب القومية وذلك فقط في حالات تطابقها مع المصلحة العامة للبروليتاريا . وفي جميع الأحوال ، فإن الأقوام التي تملك ارضاً لها بعض

التواصل والترابط هي وحدها التي سوف تستطيع المطالبة بهذه المساندة .
وتحدث لينين أيضاً ، بصورة عَرَضية ، قبل انتصاره ، عن حق الأمة في
حرية تقرير مصيرها، كأمر يجب ان يطبق كذلك في الدولة الاشتراكية المقبلة.
بعد قيام هذه سيحدث تقارب متسارع ، وحتى اندماج ، بين القوميات ^(١).

كانت مسألة تنظيم الحزب تلعب دوراً هاماً جداً في هذه المناقشات ،
بارتباطها بالمسائل التكتيكية . وكان النمساويون ، يتبعهم المناشفة القفقاسيون
و « البوند » يريدون ان يجعلوا من الحزب اتحاداً فيدرالياً مؤلفاً من فروع
قومية . وكان لينين ، المناصر دائماً لمركزية كان يرى فيها ضماناً الفعالية ،
ينادي بقيام حزب موحد ذي فروع اقليمية (على اساس المناطق والاراضي)
وليس قومية .

في ذلك الحين ، وعلى اساس هذه المناقشات التكتيكية والتنظيمية ،
ظهرت المحاولات الماركسية الاولى لتفكير نظري خاص بمسألة الامة هذه .

ان اهم هذه المحاولات ، وهي واحدة من الاوليات ، قد حدث انها كانت
الافضل ، ولم يتم تخطيطها بعد ذلك . انها الكتاب الضخم الذي ألفه اوتو باور :
« مسألة القوميات والاشتراكية الديمقراطية » الصادر في فيينا ، عام
١٩٠٧ ^(٢) . والماركسيون يعرفون بصورة عامة هذا الكتاب من خلال بعض
المقاطع التي يستشهد بها ستالين ، مع تعليقات منه مفعمة بالازدراء ، وكان

(١) راجع ، على الأخص ، لينين : « ملاحظات انتقادية حول المسألة القومية » (١٩١٣) ،
وقد نشرت هذه الدراسة عدة مرات في اللغة الفرنسية مع مقالات مختلفة حول نفس الموضوع ،
وبخاصة في الكراس الذي يحمل ذلك العنوان ، « المنشورات الاجتماعية » باريس ١٩٥٢ ،
والكراس المنشور في موسكو اكثر غنى . والنصوص الرئيسية موجودة في « مؤلفات لينين الكاملة »
(الترجمة الفرنسية على اساس الطبعة الروسية الرابعة) الجزء العشرون . المنشورات باللغات الأجنبية ،
١٩٥٩ ، والجزء ٢٢ ، نفس المنشورات .

(٢) الطبعة الثانية ، فيينا ، ١٩٢٤ .

الماركسيون يزددرونه ايضاً، بدورهم، اعتماداً على ذمة جوزيف فيساريونوفيتش. إلا اننا اذا قرأنا كتاب اوتو باور ، نلاحظ ان ستالين لم يفهم ، في اغلب الاحيان ، ما قاله باور ، او انه اذا فهمه، فانه قد شوهه عن قصد . ويواصل الماركسيون الرجوع الى مقال ستالين في هذه المسألة ، هذا المقال الاقل ذكاء بما لا يقاس ، والاقل إحاطة بالمعلومات ، والاقل أهمية في جميع النواحي ، من دراسة باور . وبالنسبة لأولئك الذين يحتاجون الى أسانيد من هذا النوع لكي يصدقوا ما اقول ، تنبغي الإشارة الى ان لينين (الذي كان ، بصورة ملحوظة ، قليل الحماسة لمقال ستالين، علماً بأنه كان قد علق على دراسة ستالين بعض الامل أثناء كتابتها) قد كتب : « ان اوتو باور يعقل ويحكم جيداً مجموعة كبيرة من المسائل الجوهرية » ^(١) . وفي رأي لينين ان موضوعه باور حول الاستقلال الذاتي الثقافي غير الاقليمي ، وهي الموضوعة التي كان يناهضها لينين، هي خطأ تفصيلي في مؤلف مرموق. أما بالنسبة لستالين الذي لم يعتقد على تمييزات دقيقة الى هذا الحد ، فان تلك الموضوعة « الخاطئة » كانت تلطخ الكتاب كله ، وهي ، بالضبط ، دليل على فساد هذا الكتاب وانحرافه الأساسيين .

يسوِّغ باور، بصورة اساسية، وجود الأمة بصفتها وحدة عضوية تملك وجوداً خاصاً بها . وهو يحدد الأمة بصفتها مجموع الناس الذين تربط ما بينهم جامعة مصيرهم التاريخي وجامعة الطابع . وجامعة الطابع هذه ، الطابع القومي ، كانت موضوعاً للانتقاد الذي قام به ستالين ، وعدد لا يحصى من الماركسيين من بعده ، الذين سارعوا الى اكتشاف انحراف نفسي في افكار باور . إنني لا أريد الدفاع عن التعريف الذي قدمه باور ، الذي اعتقد انه قابل للنقد . إلا ان ستالين يشوّه افكار باور ، حين يدعي ان تعريف الاخير « يفصل الأمة

(١) « ملاحظات انتقادية ... » موسكو - ص ١٣٧ ، و « المؤلفات الكاملة » المجلد ٢٢

عن الارض ويجعل منها ضرباً من قوة غير مرئية، مستقلة بذاتها ... كما يجعل منها ضرباً من صوفية، لا يمكن إلتقاطها، ماورائية»^(١). ان الطابع القومي، في نظر باور، ليس قوة مستقلة، بل هو مكتشف مجمل تاريخ الأمة، تاريخ الاجداد وظروف نضالهم من اجل الحياة، وقوى الانتاج التي كانوا يسيطرون عليها، وعلاقات الانتاج التي كانوا يندرجون فيها. ان باور لا يفصل مطلقاً هذا الطابع القومي، هذه المقولة من بסיكولوجية الجماعات، عن الشروط المموسة للحياة الاجتماعية، كما يتهمه ستالين.

وإذا كان البروليتاريون، كما تقول العبارة الشهيرة من البيان الشيوعي، لا يملكون وطناً، فليس هذا إعلاناً معادياً للوطن، بل هو تسجيل لواقع ان المجتمع البورجوازي قد جردهم من مشاركتهم في وطن معين. ويردد باور هذه الموضوعة الماركسية المعروفة، ويضيف، شأن آخرين كثيرين، ان البروليتاريين يكون لهم أخيراً وطن في المجتمع الاشتراكي. ويهاجم باور النظرة الشائعة لدى الماركسيين والقائلة ان العالم الاشتراكي سوف يسير نحو الانصهار في كيان واحد، ونحو اندماج الثقافات القومية في ثقافة واحدة، ونحو حضارة عالمية واحدة الشكل، وباور يرى، بالعكس، ان الثقافات القومية ستجد حياة جديدة لها بواسطة الاشتراكية، بل إننا سوف نشهد تعدداً وتمايزاً متزايدين. وهكذا يعود باور الى امتداح التعددية التي شرع هيردر بالحديث عنها في المانيا في مطلع القرن التاسع عشر والتي سيجري ترديدها كثيراً فيما بعد.

وعلى صعيد المطالب التي على الحركة الاشتراكية الديمقراطية ان تدافع عنها، فإن باور ينادي بالاستقلال الذاتي الثقافي غير الاقليمي. وقد سبق القول ان لينين يهاجم باور حول هذه النقطة. ان باور يضع المسألة

(١) ج. ستالين «الماركسية والمسألة القومية والاستعمارية»، باريس، المنشورات الاجتماعية

القومية بصورة اساسية على الصعيد الثقافي . مثلاً ، ينبغي ان يستطيع جميع ايطاليي الامبراطورية النمساوية - المجرية ان يبتوا بصورة مشتركة في المسائل الثقافية التي تتعلق بهم ، وفي هذه المسائل فقط . وكان باور يرى ان ذلك يحقق ميزة إفساح المجال حراً لأجل النضال الطبقي . ومن جهة اخرى ، مثلاً ، فإن عمليات الزوج المتكررة لمختلف الاقوام داخل الامبراطورية لن تستثير اصطدامات فيما بينهم ، ثم مع اسباب اخرى ، بسبب صعوبة إعادة إحكام حدود الاقاليم « القومية » .

لقد أكملت دراسة باور ، ولا سيما من الزاوية الحقوقية ، بدراسة كارل رينير (الذي كان يوقع مقالاته بإمضاء رودولف شبرنجر او بإمضاء سينوبتيكوس) الذي سيصبح فيما بعد رئيساً للجمهورية النمسا (١) .

لكن اشهر مؤلف في ذلك العهد كان بلا جдал هو كراس ستالين : « الماركسية والمسألة القومية » ، وإن كانت هذه الشهرة لا تعود فقط الى الصفات الذاتية للكتاب . وأسمح لنفسي بأن أحيل القارئ الى المقال الذي اشرت فيه الى العلائم الدالة على ان لينين ، الذي اوصى الشاب الجيورجي بكتابة هذا المقال لمجلة « بروسفيشتيينه » (التعليم) والذي كان يأمل الكثير منه ، قد أصيب بخيبة امل بعد ظهور مقال ستالين (٢) ، ولم يرضه هذا المقال إلا قليلاً جداً . وقد اكتفى ستالين في مقاله برصف تعريف مقتضب ودوغمائي للأمة (وهو تعريف استهل به مقاله ، وتلك طريقة مدرسية (سكولاستيكية)

(١) نشر مؤخراً كتاب لكارل رينير ، بعد وفاته ، وهو بعنوان « الامة : اسطورة وحقيقة » - فيينا - اوروبا فيرلاغ ، ١٩٦٤ .

(٢) لقد كتب لينين ، بعد ذلك ببضعة شهور في نفس المجلة مقالاً حول نفس الموضوع دون ان يستشهد بشيء من اقوال ستالين . وفي رأي لينين ان ثمة « نظريتين ماركسيتين بصدد المسألة القومية » ، وهما نظرية باور - رينير ، ونظرية كاوتسكي . ويخالف لينين ستالين صراحة في بعض النقاط ، الخ . راجع تفصيل ذلك في مقالتي بمجلة « طرق جديدة » المذكورة آنفاً .

غير انها تكاد تكون غير علمية (الى جانب عملية تسويغ لموضوعات لينين حول التكتيك والتنظيم .

وأخيراً ، تنبغي الإشارة الى جهد كاوتسكي نفسه ، هذا الجهد الذي بلغ نقطة الأوج عام ١٩١٧ ، في كراسه « تحرير الأمم »^(١) ، وهو يشكل في شطر هام منه جدالاً موجهاً ضد باور . إن معيار الأمة في نظر كاوتسكي هو ببساطة اللغة ، واللغة وحدها . وينتج عن ذلك ان الثقافة ، غير المرتبطة ارتباطاً وثيقاً باللغة ، لا ترتبط كذلك إلزامياً بالأمة . « ان الادراك الجماعي القومي المتميز » ، والذي يتحدث عنه باور ، والذي من شأنه ان يلوّن جميع العناصر الثقافية المتمثلة من قبل الأمة (كما يتمثل شخص ما جميع العناصر التي يتلقاها من الخارج ويعطيها طابعاً شخصياً) ليس موجوداً — في رأي كاوتسكي — هذا اذا وجد ، إلا لدى الأمم الصغيرة الخاضعة في ارض صغيرة الرقعة لشروط جد متائلة . والشروط نفسها يمكن ايضاً ان توجد تماثلاً بين ثقافة وعقلية شعبين يتكلمان لغتين مختلفتين . فالتشيكيون ، وقد اعترف باور بذلك هو نفسه ، هم « المان يتكلمون اللغة التشيكية » . هذه النظرة الى الامور اتاحت لكاوتسكي الاحاج على الطابع العالمي لثقافة الشعوب الاوروبية . والعمال ، نتيجة عمليات النزوح والانتقال ، يصبحون اكثر فأكثر ، ذوي لغتين ، او ثلاث لغات . « ان الذي يتكلم عدة لغات ، لا يظل مرتبطاً بالأمة التي ولد فيها . ويمكن ان يغير أمته وفق مشيئته » (ص ٤٤) .

وكاوتسكي ، المخلص للنزعة الأممية الماركسية ، يعنى عناية خاصة بالتأكيد بأن « تعارض القوميات في الدول المتعددة القوميات لا ينتج عن تعارض ما بين الخصائص القومية والثقافات القومية : « ان التعدد لم يعد يعنى تعارضاً . ان الخلافات القومية تنشأ من الصراع من اجل الاسواق ، او من اجل سلطة الدولة » . هذا الصراع هو الذي سبّب اضطهاد أمم معينة ، وقد لحم

(١) شتوتغارت ، ديتيز ، ١٩١٧ .

الاضطهاد الجماعية القومية المضطهدة من خلال الرفض . ان الدولة البروليتارية لن تعاني هذا الصراع ، نظراً لأنها ستكون ديمقراطية تماماً . فالاشتراكية ، التي هي نتيجة حركة أممية ، ستؤدي الى انحسار الحدود والفوارق بين القوميات . وخلافاً لنظرة باور « فان هدف التطور الاشتراكي ، ليس إيجاد التمايز ، بل تحقيق اندماج القوميات ، وليس حصول الجماهير على الثقافة القومية ، بل على الثقافة الاوروبية التي ستتطابق ، أكثر فأكثر ، مع الثقافة العالمية » (ص ٤٧) . ويمكن ان نستشف ، في هذه البشرية الاشتراكية ، توحيد اللغات ، وإزالة لعنة (تعدد اللغات) برج بابل ، التي يبدو ان إلهاً غاضباً قد ضرب بها سكان ذلك البرج ليمنع صعود البشرية نحو السماء . « وبدلاً من ذلك سيغني الناس نشيد الانشاد الجديد ، النشيد الأممي » (ص ٥١) .

٣ - أفكار الاممية الثالثة

ينبغي البدء هنا ايضاً برسم لوحة الايديولوجية المضمرة الضمنية . ويجب الاعتراف ايضاً ، في الاساس ، بوجود اخلاص لقيم ايديولوجية ماركس . وعند البدء ، على الاخص ، نشهد انبعاثاً للشعلة الثورية الماركسية ، ولحرارة محتدمة في فضح الاضطهاد بجميع أشكاله ، وبخاصة الاضطهاد القومي . لقد قامت الاممية الثالثة بمثابة رد فعل ضد « خيانة » الاممية الثانية . ان تساهلات الاخيرة ازاء الكولونيالية وإزاء النزعة القومية قد جرى فضحها من قبل الاممية الثالثة ، في عداد كثير من تظاهرات تلك الخيانة الاساسية . وكان في حركة الاممية الثالثة تجدد لنشاط النزعة الاممية جاء بمثابة رد فعل ضد « حشو الادمغة » المنادي بحب الاوطان خلال الاعوام ١٩١٤-١٩١٨ ، وتجدد النشاط هذا تجلّى بأشكال كثيرة : مثلاً بالطابع غير القومي لتسمية الاتحاد الجديد للجمهوريات السوفياتية ، المفتوح شرعاً لبلدان الكون بأسره ، هذا الاتحاد الذي اتخذ « النشيد الأممي » بمثابة نشيده القومي ؛ كما تجلّى ذلك النشاط بالمفهوم الممرّكز للأحزاب الشيوعية على النطاق العالمي . ويظهر هذا

خلال الاعوام الاولى ، على المستوى التنظيمي ، في « الشروط الـ ٢١ » ، والمستوى « الفولكلوري » على حد سواء ، في بُغض القاعدة الشيوعية لكل ظاهرة فيها أثر من النزعة القومية ، وفي انتشار لغة «الاسبرنتو» في الاوساط الشيوعية، هذه اللغة العالمية التي كان مقدراً لها ان تزيل في اجل محدد حالات عدم التفاهم بين الشعوب ، وفي كلمات ماث الاناشيد الشعبية لدى الاحزاب الشيوعية ، كما نجد مثلاً في النشيد الايطالي « الراية الحمراء » :

لم يعد هناك أعداء ، ولا حدود
فعلى الحدود ترفرف الرايات المحر

ومع ذلك ، فقد شهدنا ، هذه المرة ايضاً دخولاً مجدداً ، وبصورة جد تدريجية ، وببراعة كبيرة ، لعناصر قوموية النزعة . وبالرغم من الحرارة المحتملة للنزعة الاممية المعلنة في البدء ، لكننا نستطيع ان نتميز بسرعة البذور الاولى لتلك العناصر القومية. بادية بدء ، ان فكرة التفوق الاوروي قد أوحى بها استراتيجية تضع بصورة عامة في المرتبة الاولى نضال الطبقات العاملة في الغرب . وحيثما يصبح الحزب الشيوعي هو الناطق بلسان الطبقة العاملة والمدافع عنها ، فانه يتعرض من خلال عملية كالعلمية التي حدثت في الاممية الثانية لتأثير مصالح ومطامح الجماهير التي تسير وراءه . ومن جهة اخرى ، فان التفوق الروسي في الاممية الثالثة ستكون له تأثيرات هامة وخطيرة الى أقصى حد .

في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ، يجري ظاهرياً تطبيق قاعدة المساواة بين القوميات على النحو الأشد دقة . والأراضي التي بقيت من الامبراطورية الروسية قد جرى تقسيمها تبعاً للمعيار القومي. كما جرى توحيد ، بصورة ما ، بين الاشخاص المستتين التابعين لنفس « القومية » ، وبين أبناء قوميتهم الذين يعيشون في أرض قومية مترابطة متواصلة مجهزة ببنية سياسية . وعلى نحو يثير الدهشة ، كان هذا التنظيم المصاغ تحت رعاية ستالين ، المفوض لشؤون القوميات ، ينسخ بصورة جزئية مشروع باور للاستقلال الذاتي

الثقافي - القومي ، الذي سبق لستالين ان حمل عليه بعنف شديد في مقاله الصادر عام ١٩١٣ . وقد شهدنا في هذا التنظيم ظهور عناصر من الفكرة غير الاقليمية (الظاهرة بصورة خاصة في حالة اليهود) التي سبق لـ «الجورجي الرائع» ان انهال عليه - أي مشروع باور وفكرته عن ذلك التنظيم - بوابل غزير من السخرية اللاذعة والتهكم الموجه عام ١٩١٣ .

إلا ان التفوق الروسي (بما في ذلك تفوق العناصر المروسة) قد أبقى عملياً . ومنذ البدء ، شهدنا ظهور نزعة الروس الى التصرف بصفاتهم « أشقاء كبار » ، والمعروف انه حتى في هذه النقطة انفصل لينين عن ستالين ، ملاحظاً - أي لينين - باستفطاع عند ذلك الجورجي وأصدقائه ميولاً واضحة تماماً نحو الشوفينية الروسية ^(١) . ان مثل هذا الاتجاه كان ، في الاساس ، وبمقدار ما ، حتمياً لا يمكن تلافيه ^(٢) . لكنه كان يقدم بداية واستثارة لتطورات مقلقة . وإذا كان قد بُذل جهد كبير لأجل تطوير لغات القوميات غير الروسية ، فإن اللغة الروسية كانت ، بقوة الاشياء ، ذات امتياز . فالشعب الروسي هو الذي قام بالثورة ، والشيوعيون الروس يحسون إزاء ذلك بشيء من الاعتزاز . وعليهم ان يحافظوا على الشيوعية عند شعوب لم تعتنق بعد هذه العقيدة ، وهذا يعني ممارسة الارغام إزاء سكان الاقطار التي كانت تابعة لروسيا القيصرية، ويمكن ايجاد العذر لهؤلاء السكان اذا كانوا لم يعودوا يعرفون اذا كان الأمر يتعلق بمجرد جهد لفرض النظام الشيوعي ، من اجل خير الشعوب ولو رغماً عنها ، ام إن الأمر كان يتعلق بظاهرة للتفوق الروسي . وصحيح تماماً ان اكثرية سكان تلك

(١) راجع أحدث ما كتب في هذا الموضوع ، وهو كتاب موشي لوين ، الموفق : « معركة لينين الأخيرة » ، منشورات « مينوي » .

(٢) راجع مقدمتي لكتاب هيلين كارير دانكوس « الاصلاح والثورة عند مسلمي الامبراطورية الروسية » . باريس . منشورات آرمان كولان . ١٩٦٦ .

الأقطار ، غير الروسية ، ليست شيوعية ، لكن المسارعة في الاكتشاف ، عند شعوب تلك الأقطار ، لما يصنف عادة في باب تجليات النزعة القومية البرجوازية ، والتي ينال العقاب اصحابها بسببها ، كثيراً ما يكون مثيراً للقلق . أفلا يكون ، في كثير من الاحيان ، إزاء احتجاج ضد نزعة روسية معينة نحو الهيمنة ؟

إن نزوع جميع الاقوام الى الاستقلال ، هو حق معترف به ، في الاممية الشيوعية ، حسب مبادئ لينين ، وكذلك هي الحال بصدد الاقليات القومية في اوربا . إلا ان الطابع الراهن لذلك المطلب ، كان يتوقف على المصالح العامة للثورة العالمية ، وهذه المصالح كانت تقدرها هيئة اركان القيادة المركزية التي مقرها موسكو ، أي انها كانت عملياً رهناً بالاستراتيجية التي تقررها الحكومة السوفياتية . وخلال زمن طويل كانت ، عملياً ، رهناً بتقرير ستالين .

حقاً ان الخطوط الكبرى للاستراتيجية كانت تتغير ، تبعاً للفرات والمراحل . كانت ثمة فترات نضال الأحزاب الشيوعية بمفردها ، « طبقة ضد طبقة » ، في منظور ثورة وشيكة الوقوع ^(١) . ومنذ ذلك الحين ، انطلقت من عقالها مطالب سكان المستعمرات . والهدف المطلوب لم يكن الاستقلال القومي للبلدان الخاضعة ، في حد ذاته ، بقدر ما كان إضعاف الدول الرأسمالية الامبريالية .

وكانت ثمة فترات الجبهة الموحدة التي تضم الاشتراكيين والبرجوازية الديمقراطية ، بمنظور الانتقال البطيء الى الاشتراكية ، ثم النضال ضد الفاشية . والمعروف ان الشيوعيين قد اقترحوا ، اثناء هذه المرحلة الأخيرة ، جبهة

(١) يجب ان ندرج في هذه الفترات فترة الاتفاقية الالمانية - السوفياتية (١٩٣٩-١٩٤١) حيث عاد للظهور مجدداً ، لأسباب مختلفة ، برنامج النضال ضد البرجوازية في الداخل ، والمطالب الشديدة العنف ضد الامبرياليين البريطانيين والفرنسيين في المستعمرات ، لكن تغيير الخط كان متردداً ، ولم يتحقق في كل مكان .

مشاركة تضم جميع القوميين المصممين على الدفاع عن أنفسهم ضد هتلر. ومنذ ذلك الحين ، 'قُصرت مطالب سكان المستعمرات على تدابير ثانوية للإصلاح ، ودُعِيَ نافدو الصبر الى « جعل كل شيء تابعاً لمصلحة الوطن » .

ومثل هذا المذهب قد طُوّر ووسّع ، على كل حال ، بعد وفاة ستالين ، على يد الحزب الشيوعي الفرنسي بصدد حرب الجزائر . وكان هذا الحزب يعلن بأن استقلال الجزائر ، إذا ما تم الحصول عليه أصلاً ، فإن ذلك سيحدث في فرنسا ، وليس في الجزائر . وكان قادة الحزب الشيوعي الفرنسي يفكرون على هذا النحو : حين تنتصر الاشتراكية في فرنسا ، فإن المشكلة الجزائرية ستحل تلقائياً . طبعاً ، يمكن استهجان هذا الموقف ، والبحث فيه عن دوافع خفية . ولكن ينبغي ان لا ننسى ان ماركس كانت له مواقف من هذا النوع ، وقد اعتقد في بعض الأحيان بأن استقلال ايرلندا سوف يُظفر به في لندن وليس في دبلن .

أثناء فترات الجبهة الموحدة ، كان ثمة أيضاً نمو هائل للنزعة القومية في الأحزاب الشيوعية . وكان يُعتبر إن النزعة القومية ستلي الحاجات الايديولوجية للجماهير الفرنسية والروسية وغيرها على النحو الأسرع والأكثر توفيراً لأجل دفعها الى النضال ضد هتلر والفاشية الالمانية ، أو بالأحرى ضد المانيا الفاشية . وبتعارض مع الفترة السابقة ، وصل الشيوعيون ، بعد مرحلة انتقالية قصيرة ^(١) الى صيغ قومية خالصة . وفي حين كان الشيوعي ، عام ١٩٣٠ ، يطرد بسهولة اذا ما عبر عن تنازل ما للشعور القومي ، فإن الصحافة الشيوعية اخذت بعد عشر سنوات تستعمل كلمة « وطني » و « محب للوطن » بمثابة مرادف لـ « شيوعي » .

(١) كان رمز ذلك هو العلم الأحمر الطريف ، الذي يحمل في إحدى زواياه مستطيلاً صغيراً مثلث الألوان ، وقد جرى توزيع هذه الاعلام في التظاهرات الشيوعية الفرنسية عام ١٩٣٥ ، كما أعتقد . ولدي واحد من هذه الاعلام . لم تكن هناك جرأة للانتقال دفعة واحدة الى العلم المثلث الألوان ، وحسب .

وبشكل عام ، فإن امتيازاً قد أُعطي ، طوال عهد الكومنترن ، للقيادات الشيوعية الأوروبية (باستثناء ما حدث في بلدان نائية مثل اندونيسيا) وبخاصة للمصالح المباشرة للاتحاد السوفياتي .

ويجب ان يكون واضحاً لدينا ان الجماهير المحلية في البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة لم تكن تجتذبها في الغالب الاحزاب الشيوعية (مع استثناءات معروفة) . ان الحاح تلك الاحزاب الشيوعية على النضال الاجتماعي في حين ان الاكثر اهمية في الواقع الفوري كانت هي القضية القومية ، وعدم تكيف هذه الاحزاب مع الشروط المحلية ، بالإضافة الى دور البورجوازيين و « الاقطاعيين » في النضال من اجل الاستقلال ، كل هذا كان يدفع الجماهير بعيداً عن الشيوعيين ، نحو المنظمات ذات النزعة القومية ، او على الاقل نحو الزعماء القوميين . وكان هذا ، بدوره ، يدفع الكومنترن للاستناد الى احزاب شيوعية محلية صغيرة جداً يفترض انها تمثل بروليتاريا غير موجودة على كل حال ، هذه الاحزاب التي كانت افتقارها الى قواعد حقيقية يجعلها سهلة التحريك .

كان مستوى التفكير النظري ضعيفاً جداً في الحركة الشيوعية في ذلك العهد . ان مقال ستالين عام ١٩١٣ ، الذي أُخرج من غياهب النسيان ، قد أضيفت عليه هالة واسعة من الإجلال والتقدير . وقد اعتُبر ان النظرية البدائية جداً المعروضة فيه والتعريف الستاليني الدوغمائي للأمة قد عاجلوا كل شيء . وهذا التعريف يستخدم لتبرير كل شيء ، مثلاً ، وفي كثير من الاحيان ، لتبرير رفض مطلب قومي ، غير مناسب . وتطبق بصورة سكولاستيكية جداً على الحالة المذكورة معايير التعريف الستاليني . كان ستالين يقول : لأجل تكوين أمة ، يلزم ، من جملة ما يلزم ، تلاحم ، وحياة اقتصادية مشتركة ، وباختصار يلزم سوق قومية . والحال ، فان هذه المستعمرة او تلك ، لا تشكل وحدة اقتصادية ، ما دامت مرتبطة اقتصادياً بالمتروبول . ان تلك المستعمرة تشترك في السوق القومية للدول — المتروبول ، المستعمرة ، ولكن ليس لديها

سوق قومية خاصة بها . فهي اذن لا تشكل أمة ، ولا امل لها بأن تصبح كذلك . او انها ، على الاكثر « أمة في طور التكون » وينبغي انتظار زمن طويل قبل ان تُمنَح وضع الأمة الحقيقية . وبديهي انه لو جرى تطبيق امثال هذه المعايير على بولونيا ما قبل عام ١٩١٨ ، فان هذا البلد ، الذي كان مقسماً بين روسيا والمانيا ، والنمسا - المجر ، والذي لم تكن لديه ، طبعاً ، سوق قومية ، لم يكن له من امل او امكان ابدأ في ان يغدو مستقلاً . وتلك حلقة مفرغة ، بالضبط والتام .

ومع ذلك ، فقد طوّر المؤرخون في الاتحاد السوفياتي نظرية ال « نارودنوست » Narodnost (يمكن ترجمة الكلمة بـ « القومية » ، وهي احد مشتقات كلمة « نارود » (شعب) والمنسوخة عن كلمة « فولكيرسشافت » Volkerschaft التي يستعملها انجلز احياناً) . هذا المفهوم ، الذي سأعود للحديث عنه فيما بعد ، كان مخصصاً لسد الثغرة بين المرحلة القبلية والعشائرية ، ومرحلة الامة بالمعنى الستاليني الخاصة بعصر الرأسمالية .

وفي الاتحاد السوفياتي ، كذلك ، أطلق ستالين النظرية القائمة في التمييز بين الشكل (القومي) والمحتوى (الاشتراكي) للثقافة . كأن الامر يتعلق فقط ، من حيث الاساس ، بحيلة للتوفيق بين عملية التوحيد l'uniformisation الثقافية والسياسية والاجتماعية داخل الاتحاد السوفياتي ، مع حالات الارضاء ، الفولكلورية بعض الشيء ، التي كانت تمنح للقوميات غير الروسية . إلا ان الموضوعية كانت رغم ذلك تتيح المجال لبعض التطويرات الهامة .

لقد برز في فرنسا جهد فكري معين ، في الاطار الستاليني ، لأجل تبرير العناصر القومية في سياسة الحزب الشيوعي ، في عهد الجبهة الشعبية وعهد المقاومة ، مع محاولة ذلك الجهد الفكري إدراج تلك العناصر القومية في نظرية ماركسية . وقبل عام ١٩٣٩ ، استطاع هنري لوفيفر ان يبذل جهداً في هذا الاتجاه ، جهداً زحمه وضايقه المذهب الستاليني ، باستخدامه الى أقصى

حد العناصر بمعنى ايجابي^(١) . وفيما بعد ، كانت ثمة « عمليات تركيب » قابلة للنقاش ، حاول القيام بها جورج كونيو وروجيه غارودي وآخرون . ان نظرية « الطبقة القومية » ، المستمدة من ماركس ، قد خدمت كثيراً في هذا المجال ، ولكن بنغمة قومية النزعة ، أكثر بكثير ، مع نبزات موراسية (نسبة الى الكاتب الفرنسي شارل موراس) عند أراغون مثلاً . وليس من المدهش ان نرى تحولاً من هذا النوع يؤدي الى امتداح مورييس باريس .

٤ - التطور في الفترة اللاحقة للستالينية

ان الايديولوجية الأساسية بقيت هي ذاتها في عهد ما بعد ستالين . فالاضطهاد القومي يجري شجبه دائماً . ولكن لا يصل الامر الى حد الاشادة المفرطة بالخصوصية القومية لذاتها . ويجري الاعلان دائماً عن ضرورة إخضاع الاهداف القومية لمصلحة تقدم البشرية العام . وينطوي هذا ضمناً على ان الاستيعاب المقبل لبعض القوميات القائمة قد يكون امراً مرغوباً فيه . ويجري دائماً التفكير في المستقبل ، في خط كاوتسكي وستالين ، بصفته يجب ان يقوم في نزعة الى التوحيد l'uniformisation وإلى تكوين ثقافة عالمية .

إلا ان الإرادة الاقوامية للمحافظة على الخصوصية القومية (في شروط وحدود معينة) وقوة الحركات المؤسسة على الشعور القومي تفرض نفسها .

ونشهد في الاتحاد السوفياتي نفسه عمليات انبثاق تزداد ظهوراً أكثر فأكثر لـ « النزعة القومية البورجوازية » ، وذلك بمقدار ما تصبح سيطرة الكرمليين اقل تشدداً . وفي الديمقراطيات الشعبية ، تزداد إرادة الاستقلال وضوحاً . ويؤدي ذلك الى منازعات . وفي بعض الحالات (بولونيا ، المجر) يتخطى المطلب القومي الإطار الاشتراكي او انه على أهبة تحطيمه . وفي حالات اخرى

(١) هـ. لوفيفر : « النزعة القومية ضد الامم » ، باريس ، المنشورات الاجتماعية - ١٩٣٧ .

يبقى المطلب القومي في الإطار الاشتراكي ويكون النزاع صامتاً سلمياً (رومانيا) او عنيفاً (يوغوسلافيا ، ثم الصين والبنانيا) .

وفي البلدان المستعمرة تعترف الحركة الشيوعية اخيراً بصحة المشروع القومي وشرعيته ، أياً كانت الطبقات التي تقودها وتدعمها . وقد استُخلص الدرس اخيراً من إخفاقات الاحزاب الشيوعية المحلية ، هذه الاخفاقات التي دفعت العناصر شبه الماركسية الى إنشاء اشتراكيات أقوامية nationalitaires مستقلة عن الحركة الشيوعية ، تحقق بصورة عامة نجاحات أكثر بكثير . وتمنح الثورة القومية ، بصورة واضحة جداً ، اولوية بالنسبة للثورة الاجتماعية ، في افق النضال المعادي للامبريالية . وتتشكل جهات مع البورجوازية الوطنية وكثيراً ما تتحول عملياً الى دعامة للبورجوازية الوطنية ، بلا قيد ولا شرط ، كل ذلك منظراً بالنظرية الهيجنية ، نظرية الديمقراطية القومية .

ان الجهد النظري يتبع بصورة سيئة جداً هذه التقلبات الاستراتيجية والتكتيكية . ولعل اليوغوسلافيين هم وحدهم الذين يقومون بمجهود جدي في هذا المضمار .

- ٢ -

التكوينات ذات النمط الاقوامي وعلم الاجتماع الماركسي

من الممكن تطوير سوسيولوجيا ماركسية في مسألة الأمة على أسس ماركسية . ولكن ثمة ، من أجل ذلك ، شرطين أوليين مسبقين .

أولاً ، لا ينبغي للباحث ان يسمح لنفسه بأن ينحصر في طريقة معالجة

سكولاستيكية ، مثل التبني المسبق والنهائي لـ « تعريف » او « تحديد » للامة مثل التعريف الذي قدمه ستالين .

ثانياً ، ونظراً لواقع ان ماركس لم يضع نظرية جلية للامة ، وان مثل هذه النظرية لا يمكن ان ترتبط مباشرة بالموضوعات التي أكد عليها اكثر من سواها، فإن من الضروري العودة مجدداً الى المفترضات الضمنية لطريقة معالجة ماركس للقضية ، طبعاً إذا اعتبرت هذه المفترضات ذات أساس .

تطرح المسألة عادة على ان اساس السوسيولوجيا الماركسية هو صراع الطبقات. وبديهي ان ذلك هو ما يبدو مستخلصاً من عبارة ماركس الوجدانية الواردة في « البيان الشيوعي » والتي كثيراً ما جرى الاستشهاد بها ، وهي : « إن تاريخ جميع المجتمعات حتى ايامنا هو تاريخ صراع الطبقات » . ومع ذلك ، فقد حاول انجاز فعلاً ، الحد من مدلول هذه العبارة . إلا ان دراسة مؤلفات ماركس ، على الأخص ، تظهر بصورة بديهية بأن معالجته التوضيحية لا تعتمد إلا على الطبقات وليس دائماً على الصراع . وأهم من ذلك كله بكثير من جهة أخرى ، هو ان دراسة الوقائع تبين لنا ان ماركس كان على حق في معالجته التوضيحية وان الموجز الوجداني في بيان ايديولوجي مخصص لتعبئة الجماهير ، كان تعميماً مبالغاً فيه وعلى شيء من الافراط .

ان موضوعات ماركس السوسيولوجية الاساسية ، تلك التي تشكل خاصية سوسيولوجيا ماركس والسوسيولوجيا الماركسية ، والتي تتيح ان نرى في هذه السوسيولوجيا تياراً علمياً ذا اهمية اساسية ، والتي ينبغي الدفاع عن وجهة نظرها ما دامت مفاهيم مضادة أساسها ايديولوجي تستمر في مناهضتها ، اقول ان تلك الموضوعات — موضوعات ماركس السوسيولوجية الاساسية قد صنفت عادة تحت اسم (ما بعد ماركسي) : النظرية المادية التاريخية . من الممكن الاحتفاظ بهذه التسمية بالرغم من نقاط الالتباس فيها ، بوصفها تعيّن على هذا النحو ، الاتجاه العام لهذه الموضوعات ، مع نبذ التقليد المحال العبثي الذي نجد امتداداً له لأسباب ايديولوجية في مدرسة ألتوسير ، حين ترى هذه

المدرسة في ذلك التقليد عنوان علم خاص^(١) . ان للمادية التاريخية مبرر وجود واحداً وهي ان تناهض النزعة المثالية التاريخية . وهذه النزعة الايديولوجية الاخيرة ، التقليدية ، وذات المستقيمت المنثنية الى الوراء ، تقوم على النظر الى الصراعات السياسية والاجتماعية على انها صراعات الناس الأختيار ضد الأشرار ، والعادلين ضد المضطهدين ، وأولئك الذين هم على حق ضد المخطئين او ايضاً ، في صيغة اكثر ليبرالية ، صراعات أولئك المدافعين عن عقيدة ضد المدافعين عن عقيدة اخرى ، وكل ذلك في مصلحة المجتمع العامة . وهكذا فان أساس الصراعات يوجد في ضمير الناس المتصارعين . وتنبغي الإشارة ، بصورة عابرة ، الى ان هذه النزعة المثالية نجدها مجدداً في الابحاث وطريقة المعالجة لدى كثير من ماركسيي البلدان الاشتراكية والاحزاب الشيوعية .

وعوضاً عن ذلك ، يرى ماركس الدوافع الأساسية للصراعات في «مصالح» (بالمعنى الأوسع للكلمة) البشر والجماعات الاجتماعية (التي يهتم ، من بينها ، في الدرجة الاولى بالطبقات)^(٢) . وهو يفكر ويقوم بتحليلاته ، ضمناً ، كما لو ان الجماعات الاجتماعية ، والافراد على حد سواء ، مزودون بنزعة ، كامنة على الأقل ، لإظهار مطامح ورغبات من نط خاص ، هذه الرغبات والمطامح القوية جداً تكمن في الدفاع عن الافضليات والفوائد المادية والمكانة التي تتمتع بها تلك الجماعات ، وربما في رفعها الى حدها الأقصى الممكن (بواسطة المنافسة وربما

(١) ان العلم ، اي علم ما ، يحمل عادة الاسم التعلق باليدان النوعي الخاص الذي يعالجه ، لا التعلق بختيار فكري ما ، او مجموعة من الموضوعات (حتى ولو اعترف بصحتها بصورة عامة) المدافع عنها في هذا الميدان . ولا يمكن ان يتحدث عالم عن النظرية الشمسية - المركزية (اعتبار الشمس مركز الكون) بل عن علم الفلك او نظرية النظام الشمسي .

(٢) أقوم حالياً بدراسة هذه الخاصيات في تقرير بعنوان : « السوسيولوجيا الماركسية والايديولوجية الماركسية » ، والذي أقوم بإعداده لندوة دراسية يقيمها الأونيسكو حول « ماركس والفكر المعاصر » (أيار ١٩٦٨) ، وقد قدمت اللوحة الاولى لأفكاري في هذا الصدد ، بصورة مكثفة جداً ، في كتابي « الاسلام والرأسمالية » ، ص ١٠٠ وما يليها .

الصراع) . وبذلك ، فالاستقرار الاجتماعي لا يمكن ان يكون سوى نسبي ومؤقت .

لكن الصراع ليس هو كل شيء . انه يجري على خلفية من المهمات الاجتماعية المنجزة ، والعمل الاجتماعي ، حيث يبرز من كل ذلك تقدم بطيء ومتواصل للنتاج ، بوتيرة متسارعة احياناً . وتكون نتيجة ذلك تكديس مستمر للخيرات والمنتجات الموضوعة بتصرف البشرية .

هذا التراكم ، هذا الانتاج ، هذا العمل ، تتحقق في إطار مجتمعات شمولية وكنية . وحتى قبل المهمات المتعلقة برفع أوضاع المجتمع الى أقصى ما يمكن (والجماعات المترابطة هرمياً داخل المجتمع) ، وهي مهمات اقترحت تسميتها مهمات جوهرية ثانوية ، هناك المهمات الجوهرية الاولى . وشأن الفرد ، فإن المجتمع يجهد قبل كل شيء للمحافظة على بقاء وإدامة وجوده (اكثر من جهده لإدامة ماهيته) ، إذن ، فهو يجهد لإنتاج وسائل للوجود وللمعيشة ، وتجديد انتاج هذه الوسائل بمقدار ما يبليها الاستهلاك ، ولأن يتناسل ويتكاثر هو ايضاً (يعيد انتاج ذاته) .

هذه المهمات تتحقق داخل كل مجتمع شمولي كلي ، تبعاً لتنظيم لعلاقات الانتاج التي تبني وحدة هذا الانتاج . ويعود الفضل الى ستالين ، في مقاله عن علم اللغة (وربما كان أفضل كتاباته) ، في انه أعاد التذكير بهذه الواقعة الاولى ، وقد استلهم ذلك من حسه السليم القوي الصلب (والحنن) . ان الأهمية الاولى لهذه المهمات تشكل أساساً لعلاقات التحالف والتعاون ، او العداء والصراع بين المجتمعات الشمولية الكلية ، المدفوعة كلها معاً ، بالضرورة الأساسية للنتاج ، وانتاج ذاتها ، وكذلك بمطامح ورغبات الدفاع عن فوائد الامور المادية ومكانتها ، ورفعها الى حدها الأقصى الممكن .

إذن فإن الصراعات بين المجتمعات الشمولية الكلية ليست أقل ، من حيث كونها سمة من سمات التاريخ البشري ، من الصراعات الاجتماعية . لقد كان ماركس يعرف جيداً جداً (وهو يظهر ذلك في طريقة معالجته في كتاباته

السياسية) ان الصراعات مثلاً بين فرنسا وبريطانيا ، أو بين بريطانيا وروسيا يمكن تقييمها من زاوية تقدم الطبقات ، ومواقعها ، ومنازعاتها ، ولكن لا يمكن حصر تفسير تلك الصراعات في وجهة النظر تلك . ولا يكون ثمة انعدام أمانة للقواعد الضمنية لسوسيولوجيا ماركس ، وللسوسيولوجيا الماركسية ، عندما يُقرّ بأهمية المجتمعات الشمولية الكلية ، وعلاقاتها السلمية أو العدائية .

الأمة هي شكل للمجتمع الشمولي الكلي، وتكوين مجتمعي يظهر في شروط اجتماعية - تاريخية معينة .

فبعد حقبة زمنية طويلة جداً، حيث لم تكن شروط الانتاج وتجدد انتاج الجماعة ذاتها قد اتاحت تكون وحدات شمولية كلية اكثر اتساعاً من العشيرة والقبيلة، تكونت في شروط معينة جماعات قبلية تعترف لنفسها بمنشأ مشترك وتلك ضرباً من مؤسسات مشتركة (كثيراً ما تكون نوعاً من منتدى المدن amphyctionie) ولغة مشتركة، (رغم وجود لهجات مختلفة ومتعددة، ضمن هذه اللغة) وثقافة مشتركة الى هذا الحد او ذاك ، يظهر داخلها باديء بدء دين (اي ايديولوجية) مشترك . ونقصد بذلك ما يسميه الروس نارودنوست ، والذي كثيراً ما يسمى « قومية » والذي يمكن تسميته بـ « قوم » ethnie .

القوم جماعة متجانسة متلاحمة الى هذا الحد او ذاك ومنقسمة ، تبعاً للأحوال، الى هذا الحد او ذاك . ويمكن ان تكون الأراضي التي يقطنها القوم متصلة ومتواصلة الى هذا الحد او ذاك ، وأحياناً غير موحدة مطلقاً ، وفي بعض الحالات القصوى ، لا يكون ثمة حتى أراضٍ خاصة للقوم (مثلاً ، الفجر ، واليهود في عهد معين ، والهاووسا) . ان صلات اقتصادية منتظمة تحقق الشيء الكثير لأجل ضمان تلاحم هذه الوحدات .

ان تكون القوم والقومية او « ما قبل الامة pré - nation »، هو تكون اشكال تضامن شمولية كلية أعلى وأوثق من مستوى القبائل . وفي عملية التطور

هذه ، تقوم عوامل الترابط الاقتصادي بدور مهمين . وعملية التطور هذه تتكامل بتكوّن سوق قومية حقيقية تميّز الامة ، أي أكمل شكل معروف للمجتمع الشمولي الكلي ما فوق القبلي .

هذه الامة المكتملة التكون تطابق تقريباً تعريف ستالين . ولكن يجب ان نرى جيداً انها ليست سوى النتيجة الأخيرة والتتويج للتكوينات ما قبل القومية ، والتي تشترك معها في سمات كثيرة ، ويكون هذا صحيحاً على الأخص ، حين تكون اسباب سياسية هي التي حالت دون هذا الاكتمال . ان عوامل وحدة أقوامية او قومية يمكن ان تكون مختلفة . فنجد وحدة اللغة ووحدة الدين والثقافة والمؤسسات الخ .

ان الدولة المشتركة تلعب دوراً هاماً جداً في تكوّن قومية ما ، ولا سيما حين تكون هذه القومية محدودة بأشخاص ينتسبون الى قوم واحد (الدولتان المصرية والعبرية في العهد القديم) ، او حين تمنح تلك الدولة دوراً مسيطراً لقوم معين (الامبراطورية الرومانية ، الامبراطورية العثمانية) . ويمكن ان تكون عوامل وحدة الدولة قوية جداً في أوضاع جغرافية معينة (مصر القديمة) .

ان دولة قوية، حتى ولو كانت ذات أقوام متعددة، كما كانت امبراطوريات العصور القديمة، يمكن ان تنمي علاقات وثيقة جداً بين مختلف أجزائها، بحيث تشبه كثيراً الامة في عصرنا هذا . ذلك كان ، مثلاً، وضع الامبراطورية الرومانية، التي كان يعتبرها مارسيل موس بمثابة الامة الوحيدة التي تكونت قبل العصر الحديث^(١). وقد تكوّن في الامبراطورية الرومانية نوع من السوق «القومية»، وكانت ثمة نزعة قوية جداً لتمثل ولاستيعاب القوميات المحلية (الغاليون ، الإيبيريون ، الخ) ، لكن ذلك في حدود معينة على نحو ما يتبين من الحاجز

(١) م. موس : « الامة » (العام السوسولوجي - السلسلة الثالثة ، ١٩٥٣ - ١٩٥٤ ، باريس ، المنشورات الجامعية الفرنسية ، ١٩٥٦ ، ص ٥ - ٦٨) .

الذي كان قائماً داخل تلك الامبراطورية بين مناطق اللغة اليونانية ومناطق اللغة اللاتينية .

في قوم غير مكتمل ، يمكن ان تظهر نزعات قوية نابذة (مبعدة عن المركز — centrifuges) . ومن هنا ، فانه عندما يواجه عدواً ، فان ظهور حالات عديدة من « التآزر » الظاهري لا يمكن بالطبع اعتبارها حالات « تآزر » داخل امة مكتملة . لقد كان لدى الغاليين ، بالنسبة لنقاط كثيرة ، ردود فعل اقوامية مشتركة ، لكن بعض قبائلهم وقفت الى جانب يوليوس قيصر ضد قائد الغاليين فيرسانجيتوريكس . وذلك ما حدث ايضاً عند الأرتيك حيث لم يستطع كورتيز الانتصار إلا بمساعدة اشخاص من تلاكسالا ، وكذلك في الجزائر أيام عبد القادر .

يجب ان نعالج هنا مسألة الخصوصية القومية التي يجري التأكيد عليها في هذا العصر بصدد بلدان العالم الثالث . يقيناً ان هذه الخصوصية ليست اسطورة . إلا ان شيئاً من هذا القبيل نراه موجوداً وقائماً . ولكن لا يمكن ان نعتبر اننا بصدد معطى اول . بل نحن إزاء ظاهرة من نوع « الطابع القومي » الذي كان يقول به اوتو باور ، بوصفه محصلة ومكثفاً لظواهر متعددة . ويقدم كتاب اوتو باور إيضاحات هامة حول كيفية تكوّن هذا « الطابع القومي » . كما اننا بصدد معطى يعاني تغيراً دائماً . ولا يمكن تحليله بصفته « شيء أساسي » ثابت غير قابل للتغير ، وليس مؤكداً مطلقاً ان « الأساسي » في الثقافة القومية يكون دائماً نفس الظاهرة او نفس المجموعة من الظواهر . ان الطابع القومية تتغير . ان انكثرا ، قبل اعتناقها النزعة البيوريتانية الفيكتورية ، (وهي نزعة طهرية متزمتة) ، كانت تعتبر امة تتألف من اشخاص كثيري المرح والبشاشة والبهجة . والجميع كانوا يعتبرون الالمان ، في القرن الثامن عشر ، بمثابة اشخاص مسلمين أساساً وجوهرياً . ومع ذلك فثمة عوامل دائمة نسبياً يمكن إدراكها خاضعة الى هذا الحد او ذاك لثوابت جغرافية او ايديولوجية ، مثلاً . ينبغي تحليل كل حالة من تلك الحالات . ولا يمكن

الحديث عن ذلك إلا بعد الدراسة، وإثر تحليل متأنٍ ، مفعم بالعناية، وليس بصورة قبلية .

ومن جهة أخرى ، فإن القوم او الامة ، هما ظاهرتان محتملتان . وكان يمكن ان تكونا جد مختلفتين عما صارتا اليه فعلاً . ان الاحتمالات التاريخية هي التي قررت ان تُلحق مقاطعة بريتانيا بفرنسا ، ولم يحدث نفس الشيء بالنسبة لبلجيكا . وما من استعداد سابق مسبق ، مرغِم بصورة مطلقة ، ولا أية حتمية قد أدت الى نشوء الظاهرتين . لا ينبغي إضفاء صفة القداسة على التاريخ ، والقول ان هذه الامة او تلك كان محتماً ان توجد ، لأنها موجودة حالياً . ومن المستحسن التأكيد على هذه النقطة بوجه الاتجاهات السلفية لدى الايديولوجيات القومية ، التي تنزع الى إضفاء القداسة على التاريخ . ولا يمكن للمرء إلا ان يقهقه ضاحكاً حين يسمع الحديث الآن عن الطابع المقدس للوحدة القومية بالنسبة لدول عينت حدودها من قبل ديبلوماسيي بلدان قصية ، ونتيجة لعمليات مساومة شديدة بين دول اجنبية ، كما حدث كثيراً بالنسبة للبلدان الافريقية ، مثلاً ، التي ترث حدوداً عينت في القرن التاسع عشر ، في برلين او لندن او باريس .

يجب الاحتراس من هذه الاساطير السكولاستيكية والاسترشاد دائماً بالحقائق والوقائع الملموسة التي يمكن تمييزها بين السطور . وكثيراً ما نجد أنفسنا إزاء عوامل للوحدة ، وعوامل للتمايز . ذلك ما نجده بالنسبة لوضع العرب . ان المناقشة لأجل معرفة ما اذا كان العرب يشكلون ، في الاساس ومن حيث الجوهر ، أمة ، هي مناقشة سكولاستيكية خالصة . انه توجد بين العرب عوامل وحدة ، وعوامل تمايز ، تلك هي الحقيقة الواقعية الملموسة . هناك تونسيون ، وسوريون ، ومصريون ... الخ ، نجد بينهم احياناً تمايزاً توطد ، بالضبط ، في نصف القرن الاخير . فهل ستتغلب عملية التوحيد ام حركة التمايز ؟ ان عوامل ملموسة هي التي سببت في هذه القضية . في ضوء هذه الاعتبارات يحسن الحكم على الايديولوجيات القومية . ولسنا

بصدد - ينبغي ان نؤكد على ذلك - المطالبة بالحقوق الشخصية وبالمساواة بين أناس ينتسبون الى مختلف الاقوام داخل دولة واحدة . بل نحن بصدد ايديولوجيات تطالب بالاعتراف بحقوق أقوامية (الاستقلال الذاتي) او بحقوق قومية (الاستقلال) . وتلك الايديولوجيات تطالب للناس المنتسبين الى نفس القومية او نفس الامة بمؤسسات خاصة بها ، وبتطور ثقافتها الخاصة . كما ان تلك الايديولوجيات تمجد النزعة الوطنية لدى القوم او الامة المعنية ، ومقاومة التمثل والحفاظ على الهوية القومية .

كما اننا لسنا بصدد حتمية لامرد لها . هناك نزعات تعمل لأجل اختيار ما ، ونزعات اخرى تعمل ضد هذا الاختيار ، وهي تختلف تبعاً للظروف . لقد كان كثير من الجزائريين قبل عام ١٩٤٥ يطالبون بالاندماج مع فرنسا (ما زلنا نذكر البيان المقعم عاطفة الذي اصدره عباس فرحات) . وقد حاول الغاليون وكثيرون غيرهم ان يُستوعبوا ويصيروا لاتينيين . وقد سعى الأكراد ، واليهود ، والاييرلنديون ، في شطر كبير منهم ، وزمناً طويلاً ، نحو الانصهار في من كانوا يعايشون من سكان . وقد حدث رد الفعل القومي ، بالنسبة لبعضهم ، في تاريخ معين ، وفي ظروف معينة . في الولايات المتحدة ، نجد ان الجماعات الاقوامية المتجانسة (البولونيين ، الطليان ، اليابانيين ، والاييرلنديين ... الخ) تسعى للانصهار في البوتقة الاميركية . وقد سعى الزواج الاميركيون الى ذلك ايضاً زمناً طويلاً ، وما زال كثيرون منهم يسعون اليه . أما رد فعلهم القومي (إنشاء أمة مستقلة) الذي نشأ مؤخراً ، فهو نتيجة للتمييز العنصري الذي استمر يصيب بصورة خاصة عنصراً وُضع تاريخياً في شروط غير ملائمة ، وهو عنصر واضح يسهل تمييزه (بالرغم من كل رغبة الانصهار التي كان يستطيع ان يظهرها) بسبب لون البشرة .

إن الاختيار القومي او المصير القومي ليس قدراً مطلقاً فرضه الله أو الاخلاق او التاريخ . بل هو النتيجة ، في ظروف معينة ، لمطامح واهتمامات وُلدت من الوضع الملموس بالاضافة الى أشياء أخرى .

إن للمشاعر الأقوامية او القومية قوة كبيرة جداً ، وقد ارتكب الماركسيون خطأ كبيراً حين استصغروا هذه المشاعر . لكن هذه المشاعر ليست قائمة وحدها ، وهي ليست دائماً بالمرتبة الحاسمة القصوى من الأهمية (١) .

ما مصدر هذه القوة ؟ يمكن أن نلاحظ بسهولة ان الشعور بالانتماء القومي identification يكون في معظم الأحوال معطى أولياً ، سهل الإدراك ، لم يخضع للنقد ، لا حاجة له الى صياغة ، ولا الى وعي ، كما هو عليه الأمر في كثير من الحالات بالنسبة للوعي الطبقي . إن الميل الى استغلال قوم مسيطر ما لوضعه هو ظاهرة ثابتة ودائمة ، لا سيما وان هذا التفوق وحده هو الذي يستطيع ان يفخر به الأعضاء معدومي الخطوة في هذا القوم . ولمصلحة وفائدة القوم يستطيع ان يؤثر على النحو الأسهل في كثير من الحالات الطموح النزاع الى أقصى ما يمكن من مزايا وأفضليات يتمتع بها القوم المعني . ومن هنا منشأ تصرفات الازدراء والاحتقار ورفض الاعتراف بالمساواة والاضطهاد والاستثمار الشائعة كثيراً في العلاقات بين الأقوام ، والتي كان لينين يتوقع استمرارها بعد قيام الثورة الاشتراكية (٢) . إن هذه التصرفات تعزز رد فعل قومياً لدى الاقوام التي تمارس ضدها تلك التصرفات . وبصورة عامة ، فان تغيير انتماء المرء من قوم الى آخر اصعب بكثير جداً من تحسين وضعه الاقتصادي - الاجتماعي . ففي جزائر عهد الاستعمار ، كان الجزائري الذي يريد أن يتفرنس يبقى جزائرياً ، في حين ان العامل الجزائري ، حين

(١) حاولت ان أبين ذلك ، بالنسبة للحالات التي أعرفها افضل من معرفتي سواها ، وذلك في مقالي « ديناميكية داخلية ام ديناميكية كلية : مثال البلدان الاسلامية » (كراريس علم الاجتماع العالمية) العدد ٤٢ - ١٩٦٧ - ص ٢٧ - ٤٧ .

(٢) راجع ما كتبه : « حصيلة لمناقشة حول حق الامم... » ، في الكراس المذكور في حاشية سابقة ص ١٣٨ ، ١٧١ وما يليها ، المؤلفات الكاملة ، الجزء الثاني والعشرين ، ص ٣٤٩ - ٣٩٠ .

تواتيه الظروف ، كان باستطاعته ان يصبح رب عمل ، بكل معنى الكلمة .
ان الملاحظة السوسولوجية ينبغي لها ايضاً ان تجعلنا ننبد المفهوم
الايدولوجي حول رسالة أو مهمة أمة ما ، من رسالة سلمية ، أو نزاعة الى
الحرب ، أو ثقافية ، أو تبشيرية الخ . حتى إذا تعين ان تؤخذ في
الحسبان المطامح المتميزة لكل طبقة (وهذا التمايز، في حد ذاته، بليغ الدلالة)،
فإن كل أمة تنزع الى رفع مزايها وأفضليتها الى الحد الأقصى الممكن .
ويمكن ان تعتمد هذه الأمة سياسة سلمية حين يقرر قادتها ذلك ، بعد ان
يزينوا أفضليات وأضرار التوسع والسعي الى السيطرة ، مقدرين حظوظها
في النجاح . تلك هي مثلاً، منذ زمن طويل، حال سويسرا والسويد . إلا ان
النزوع الى بلوغ أقصى الافضليات والمزايا الممكنة يظل ماثلاً، وإن بصورة كامنة،
متأهباً للقفز والغلبة والتحول الى أعمال إذا توفرت ظروف ملائمة . وما من
إخلاص لرسالة اسطورية قائمة سلفاً إلا وسيزن بقوة ليحول دون هذه العملية،
وكذلك الأمر بالنسبة لذكرى الاضطهاد الذي اوقعه بها آخرون، او لذكرى
آلام عانتها بسبب دونية سابقة .

من الصعب ، حسب المنظورات التي حددت اعلاه ، القبول بثبات قاعدة
عمامة بمفهوم إرادي volontariste للأمة . وفي اكثر الحالات ، لا يجري
تكوين أمة ، لأن ثمة ارادة في العيش المشترك، بل يجري تكوّن قوم أو أمة
معينة لأنه سبق للناس الذين كونوها ان عاشوا معاً ، في وضع موضوعي
معين ، أنشأه التاريخ ، ولأن عوامل موضوعية موجودة سابقاً تربط عدداً
معيناً من الجماعات والأشخاص المعينين بعلائم موضوعية معينة . لأجل هذا
يريد اغلب اعضاء هذا القوم او هذه الأمة مواصلة العيش معاً . لكن كثيرين
منهم يهاجرون احياناً ويغيرون هويتهم القومية ، منصرحين في اقوام اخرى .
ومع ذلك ، وفي حالات قصوى ، تحدث مجدداً عملية التطور التي أرانا إياها
علم خصائص الشعوب (الاتنوغرافيا) والتاريخ ، ولو لحماً ، لدى نشوء بعض
القبائل غير المتجانسة ، وبعض الاقوام الصغيرة جداً ، والمتعددة القبائل

(مثلاً ، السينوسيسمات synoecismes (*) في الحواضر الاغريقية) ، وأخيراً بعض الاقوام . إن القوم الاسرائيلي ، ثم دولة اسرائيل قد تكونا من يهود مختلفي الاصول ، ارادوا ان يعيشوا معاً . وكذلك باكستان بسكانها المسلمين الهنود الذين ارادوا ان تكون لهم دولتهم . وكذلك عدد معين من المستعمرات الاوروبية فيما وراء البحار . ويجب ان لا نغفل ايضاً ان هذه الحالات لا يمكن ان تفسر بتأثير الايديولوجية ، دونما روابط مادية . ان استبعاد اليهود من المجتمع الاوروبي او التمييز الذي مورس ضدهم ، والعوامل المعقدة التي اصابته الحركة القومية في الهند تحت الاحتلال البريطاني مضافة الى واقع ان المسلمين كانوا يشكلون فيها — وهذا استثناء بالنسبة لقاعدة معيار الجماعة الدينية — جماعة تشبه القوم (ويجب ان لا ننسى الكتلة الكبيرة من المسلمين الهنود الذين اكتفوا بالبقاء في اماكن سكنهم في الاراضي الممنوحة للباكستان) ، والعوامل الاقتصادية والسياسية التي كانت تجبر الايرلنديين على حياة البؤس في ايرلندا وتدفعهم الى الهجرة ، كل هذا يجب ان يؤخذ في الحسبان . ولكن يبقى ان عنصر الاختيار الفردي الحر قد لعب دوراً هاماً في هذه الحالات ، وفي الحالات الماثلة . ويتعلق الأمر بمسألة الاصول والمناشيء التي تستخدم ، في عملية تحديد الجماعات الاجتماعية ذات النمط المعين ، (كالأقوام في المثل المذكور قبلاً وحركات ايديولوجية ايضاً) ، — تستخدم عوامل اخرى ، غير العوامل الموجودة المؤثرة ، في متابعة مصير محدد على هذا النحو .

(*) سينوسيسمات: في العهد الاغريقي القديم اجتماع الحواضر الاغريقية حول حاضرة — أم واحدة ، وحول مركز عدلي قضائي واحد . (ملاحظة من العرب)

القيم القومية والايديولوجية الماركسية

هذه اللوحة الاولى قد درست ، بادىء بدء ، تاريخاً للأفكار في إطار ايديولوجية ما وحركة ايديولوجية ما ، ثم عاجلت دراسة سوسيولوجية لنمط معين من الجماعات . وأود إنهاء هذا البحث بولوج ميدان القيم . وأريد التذكير هنا بالتمييز الكلاسيكي بين احكام الوجود والأحكام القيميّة . ان غولدمان يؤكد بأن الماركسية تنكر هذا التمييز . هذا التأكيد ، ويمكن القول هذا الزعم ، هو نفسه ملاحظة Constataion ، وحكم وجود ، لا حكم قيمة . صحيح تماماً ان ماركس كان ينزع الى ان ينكر ، بكيفية معينة ، هذا التمييز ، والى ان يكتب ويعمل مثلاً كما لو ان اعلان فكرة ان البروليتاريا هي طبقة المستقبل كان من شأنه ان يدفع تلقائياً الى تمجيد قضية البروليتاريا ودعمها . وكذلك ، فان المناضلين الماركسيين بعده قد أظهروا نفاد صبر إزاء كل تأييد يقول بأن موقفهم يتضمن اختياراً اخلاقياً ، مع ان هذا شيء مؤكد لا ريب فيه وبديهي . إلا أنه ، الى جانب ذلك ، امكننا أن نلاحظ نزعة دائبة لإدخال الموضوعات الاخلاقية ، خفية ، في الايديولوجية الماركسية ، الى حد نشر كتب دراسية في علم الاخلاق الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ، بل وحتى في فرنسا . وكانت الايديولوجية الشائعة في القاعدة الماركسية تتدبر امرها بالافتناع ما قبل الانتقادي بالتطابق الرائع بين التطلب الخلفي وفعالية العوامل التاريخية . وكثيراً ما كان الرفاق ينشدون في صفوف الحزب الشيوعي ، ايام صباي ، أنشودة « الفرصوية » المؤثرة :

الى الامام أيها الشغيل ، البروليتاري .

قضيتك عادلة وأنفاسك جبارة !

لم يكن ماركس مفكراً جباراً وحسب، ومكتشفاً لقوانين سوسيولوجية واقتصادية، بل لقد كان مؤسس ايدولوجية وحركة ايدولوجية. إن لوحة العالم الاجتماعي التي كان ماركس يرسمها كانت يضيف اليها عناصر مختلفة من معاملات التقييم. فالصراع الاجتماعي لم يكن موجوداً وحسب، بل كان من واجب المضطهدين الاشتراك فيه. وعلى الرجال الطيبين ان يساندوهم. والنضال لم يكن عليه ان يعود على البروليتاريا بالنصر، بل ان هذا النصر سوف يدخل البشرية جمعاء الى عالم الحرية.

فإذا كانت أهداف النضال مرغوباً فيها الى هذا الحد، وإذا كان واجب الاشتراك في هذا النضال ملحقاً على هذا النحو، وإذا كان أولئك الذين يفرون من النضال او يخونونه يصبحون جد محتقرين، فذلك لأن النضال كان ينبغي ان ينصر قيماً عزيزة جداً: الحرية والمساواة والاخوة بين جميع البشر.

الايدولوجيات تختار قيماً عليا. وهي تختار ايضاً اهدافاً تضع نصب عينيها خدمتها، فيها او من اجلها يجب ان تتحقق هذه القيم. وإذا ما استبعد الفرد بالذات، الأنا، فإنه يوجد ولا يمكن ان يوجد سوى ثلاثة من تلك الأهداف التي تدعو الايدولوجيات لتضحية الذات من اجلها: الجماعة، المعرفة بصور مختلفة، والتي كثيراً ما ستكون القوم او الأمة، والانسان دون تمييز بالنسبة للجماعة، والله. وسوف تُرتجى الحرية او القدرة، او كليهما معاً، بواسطة الجماعة، وستكرس النفس لخدمة الله، وسيجري النضال من اجل قضية الانسان.

وهناك اختيارات اخرى على اصعدة اخرى هي ضرورية لأجل تكوين ايدولوجية على شيء من الصلابنة والقوة. ولنشر بصورة عابرة، الى ان من المرغوب فيه الانتساب الى نفس القيم، وخدمة نفس القضايا، دون تبني جميع موضوعات الايدولوجية التي تكاثرت حولها، كذلك دون ان يريد المرء الاشتراك في منظمات او حركات خاصة استطاعت ان تهب نفسها لهدف خدمة تلك القضايا.

الايديولوجية الماركسية مركزة على الانسان . وهي متفائلة وتقدمية : إنها تعلم بأنه يمكن تحسين وضع الانسان ، بل وطبيعته ذاتها . إنها نزع انسانية ملحدة . وهي ترى ان باستطاعة الانسان ان يصوغ لنفسه حياة افضل ، ويستطيع ان يصوغ للبشرية جمعا حياة افضل ، وذلك بفضل عمله ، وجهوده الخاصة التي لن تساعد على قوة غيبية . صحيح ان قوانين التاريخ المفترض انها تسير في نفس هذا الاتجاه كثيراً ما ترتدي طابع قوة شبه صوفية ، فيدعى الانسان الى الاخلاص والتضحية بنفسه لأجل هذه الاهداف المرغوبة من بين سائر الاهداف ، وهكذا يجعل هذا الانسان نفسه افضل . وهو يدعى الى ان يتجاوز نفسه باستمرار خدمة لخير البشرية .

ونرى وجه القربى بين هذه الايديولوجية والأديان الكونية القائلة بالخلاص والتي تدعو هي ايضاً (من حيث المبدأ على الأقل) الى تخطي فوارق المنشأ . يقيناً ان التقدم البشري — شأن خدمة الله في الأديان الكونية المؤمنة بخلاص الانسان — يمكن ان يتحقق في إطار الاقوام او الأمم . وينبغي ان توزن فوائد ومحاذير هذا الإطار في مختلف اللحظات التاريخية . لكنه ليس على كل حال سوى إطار محتمل . والواجب لا يقتضي ، مبدئياً ، الانحباس فيه . وإذا ما لزم القيام بالاختيار يوماً ما ، فإن خير جماعة معينة يجب ان يضحي به طبعاً من اجل خير البشرية بأسرها .

ومثل هذه الايديولوجية لا يمكن إلا ان تكافح الاضطهاد القومي ، وعملية تمييز ومحاباة قوم على اقوام اخرى ، كما تكافح التمثل الاجباري . لكنها مثلاً لا تعارض البتة تمثلاً ، انصهاراً في قومية اخرى ، يتم باختيار حر ، إلا اذا كان ذلك يعني الفرار من معركة ما (معركة للتحرر من الاضطهاد ، ولكن ليس معركة لأجل الخصوصية بأي ثمن كان ، بما ان هذه الخصوصية لا يخدم إلزامياً قضية الانسان) .

ان انصهار القوميات يمكن ان يكون مرغوباً فيه اذا كان يسهم في تقدم البشرية . يقيناً ان اصدار حكم في هذه المسألة امر دقيق ، والافضل ان

لا يكون القاضي من أبناء القومية القائمة بالتمثل - صهر قومية اخرى في قوميتها - . وبالعكس ما يزعم القوميون ، فان الثقافة العالمية الآخذة في التكون ، لن تخسر حتماً من عملية الصهر تلك . ان العناصر الصالحة ذات القيمة من الثقافة المتمثلة ليست بالضرورة بحاجة ، لكي تدوم وتستمر ، الى دعم القوم الذي كانت تلك العناصر تشكل احدى خصائصه . فهذه العناصر تستطيع البقاء بشكل 'محوّل' ، في لغة اخرى . ان عدداً قليلاً من الناس ما زالوا يتكلمون اللغة البروفنسالية ، وان عدداً اقل يعرف قراءتها ، لكن ادب شعراء التروبادور يمكن ان يقرأ مترجماً ، وقد أخصب العديد من المواهب والعقول والوجدانات عن طريق وسائط عديدة . لا يمكن للمرء ان يقضي حياته كلها وهو يبكي على المصير المشؤوم الذي اصاب فرنسا اللانغدوك خلال الحرب الصليبية ضد سكان مدينة الالب ، ولا صب الملامة على سيمون دي مونفور ، ولا محاولة إعادة تكوين قوم الجنوب الفرنسي الذي أثار بثقافته اوائل العصر الوسيط . وقد كان للتوراة العبرية من التأثير ، عن طريق ترجماتها التي لا تحصى ، على أذهان ونفوس وأرواح العديد من شعوب الارض ، أكثر بكثير مما كان لها بواسطة التأثير المباشر للشعب الذي انبثقت منه التوراة . ان التاريخ العالمي هو سلسلة لامتناهية من عمليات التمثل الناجحة ، التي لم يعد احد يتذكرها . ان الامم الحالية الأكثر ضراوة وتشدداً في الدفاع عن خصوصيتها هي محصلة العديد من عمليات الصهر والتمثل .

واذا كانت الايديولوجية الماركسية تضمّن الصراع الطبقي ، فذلك لأن هذا الصراع يهدف (حسب قولها ، على الاقل) الى إلغاء الطبقات ، وبالتالي ، إلغاء الامتيازات ، وإقامة الحرية والمساواة الاجتماعيتين . أما الايديولوجية القومية ، فتركز القيمة ، بالعكس ، على نضال الامة من اجل حريتها الكلية بمفردها ، دون ان تأخذ بعين الاعتبار الأمم الاخرى ، وكثيراً ما يكون ذلك على حساب حرية الآخرين . ولا يمكن إعطاء قيمة لصراع الامم ، في منظور الايديولوجية الماركسية ، إلا اذا كان هذا الصراع يسير

باتجاه التحرير العام للبشرية ، وفقط بمقدار سيره في هذا الاتجاه ، مهما كان يصعب التقدير . ولكن بعد ان تستقل امة ما ، وتحرر حتى من أغلال السيطرة غير المباشرة ، فان تمجيد القيم القومية وتنمية الايديولوجية القومية ، شبه الحتمية أثناء النضال من اجل التحرر ، انما يهدد باستمرار بأن يخدم في تبرير استمرار الصراع باتجاه كلاسيكي ، لسوء الحظ : جهود لأجل السيطرة ، والاضطهاد ، واستثمار الآخرين . وما من شيء يضمن بصورة آلية منع هذا التحول : لا الآلام التي يصاب بها سكان كانوا مستثمرين من قبل ، ولا ضحايا القمع بل والمذابح (لننظر الى اسرائيل) ، ولا تمجيد موضوعة الظلم والجور اللذين ينطوي عليها الاضطهاد القومي ، أثناء فترة النضال التحرري (مثال الكثير من البلدان التي كانت مستعمرات) ، ولا البيانات ذات المحتوى الأممي ، ولا التبريرات الايديولوجية النزيهة للمساعدة المقدمة الى شعب - شقيق ، ولا الديمقراطية البرلمانية ، ولا الملكية الجماعية لوسائل الانتاج^(١) .

إن آفاق الايديولوجية القومية (ولا فائدة من تعميدها أقوامية لتلافي الخطر) هي ، ولا يمكن أن تكون سوى سلسلة من الصراعات الدائئة والانتصارات التي تتبعها عمليات انتقام لا نهاية لها . والأمل الوحيد في تحطيم هذه الدائرة المقفلة يمكن ان يقوم في التهدة التي تساعد عليها الظروف ، والحسابات الحكيمة لرجال دولة يتمتعون بالرشاد ، مع تلطيف الايديولوجية ،

(١) لقد توقع لينين ان « واقع كون البروليتاريا قد حققت الثورة الاجتماعية لن يكفي لجعل منها قدسية ، ولن يضعها في مأمن من الاخطاء وحالات الضعف » ، ويمكن ان تقود البروليتاريا « المصالح الانانية التي تدفع للركوب على ظهر الآخرين » ، عن « حصيلة مناقشة حول حق الأمم » في كراس « ملاحظات انتقادية » ، موسكو ، المؤلفات الجزء ٢٢ ، ص ٣٨٠ . ويستشهد لينين بأنجاز الذي كان يعتقد انه من الضروري التنبيه الى ان « البروليتاريا الظافرة لا تستطيع ان تفرض سعادة ما على شعباجنبي دون ان تسبب بذلك الى انتصارها هي نفسها » ، رسالة الى كروتسكي - ١٢ ايلول ١٨٨٢ . وهذه حالات من بعد النظر لا مثيل لها ، عند كليها .

لكن ثمة خطراً دائماً بأن ظروفًا طارئة تمنح الايديولوجية القومية موجة جديدة من الحدة والضراوة . إن النزعة الفيدرالية يمكن ان تشل هذه المنازعات . لكن ثمة طريقة أخرى في الخلاص من دوامة الأحقاد : وهي النفي والابعاد ومحق شعب بكامله . والايديولوجية القومية تحمل ، بصورة كاملة أو نشيطة ، أحقاداً ومنازعات ومجازر دون أية فائدة للبشرية ، بل بالعكس ففيها كل الضرر .

أما الايديولوجية الماركسية الانسانية النزعة ، فهي شأن كل ايديولوجية إنسانية شاملة تعمل لخلاص الانسان ، فتستطيع الاعتراف بأهمية الثقافات القومية ، وبقوة المشاعر القومية ، وبشرعية الدفاع عن الحقوق القومية . ولكن ليس بوسع الايديولوجية الماركسية ان تقبل ، دون ان تحون نفسها ، الايديولوجية القومية .

حول النظرية الماركسيّة في الأمّة (*)

بقلم مكسيم رود نسون

في حقبة عملية نزع الاستعمار الواسعة والسريعة عن آسيا وافريقيا ، في اللحظة التي يناضل فيها كثير من الشعوب لانتزاع استقلاله او الدفاع عنه ، تنطرح المسألة النظرية للأمة في جدول الاعمال . وهي تنطرح اليوم على الاقل بنفس المقدار الذي طرحت به في الفترة السابقة لحرب عام ١٩١٤ ، فترة المناقشات الشديدة حول المسألة ، عندما كانت المسائل الاساسية (على مستوى ما) هي بالأحرى مسائل توحيد واستقلال بعض الاقوام الاوروبية . في كل مكان ، في الأقاليم التي كانت مستعمرة في السابق ، تنطرح المسألة ذاتها : هذا الشعب او تلك المجموعة من السكان ، هل يكونون أمة ؟ أم أمتين ؟ أم اكثر ؟ وفي كل مكان تقريباً ، فهم حق الاستقلال بوصفه نتيجة طبيعية لوجود مُشَبَّه لكائن قومي . أما أعداء هذا الاستقلال فقد انكبوا بحماسة للبرهان على أن السكان المعنيين لا يستحقون اسم أمة .

ان محاولةً لدراسة مسألة الأمة في البلدان العربية ، على ضوء الموضوعات الماركسية ، قد اقنعتني ان من المستحيل تطبيقها دونما إدخال تنقيحات جدية على تحديدات المفاهيم المصاغة من خلال وقائع خاصة ببلدان أخرى . وقد بدا لي ضرورياً ان اشرع ، بادىء ذي بدء ، بفحص نقدي للنظرية الموجودة ،

(*) عن مجلة : « Voies Nouvelles » ، العدد ٢ ، أيار ١٩٥٨ .

لأنسبها وقيمتها . هذا الفحص سنراه بعد قليل . وسيدتدعي تصحيحات عديدة بلا شك. غير انني بذلت قصارى الجهد من جهة ليكون ماثلاً في الذهن الموضوعات الماركسية السوسولوجية الرئيسية التي تبدو لي مُشَبَّهة ، ومن جهة أخرى ان آخذ بعين الاعتبار الوقائع المعروفة ما وسعني ذلك . وقد استخدمت جزئياً المعطيات التي تقدمها البلدان العربية والعالم الاسلامي اللذين أعرفها احسن من أنحاء العالم الأخرى ، غير انني لم أرد هنا ان أقوم بدراسة خاصة للمسألة الصعبة ، مسألة الأمة العربية (او الأمم العربية) ، التي سأعود إليها فيما بعد .

مقال ستالين

مهما تكن الطريقة التي تناول بها معظم الماركسيين ، منذ حوالي ثلاثين سنة ، المسألة القومية في بعض البلدان ، إلا انها كانت بسيطة بعمومها : ينطلقون من تعريف الأمة الذي صاغه ستالين عام ١٩١٣ في مقاله الشهير المنشور في مجلة « بروسفيشتيني » (*) ، ثم يفحصون الظاهرة العيانية المطروحة أمامهم ليروا فيما إذا كانت متفقة مع التعريف أم لا . عند الايجاب يقولون انها امة ، وفي الحالة الثانية يقولون انها ليست بأمة .

هذا الموقف كان مبرراً حقاً لو ان ما كتبه جورج كونيو (مع آخرين كُثُر) كان صحيحاً : « ان ستالين قد اعطى في عمله الكبير ، للمرة الاولى ، التعريف العلمي للأمة » (١) .

ليس المقصود لا الثلب المنهجي لعمل ستالين لأنه ستالين ، ولا الهزاء

(*) نشرنا المقال مع مجموعة النصوص الموجودة في الملحق . (الناشر)

(١) جورج كونيو : « حقيقة الأمة » ، باريس ، المنشورات الاجتماعية ، ١٩٥٠ ،

بتأكيدات كهذه . فقد صغتُ حول نفس الموضوع تأكيدات مشابهة . ولكن فقط لأن عقلنا النقدي إزاء أفكار كانت مقبولة منا في السابق بلا فحص قد استيقظ . ان تعريف ستالين يكاد لا ينطبق على البلدان العربية بخاصة ، كما سنرى . ينبغي لهذا العقل النقدي ان يمارس مهمته باعتدال ، ولكن بلا تردد وبلا محرمات « علمية » .

يجدر ان نفحص عن قرب اذن هذا المقال ، الذي يقع بين ٦٠ و ٨٠ صفحة ، تبعاً للطبعات المختلفة ، والذي يفترض ان يخدمنا كدليل ^(١) . وعندما لا نكون مشغولين باحترامنا الدوغمائي ، لا بد ان تظهر امامنا بعض الخصائص فيه .

يبدأ ستالين مقاله بوضع « تعريف للأمة » بعدة صفحات . ان مستنداته هزيلة حول تكون الكائنات entités من الطراز القومي . والمستند الوحيد الذي كان يعرفه جيداً هو بلاد القفقاس ، على الاقل كما كانت في الوقت الذي كان يكتب فيه المقال . صحيح ان ماركس قد بدأ ايضاً « رأس المال » بتعريف لمفهوم مجرد ، هو مفهوم القيمة . وانطلاقاً من هنا ، فان صيغه كانت استنباطية . ولكن من المعروف كم كانت دراسته لبنية وآلية النظم الرأسمالية طويلة ومجيدة ومعقدة ومستندة الى بحوث تفصيلية معمقة ومطبوعة باكتشافات مفاهيم جديدة (قوة العمل) جعلته يراجع محاولاته السابقة . ان كل هذه المواد الأولية للبناء الذي عمل اكثر من عشرين عاماً في انضاجه وصياغته لا أثر له عند ستالين . لقد أمضى مدة شهرين في فيينا يدرس ، مع ترويانوفسكي وبوخارين ، مؤلفات المنظرين الماركسيين النمساويين المتعلقة

(١) مجلة « الفكر » ، العدد ٣٣ ، تشرين الثاني - كانون الاول ١٩٥٠ ، ص ١٠٧ . راجع ايضاً هنري لوفيفر : « النزعة القومية ضد الأمم » ، باريس ، المطبوعات الاجتماعية ، ١٩٣٧ ، ص ١٢٧ - ١٣١ . ولقد حاول لوفيفر عند تفسيره للتعريف اعطاه اقصى عمق ممكن .

بهذه المسألة^(١) ، وبخاصة المؤلف العظيم (٥٧٦ صفحة) لأوتو باور الذي ينقده بازدرء جميع الناس ، مع انهم لم يقرأوا منه إلا اربع او خمس استشهادات اوردها ستالين . وبعد هذه القراءات ، وكذلك على اساس تجربته العملية ومحادثاته مع لينين ، كتب هذه الصفحات القليلة التي حدد فيها بسرعة ، انطلاقاً من بعض الأمثلة ، « تعريفاً للأمة » . ثم مضى سريعاً الى الجدل السياسي .

ولا بد من الاشارة الى ان ثمة مسألة برنامج سياسي ومسألة تنظيم الحزب تكمن وراء المقال . لقد كان لينين والبولشفيك يعارضون ، من بين سائر الاشتراكيين الديمقراطيين الروس ، موضوعات البوند وبعض المناشفة القفقاسيين حول مطلب الاستقلال الذاتي القومي وحول تنظيم الحزب على أساس القوميات . وتستند تلك الموضوعات الى مثال الاشتراكيين الديمقراطيين النمساويين . وفي معارضة للبوند والمناشفة القوقاز ، فان لينين ، الذي كان قد انكب للتو على دراسة معمقة للمؤلفات الاشتراكية الديمقراطية المكتوبة حول المسألة القومية ، طلب الى ستالين كتابة مقال جدالي وكلفه ان ينقّب ويراجع في فيينا ، بمساعدة بوخارين وترويانوفسكي (لم يكن ستالين يعرف الالمانية) ، مستندات ومراجع المسألة . ومن هذه الزاوية ، زاوية كون مقال ستالين بمثابة جدال ضد البوند والمناشفة القفقاسيين ، ثمّن لينين عمل ستالين عبر بضع 'جمل جاءت في رسائل غير منشورة' ، ثم قام معهد ماركس - انجلز - لينين بنشرها كملحظة في طبعة مؤلفات ستالين . في هذا الجدل كان المقصود هو تبين انه لا يمكن تصور الاستقلال الذاتي للأقليات القومية في روسيا بدون قاعدة ما ارضية اقليمية لهذه الاقليات ، وكذلك فان الحزب لا يمكن ان

(١) ن . كروبسكايا : « ذكريات عن لينين » . لندن ، لورنس وويشارت ، ١٩٤٢ ،

ص ١٩٦ . راجع ايضاً ب . د . وولف : « لينين ، تروتسكي ، ستالين » ، باريس ، كلان ليفي ،

١٩٥١ ، ص ٢٨٥ - ٣٠٩ .

ينظم إلا على اساس تقسيمات ارضية اقليمية . ولقد اعتقد ستالين ان دعم هذه الفكرة يقتضي صياغة نظرية عامة تقول ان الارض هي، في كل الظروف وفي كل مكان وعلى الدوام ، علامة لوجود الأمة .

ونحن، بدورنا، لا نريد ان نأخذ من هذه الحجة برهاناً على أساس المسألة، ولكن من المهم ان نشير الى ان لينين لا يبدو انه قد ثمن كثيراً بمجل عمل ستالين . لقد أمّل منه الكثير ، كما تبين رسالته التي كثيراً ما استشهد بها ، رسالته التي بعث بها الى غوركي في شباط ١٩١٣ ، في الوقت الذي كان يحضر فيه تلميذه مقاله : « معنا هنا جيورجي رائع شرع في كتابة مقال طويل لبروسفشتينيه ... » .

ولكن تعين عليه ان يصاب بخيبة على عدة مستويات . وثمة علائم مختلفة تشكل شهادة جلية على ذلك . فبعد وقت قصير جداً من ظهور مقال ستالين في تلك المجلة (الاعداد ٣ - ٥ ، آذار - أيار ، ١٩١٣) نشر لينين بالذات في نفس المجلة (الاعداد ١٠ - ١٢ ، تشرين الاول - كانون الاول ، ١٩١٣) مقالاً بعنوان : « ملاحظات نقدية حول المسألة القومية » ^(١) . ولقد طرق فيه نفس الموضوعات التي تناولها ستالين ، وجادل البوند كذلك كما فعل ستالين . لقد رأى لينين ان ليس من فائدة من اللجوء ، لأجل حاجات الجدال ، الى نظرية عامة في الامة ، كما فعل « جيورجي الرائع » . وبصدد نفس مشاكل التنظيم ، ونفس المطالب ، لم يشر لينين البتة الى مبدء الارض الضروري للأمة ، الذي كان يفترض ان يجعل منه الحجة الأساسية لو ان تعريف ستالين كان يشكل ، كما ظنت الآراء اللاحقة ، اسهاماً ماركسياً أساسياً . فهو لم يرجع الى مقال ستالين إلا مرة واحدة، لكي يحيل القارئ الى نص تماثلي ورد فيه . وهو لم يسترجع ولو مرة واحدة في أي من

(١) نشر بالعربية في كتاب صادر عن موسكو بعنوان : « مسائل السياسة القومية والأمية البروليتارية » ، ١٩٦٩ . (المغرب)

مقالاته حول المسألة القومية تعريف ستالين . بل الأهم من ذلك ، فانه قد اتخذ مراراً في التفاصيل عكس رأي ستالين تماماً .

المسألة الأساسية التي كانت مدار خلاف هي مسألة « اقليمية » تنظيم الحزب ومسألة الأقليات القومية التي كانوا يطالبون لها بالاستقلال الذاتي . كان الحزب الاشتراكي الديمقراطي في الامبراطورية النمساوية - المجرية قد اختار تأييد مطالب الأقليات القومية في الامبراطورية . وقد اقترحت اللجنة المركزية على مؤتمر الحزب المنعقد عام ١٨٩٩ في بروون الحل التالي : تقسيم الامبراطورية الى مقاطعات تتفق حدودها قدر الإمكان مع حدود الأقليات الاقوامية . لتحديد وتوضيح هذه الفكرات ، لنقل ان اقليم الامبراطورية الذي كانت الأكثرية فيه ايطالية (التراننتان le Trentin) ينبغي ان يكون احد هذه المقاطعات . وفي كل مقاطعة ، ينبغي للعنصر « القومي » الذي يهيمن فيه (الايطاليون في التراننتان) ان يحصل على كامل السلطة في الشؤون الثقافية واللغوية . كان هذا هو مبدأ الاستقلال الذاتي القومي - الثقافي الاقليمي .

لا يبدو ان ذلك كان مرضياً بالنسبة للبعض . ففي الامبراطورية النمساوية - المجرية كانت العناصر « القومية » متداخلة ومتشابكة على درجة من التعقيد تجعل من المستحيل الوصول الى تحديد وتثبيت حدود الأقاليم بحيث يحتوي كل منها عنصراً واحداً لوحده فقط . مثلاً في التراننتان حيث الاغلبية ايطالية ، كان يوجد فيه ايضاً سلوفينيون ولمان ، الخ ، الذين يمكن ان يستشعروا بالنقص بسبب العمل التشريعي الذي يمكن ان يقننه « المجلس القومي » الايطالي لصالح اللغة والثقافة الايطالية . ولهذا فان الأقلية القومية اليوغوسلافية قد تقدمت بمشروع معاكس : تقسيم الامبراطورية لا الى أقاليم بل الى قوميات . فيقوم المنتمون الى نفس القومية في سائر أنحاء الامبراطورية بانتخاب مجلس يشرّع في ما يتعلق بسائر المسائل اللغوية والثقافية التي تمس هذه القوميات . فالإيطاليون الموجودون في مدن دالماسيا ، الواقعة في قلب يوغوسلافيا ،

والإيطاليون الذين يمكن ان يكونوا قد هاجروا الى فيينا او بودابست يصوتون جميعاً مع ايطاليي الترانتيان، ويتمتعون بنفس الحقوق من جهة تطوير الثقافة الإيطالية . كان هذا هو مبدأ الاستقلال الذاتي القومي - الثقافي غير الاقليمي .

رفض مؤتمر بروون الاقتراح اليوغوسلافي . وأقر نصاً معقداً : تقسم الامبراطورية ، مبدئياً ، الى « وحدات محددة تبعاً للقوميات ، تسيّر ادارياً بشكل مستقل » ، ويخضع التشريع والادارة لمجلس منتخب بالاقتراع العام ، المتساوي والمباشر. إذن فالاستقلال الذاتي (الكامل) الاقليمي هو الاساس. بيد ان سائر المناطق المستقلة استقلالاً ذاتياً للقومية ذاتها (ولنقل مثلاً المنطقة الألمانية في ترانسلفانيا والمناطق الألمانية في النمسا) تشكل اتحاداً Verband فيما بينها يتولى شؤون هذه القومية . وتضمن حقوق الاقليات (في كل وحدة unité) بقانون خاص ^(١) . وفضلاً عن ذلك ، فان الحزب ذاته كان قد أعيد تكوينه على أساس اتحادي (فيديرالي) بين منظمات الحركة الاشتراكية الديمقراطية ، كل منظمة منها كانت مقابلة ومتناسبة مع قومية معينة .

وفي العقد التالي ، لم يجد مثقفون اشتراكيون ديمقراطيون نمساويون - مجريون ان تنظيمات مؤتمر بروون كافية لحفظ حقوق الاقليات . وكان هؤلاء هم الرئيس المقبل للجمهورية النمساوية كارل رينر(الذي كان يكتب باسم مستعار: سينوبتيكوس) وكارل شبرنجر واوتو باور . وصاغوا نظريات حول الأمة أرادوها ماركسية ودعوا الى الاستقلال الذاتي القومي غير الاقليمي . وبموجبها ينتخب سائر المان الامبراطورية مجلساً قومياً ألمانياً يشرّع في المسائل الثقافية واللغوية الألمانية، بل يمكنه فرض ضرائب على ناخبه . وتقوم

(١) ثمة ملخص واف حول المسألة في كتاب ر . بايبس : « تكون الاتحاد السوفياتي » . كمبريدج ، ١٩٥٤ . ص ٢١ . كما يمكن مراجعة كتاب باور : « مسألة القوميات والاشتراكية الديمقراطية » ، الطبعة الثانية ، فيينا ، ١٩٢٤ ، ص ٥٢٧/٥٢٨ .

هيئات تشريعية خاصة بتنظيم وتسوية المسائل السياسية . وكتب باور :
« ولكن حل الأمور القومية الذي لا يوكل لهذه الهيئات التي لا يمكن البتة
ان تعطي او ان تعيد الى الأمم اي شيء . ولهذا فان السكان إنما يتوزعون ،
في هذه الهيئات ، حسب الطبقات لا حسب الأمم^(١) . ان باور قد أحس ،
فضلاً عن ذلك ، وعلى غرار ستالين ، بالحاجة الى بناء أفكاره على نظرية شمولية
في الامة ، مدعمة بأسانيد ووثائق تاريخية ضخمة . وكان قد اعترف ، في
مقدمة الطبعة الثانية لكتابه ، ان صياغة نظريته قد تأثرت بـ « طفولة
يسارية » ، الكانتية le Kantisme ، التي استوحاها عند كتابة الكتاب عام
١٩٠٦ . ولكنه دافع مطولاً ، ضد كاوتسكي ، عن الطابع الماركسي ، من
حيث الأساس ، لنظريته نفسها .

يحلل ستالين في مقاله النص الذي أقر في مؤتمر بروون . لقد رأى ان النص
يجوهره ذا نزعة غير اقليمية . وكتب كذلك : « ليس من الصعب ان نلاحظ
ان هذا البرنامج قد احتفظ ببعض آثار الاتجاه الاقليمي ، غير انه بمجمله مبني
على أساس الاستقلال الذاتي القومي » ، ويعني ستالين الاستقلال الذاتي غير
الاقليمي . وبرأيه ان شبرنجر وباور قد قابلا بالترحاب ذلك النص لأنه كان
مطابقاً لفكراتها ، وان شبرنجر قد اقترح تعديلاً صغيراً فقط ، بغرض « المزيد
من الوضوح » . وهكذا يخلط ستالين برنامج بروون مع رينير شبرنجر وباور ،
لكي يدينها معاً بوصفها من أنصار الاستقلال القومي الثقافي غير الاقليمي ،
الذي هو « صنف حاذق من أصناف النزعات القومية » ، ومن هنا فان
« بعض نقاط البرنامج تصلح تماماً لكي تكون ضمن برنامج قومي برجوازي »^(٢) .
من الصعب ألا تعتبر بمثابة انكار صريح الآراء الواضحة والمعارضة

(١) راجع كتاب باور المذكور قبلاً . ص ٣٦٢ .

(٢) ستالين ، المرجع السابق ، ص ٤٢ .

بصورة مباشرة للنين التي نشرت في نفس المجلة ، بعد عدة اشهر ، إذ كان البونديون يصرحون بأنهم يستوحون من النمسا ، من البرنامج النمساوي ، من باور وشبرنجر الذين كانوا قد ترجموها الى الروسية . كتب لينين : « نحن مضطرون الى ان نعيد الحقيقة الى نصابها ، هذه الحقيقة التي كثيراً ما افسدها البونديون » . ان البرنامج الذي أقر في بروون هو برنامج اقليمي تماماً ، ما دام الاقتراح اليوغوسلافي الذي يغفل مسألة الارض في الاستقلال الذاتي قد رُفض . « لقد أقر برنامج اقليمي ، وهذا يعني انه لا تخلق أية جماعة قومية دون اعتبار للأرض التي يحتلها اعضاء الأمة » ^(١) . صحيح ان الفقرة ٣ من البرنامج ترسم تسوية خاطئة في اتجاه إغفال مسألة الارض ، ولكن يبقى ان « برنامج بروون القومي قائم كلياً على ارضية الاستقلال الذاتي القومي - الاقليمي » ^(٢) . ينبغي ألا نخلط بينه وبين موضوعات المثقفين ، إذ انه « في النمسا بقي الاستقلال الذاتي القومي الثقافي اختراعاً ادبياً لم يحمله الاشتراكيون الديمقراطيون انفسهم على محمل الجد » ^(٣) . ان برنامج بروون اذن ينبغي ان يؤخذ بعين الاعتبار ، وقد ذهب لينين بعيداً في هذا الاتجاه . « ولا ريب اخيراً انه ، من اجل القضاء على كل اضطهاد قومي ، من المهم جداً انشاء نواح مستقلة ذاتياً ، مهما كانت صغيرة ، شرط ان يكون كل سكانها من قومية واحدة ، ويستطيع افراد هذه القومية ، الموزعون في مختلف انحاء البلاد او حتى في شتى اصقاع الكرة الارضية ان « يُستقربوا » حولها وتنشأ بينهم وبينها مشاركات حرة متنوعة . ان كل هذه الوقائع ثابتة لا مرأ فيها ولا يمكن الجدال حولها وإنكارها إلا من وجهة نظر روتينية بيروقراطية » ^(٤) .

(١) لينين : « ملاحظات نقدية » . ص ٢٦ .

(٢) نفس المرجع . ص ٣٩ .

(٣) نفس المرجع . ص ٢٥ .

(٤) نفس المرجع . ص ٣٩ / ٤٠ .

إذن ، فلينين يجعل الفقرة ٣ من برنامج بروون لينة . فبدلاً من الاتحاد Verband يطرح مشاركات associations حرة . وفضلاً عن ذلك ، فان المقاطعات ينبغي ان تتحدد مع الاخذ بعين الاعتبار العوامل الاقتصادية أيضاً ، لا ان تتحدد كلياً وحسراً بموجب حدود القوميات . أما ستالين فيدعو الى الاستقلال الذاتي الاقليمي دون ان يضيف هذه التلاوين التي يلح لينين من خلالها على ضرورة ان تؤخذ باعتبار كبير العوامل القومية — مع عوامل اخرى — باتجاه برنامج بروون .

لا أجد مجالاً هنا لدراسة مخططات المحاضرات المتعلقة بالمسألة القومية التي حررها لينين بين عامي ١٩١٣ — ١٩١٤ ، ولا لدراسة الملاحظات المدونة في دفاتره . ونرى فيها كيف انه ، عندما يسجل ملاحظة يستعمل فيها مرتين تفاصيل مقال ستالين في الجدل ، كان يزدرى تماماً نظريته كلها . لقد دون مراراً ان ثمة « نظريتين ماركسييتين حول المسألة القومية » . الأولى نظرية باور — رينر ، والثانية نظرية كروتسكي ، ولم يكن يعترف بثالثة . زعم تروتسكي وآخرون غيره ، وهذا صحيح ، ان لينين قد اشرف اشرفاً تاماً على عمل ستالين ، بل لقد ساهم به ، وأضاف إليه جملاً من بنات أفكاره ومعروف جيداً انها من اسلوبه . من المؤكد ان لينين قد راجعه وأعاد قراءته ، ولكنه لم يرغب بالتأكيد باعادة كتابة المقال برمته ، محتفظاً لنفسه ، كما رأينا ، بمعالجة المسألة بنفسه وبطريقة اخرى . ان مجمل المقال (وبخاصة القسم الأول منه) يحمل بلا جدال طابع اسلوب ستالين في التفكير وفي الصياغة .

نظرة نقدية اولية

ان معارضة لينين الواضحة لمجموع حجج ستالين ، وتجاهله الاكيد المقصود لنظرية ستالين العظيمة حول الأمة ، ليست بالطبع حججاً لرفض هذه النظرية بأساسها . بيد ان موقف لينين هذا يحذرنا من المبالغة في تقدير قيمتها . من الممكن اضافة ملاحظات حول ضعف مقال ستالين ، ملاحظات سجلت عليه

منذ زمن طويل . ولقد رأينا كيف انه غير معنى برنامج بروون ، وخطب بلا مسوِّغ بهذا البرنامج فكرات رينر وباور . فضلاً عن ذلك فانه قد زيف عمداً (على الأقل باعتباره لم يقرأ الصفحات المعنية من الكتاب الذي ينقده ، او لم يفهمها) افكار باور . لنتذكر ان باور كان قد عرف الأمة بوصفها « مجموعة من البشر مرتبطين بجامعة مصيرهم (التاريخي) وجامعة الخصائص »^(١). يمكننا نقد هذه الصيغة وتفكير باور برمته ، ولكن من المؤكد لا يمكن ان ندعي كما يقول ستالين بأنه « يضع حداً يتعذر اختراقه بين « السمة المميزة » لأمة ما (الطابع القومي) وشروط حياتها ، بقطع احدهما عن الاخرى »^(٢). بل على العكس فان باور كان يحتج ويعترض على ما كان يسميه بـ « عبادة صنم الطابع القومي » ؛ فهو ليس « قوة مستقلة » ، بل « خلاصة تاريخ الأمة » الذي لا يمكن فيه شيء آخر سوى « تاريخ الاجداد وشروط نضالهم في سبيل الوجود وقوى الانتاج التي كانوا يشرفون عليها وعلاقات الانتاج التي دخلوا فيها »^(٣) . ان مثل هذا الفهم الذي توصل اليه ستالين او مثل هذه النية السيئة لديه لا يمكن إلا ان تدفعنا الا الى عدم قبول افكار ستالين بدون نقد. من الشائع نقد مفهومه حول الأمة لما يقود اليه من رفض لقب « الأمة » عن سويسرا وبلجيكا وكندا ، الخ ، وهي بلدان تفتقر الى الوحدة اللغوية . بيد انه من المناسب ان نسجل ان لينين ، في المقالات التي استشهدنا بها قبلاً ، يبدو واضحاً انه يعتبر سويسرا كأمة^(٤) . ولكن هذا المجال ليس المجال الذي نشب فيه الى قلب المسألة .

ان دراسة ظاهرة معقدة وصعبة الالتقاط لا تبدأ بـ « تعريف » لهذه الظاهرة ، يلخص بسرعة بمساعدة بضعة امثلة تلغي جملة من جوانب

(١) باور ، المرجع نفسه ، ص ١٣٥ .

(٢) ستالين ، نفس المرجع ، ص ١٨ .

(٣) باور ، نفس المرجع ، ص ١٢٩ .

(٤) راجع مقال فالبييه وجوسي ، مجلة « النقد الجديد » ، عدد ٣٩ ، ١٩٥٢ ، ص ١٠٢ .

هذه الظاهرة ، جوانب تناقض في هذه النقطة او تلك ذلك التعريف . ان هذه الطريقة تشبه الطريقة التي استخدمتها الفيزياء الارسططالية او السكولاستيكية اكثر مما تشبه الطريقة التي يستخدمها العلم الحديث . من المفهوم اذن لماذا لم يرغب لينين في كفالتها .

غير ان محاولة ستالين ليست بلا قيمة . لقد كان إزاء ظاهرات بقامة ضخمة ، ظاهرات عيانية ، ظاهرات يفرض إدراكها نفسه على الجميع . لقد كانت امامه دراسة قابلة للنقد في عدد لا بأس به من النقاط ، ولكنها مليئة بالأسانيد ، هذه الدراسة هي دراسة اوتو باور . ان مبادئ ستالين الماركسية الصلبة وإشراف لينين قد جنبته مأزق وقع فيها منظرّون اكثر معرفة ولكن أقل فطنة . وعلى هذا فانه قد استخلص بضع فكرات أساسية يمكن ان تخدم ، مع بعض الحيلة ، بمثابة صوى لدراسة ماركسية للمسألة .

ما حدّده وعرفه ستالين كان ضرباً من قطب لوقائع معينة، ونوعاً من جماعة شولية وكنية لعصر الرأسمالية خصّه باسم هو الامة . هذه « الجماعة ، الثابتة ، المؤلفة تاريخياً ، التي يجمعها جامع اللغة والارض والحياة الاقتصادية والتكوين النفسي الذي يجد تعبيراً له في الثقافة المشتركة » هي نموذج « الامة » في اوروبا الغربية : انكلترا ، فرنسا ، المانيا ، هي النمط الاكثر اكتمالاً الذي ولّده التطور الاجتماعي للانسانية في عصر الرأسمالية .

وعلى هذا فقد كان لستالين الفضل في انه قد بيّن ان هذا النموذج من الجماعة البشرية لا يمكن ان يُرد الى (ويُقصر على) عوامل مثالية كما اراد رينان ، في محاضراته الشهيرة التي وجه حدّها ايضاً ضد العرقية ، عندما نادى : « ان أمة ما هي روح ، هي مبدأ روحي » . لقد ربط ستالين وجود الأمة بتطور التكوينات الاقتصادية الاجتماعية . هذه بساطة . ولكنها أساسية .

ولكن ما يعيب الصلابة التبسيطية لمحاولته ، وهذا عيب كبير جداً ، هو انها تختلّ المفهوم الذي حاولت ان تضع تخومه ، وتفرض عليه اتساقاً

لا تشوبه شائبة وثباتاً ميتافيزيقياً تماماً . وسيكون لهذا العيب مفاعيل وتأثيرات مؤذية جداً على هؤلاء الذين يريدون ان يقيسوا بهذا المقياس الوقائع الفعلية .

فمن جهة ، توجد جماعات من نفس النموذج ، في اوربا الشرقية نفسها ، لا تتوفر على سائر الشروط التي وضعها ستالين . ومن المعروف انه يلح على انه اذا افتقد معيار واحد من المعايير التي عددها ، فهذا يكفي لكي لا تعتبر الجماعة المعنية أمة . وتلك هي ، كما رأينا قبلاً ، حال سويسرا وبلجيكا وكندا . وكذلك فقد انساق ، خلال عمله (وبتناقض جلي مع تعريفه النظري) ، الى موقف يعتبر فيه ، بحق ، أمماً جماعات قومية مجزأة بين عدة دول ، كبولونيا في ايامه ، وجماعات اخرى تضطهدها دول او عناصر اخرى مهيمنة كأوكرانيا في الامبراطورية الروسية ، وجماعات اخرى ما تزال على العكس مهيمنة وهي لهذا السبب مختلطة ، في حدود دولة ما ، مع قوميات مضطهدة ، كالأمة الالمانية في الامبراطورية النمساوية - المجرية .

ان هذا التناقض لتناقض فريد مع نظريته الخاصة . والواقع ان وحدة الارض بالنسبة لبولونيا ، التي تقسمها وتجزئها ثلاث امبراطوريات ، يمكن ان تعتبر ، عند الاقتضاء ، متوفرة على ضرب من الاتساق الجغرافي . ولكن كيف يمكن الحديث عن وحدة اقتصادية بين هذه الاجزاء التي تفصلها حدود جمركية شائكة ؟ لقد كانت اوكرانيا ، من الزاوية الاقتصادية ، جزءاً من السوق الروسية ، وكذلك كان القسم الالمني من الامبراطورية النمساوية - المجرية جزءاً من سوق هذه الامبراطورية . والوحدة الاقتصادية لا يمكن ان تأتي إلا بعد ان تصبح كل من هاتين الأمتين قائمتين في اطار دولة قومية . وبانتظار ذلك ، هل ينبغي اذن ، وفقاً لمبادئ ستالين وعلى النقيض من الأمثلة التي قدمها ، ألا نعتبر كلا منها أمة ؟ سنرى البلبلة والتشويش الذي تقود اليه هذه النظرية .

كيف يمكن لتعريف كهذا ان يخدمنا كدليل لدراسة مسألة الأمة في البلدان العربية ؟ من المحيط الأطلسي الى وادي دجلة والفرات ، نرى منطقة

واسعة جداً (هل ينبغي اعتبارها منطقة واحدة ؟) ، لسكانها لغة واحدة للكتابة ، ولكنهم يتكلمون هذه اللغة بلهجات متعددة ، وأحياناً مختلفة كثيراً . و « التكوين النفسي » يتضمن مجموعة من العناصر المشتركة ، هي العناصر المرتبطة بالدين الاسلامي ، وبالأدب العربي الذي يشكل ارثاً مشتركاً . ولكن الأغلبية الكبرى من هذا الشعب كانت تجهل حتى تاريخ قريب هذا الأدب ، والعناصر الخصوصية بكل بلد من هذا المجموع كانت عديدة . هل نستخلص اذن ان ليس هناك من أمة عربية ؟ اما الوحدة الاقتصادية فلا يمكن حتى تصورها بالنسبة لمنطقة بهذا التنوع . هل ينبغي ان نتحدث ، في هذه الحال ، عن أمة سورية وأمة لبنانية ، وأمة سورية — لبنانية ، وأمة سورية — لبنانية — اردنية — فلسطينية مقابل أمة مصرية مثلاً ؟ هل ينبغي إدانة قيام الجمهورية العربية المتحدة كتكوين معاكس للطبيعة ؟

نحو منظور تاريخي

وفضلاً عن ذلك لا يكفي القول ان « الأمة هي مقولة تاريخية لعصر محدد ، لعصر الرأسمالية الصاعدة » ^(١) . ينبغي النظر الى الأهم المكتملة من النموذج الفرنسي والانكليزي ، الخ ، بوصفها نهاية سلسلة طويلة ، وبأنها مآل وعاقبة تطور طويل ، مع وجود وقائع مغايرة هامة ممكنة وقائمة . لا جدوى من القول ، سكولاستيكياً ، ان بلجيكا وسويسرا ليستا أمتين . هذا القول لا يعلم شيئاً . ما ينبغي تحديده ، علمياً اذا امكن ، هو خاصيتها بوصفها جماعة من النموذج القومي لعصر الرأسمالية ، وهو ماذا تطابق وتتأخر هذه الخاصيات ، وكيف تكون وتتشكل ما هو عام منها وناجم عن فعل قوانين آلية وتطور المجتمع الرأسمالي وما هو خصوصي منها وناجم عن شروط وظروف تاريخية خاصة . هذه التكوينات المسماة امم قد تطورت على اساس تكوينات سابقة ، مختلفة جزئياً ومتشابهة جزئياً . ولقد صاغ الماركسيون السوفيات نظرية

(١) ستالين ، نفس المرجع ، ص ٢٠ .

حول هذه التكوينات . فبعد العشيرة clan ثم القبيلة tribu ، وهي جماعات شمولية كلية وتكوينات أقوامية يتصف بها المجتمع البدائي غير الطبقي ، يأتي النارودنوست narodnost (مشتقة من كلمة narod الروسية ، وتعني شعب « peuple ») الذي يطابق وينظر مجتمعا بدائيا غير طبقي ، وتأتي بعده الأمة ، وهي تكوين لعصر الرأسمالية ولكنها تستمر في المجتمع الاشتراكي^(١) . ويتميز النارودنوست (ويترجم بشعب peuple او بقومية nationalité) بتوفرة على ارض مشتركة ولغة مشتركة (مع وجود عدة لهجات) وثقافة مشتركة . ومن خلال التطور الاقتصادي الرأسمالي او إدخال علاقات الانتاج الاشتراكية يحصل الاقليم على اقتصاد مشترك وتتشكل سوق قومية ، فنشهد ولادة امة .

ان لهذا البناء مزاياه ، وله حدوده . وإجمالاً فإنه يقتصر على القول بأنه عندما تذوب القبائل في وحدات اوسع ، في عصر تكون المجتمع الطبقي ، نكون إزاء جماعات ذات بنية اكثر تخلصاً من بنيات الأمم ، وهو ينجم اساساً عن افتقارها الى هذه اللحمة الداخلية ، ولها نتائج متعددة الاشكال ، التي تدفع الى قيام سوق قومية . ولكن لا ينبغي الاعتقاد ان هذه الجماعات محددة تحديداً كافياً ما دامت قد ألصقت عليها يافطة مشتركة ، يافطة النارودنوست . فثمة اختلافات بين هذه التكوينات كالاختلافات بين اليونان القديمة وبلاد الغال ولانغدوك فرنسا القرون الوسطى وبلاد الاوزبك قبل ثورة اكتوبر ، الخ . ان عملاً ضخماً ينتظر هؤلاء الذين يحاولون ان يحددوا ، في هذا الميدان ، النماذج والخصائص وخطوط التطور وطرق السير .

من المفيد هنا ان نقارن بهذا البناء واحدة من احسن محاولات التركيب essais de synthèse غير الماركسية ، ألا وهي محاولة مارسيل موس ، المكتوبة عام ١٩٢٠^(١) . يمكن ان نلاحظ فوراً ان موس ينتهي الى 'سَلَسَم

(١) مارسيل موس : « الأمة » ، السنة السوسولوجية ، باريس ، المنشورات الجامعية ،

للمقولات هو قريب اجمالاً من السلم الذي توصل الى بنائه الماركسيون السوفيات . وهو يسمي « شعب » *peuple* ما يسمونه نارودنوست . العيب الكبير في محاولته هو انه لم يرَ بوضوح ، على الأقل ، مذ ذابت القبائل في كائنات اوسع ، صلة ذلك مع التطور الاقتصادي ، مع نشوء التكوينات الاقتصادية – الاجتماعية الرأسمالية ^(١) . ومن هنا كان تعريفه للأمة : « مجتمع مندمج مادياً ومعنوياً له سلطة ثابتة ودائمة وحدود معينة ، ويتمتع سكانها بوحدة اخلاقية وعقلية وثقافية نسبية ، ويلتزمون بوعي بالدولة وقوانينها » . انه ينظر الى روما القديمة بوصفها امة ، الأمة الوحيدة قبل عصر بدايات الرأسمالية .

من الملاحظ بخاصة انه يُضمّن عنصر « الدولة » في تعريفه ، في حين انه قد بين بنفسه ان مفهوم الأمة قد صيغ وتشكل لكي يعين حقيقة واقعة لا يعبر عنها اصطلاح « دولة » . وهذا يعني اعتبار (ويقول ذلك صراحة) بولونيا وبوهيميا ما قبل ١٩١٨ أمماً غير كاملة . ونجد هنا توافقاً ، كما رأينا ، مع الاستنباطات التي يمكن استجراؤها منطقياً من تعريف ستالين ، وان تكن مخالفة للامثلة التي جاء بها .

ان مقابلة أفكار موس مع أفكار ستالين والماركسيين السوفيات تبين لنا جيداً ما هو هام في الجهود النظري الذي بذله الاخرون وما ينبغي ان يُستبقى منه . ان ما ينبغي الاحتفاظ به من هذا الجهود هو محاولتهم ان يحددوا تحديداً دقيقاً المقولات التي تعاقبت خلال تطور اشكال الجماعات البشرية الشمولية الكلية وربط هذه المقولات وهذا التطور بمقولات وتطور التكوينات الاقتصادية – الاجتماعية . ان العشيرة هي محور من محاور هذا التطور . والامة هي محور آخر من محاوره . ما ينبغي ان يُحتفظ به من دراساتهم هو مجهودهم لأجل تبين الحقيقة الواقعة لهذه المفاهيم ؛ وكذلك لتبيان انه اذا كانت وحدة

(١) ومع ذلك فهو يلح (ص ٢٥) على أهمية الوحدة الاقتصادية للأمة وعلى (ص ٤٧) الدور الحاسم للسوق الرأسمالية .

(جدلية ، تناقض) هذه الحقيقة الواقعة تنطوي بالضرورة على عناصر مثالية وبسيكولوجية ، إلا ان أساسها قائم على حقائق واقعة مادية ؛ ولتبيان أنه لا يمكن ، كما يقول بعض المنظرين غير الماركسيين ، لهذا الأساس ان يُقصر او يُرَدَّ ، من حيث النتيجة ، الى عنصر إرادي ، الى ارادة العيش المشترك.

يتعين علينا ان نتأمل الوقائع في تطورها . ثمة تكوينات^١ لجماعات شمولية كلية ، تناظر وتقابل مجتمعات طبقية ما قبل رأسمالية وتمثل ضرباً من وحدة في الأرض واللغة والثقافة ، تنزع الى ان تتأسس في وحدات أكثر تلاحماً واتساقاً مع تطور ونمو الانتاج الرأسمالي . من الممكن ، اذا شئنا ، ان نحفظ مع ستالين باسم « الأمة » لنطلقه على تكوينات هذه الوحدات التي اكتمل اتساقها وتلاحمها عبر تكوّن سوق قومية واحدة. إلا ان لهذه « الأمم » التي بلغت حالة اكتمال الكثير من السمات المشتركة مع الأقوام التي لم تبلغ تماماً الوحدة الاقتصادية وبخاصة عندما تكون العقبات السياسية (اضطهاد ، تجزئة بالقوة) هي التي تقف في وجه خلق سوق قومية ، ولها الكثير من السمات المشتركة مع جماعات تشكل في اطارها سوق^٢ قومية واحدة ، ولكنها تفتقر الى بعض عناصر الوحدة : اللغة ، الخ .

إذن فالأمة هي نواصل وامتداد وتوزيع لتكوينات اجتماعية شمولية كلية أخرى . لم تولد فرنسا في ١٤ تموز ١٧٩٠ ، ولا الجزائر في الفاتح من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥٤ . واضح^٣ هو عبثُ جهود^٤ كالتى يبذلها بعض العلماء السوفييات في محاولة للتمييز « نوعياً » بين ارض النارودونوست وارض الأمة ، بين الصلات الاقتصادية القائمة في مرحلة ما قبل الأمة و « جامعة الحياة الاقتصادية » في المرحلة القومية^(١) . اننا نرى هنا مجهوداً منافياً للديالكتيك

(١) ما كاروف وكومنسكي وآخرون نقدم بحق بوتيكين في مقاله : « تكوين جماعات البانتو القومية في جنوب افريقيا » . (باللغة الروسية) ، موسكو ، ١٩٥٥ ، ص ١٧٧ . راجع عرضي لهذا المؤلف في مجلة : « الحضور الافريقي » . شباط - آذار ١٩٥٧ ، ص ١٦٦ - ١٧٠ .

لحفر هوة بين ما قبل الأمة pré - nation والأمة . ومن الواضح أيضاً كم هو 'مرض' قليلاً ، مثلاً لتبرير وجود بيّن لسكائن فرنسي قبل الأمة الفرنسية للعصر الرأسمالي ، ولتفسير تفتح هذه الأمة بسبب من « عناصر قومية » « تكونت ببطء منذ القرون الوسطى » ^(١) . هذه العناصر القومية التي لا يوجد البتة ما يفسر تضافرها هي تحايل لفظي يتيح التهرب من فكرة جماعة فرنسية ما قبل رأسمالية اكتسبت رويداً رويداً وتدريجياً تلاحماً نسبياً .

الوطنية قبل الأمة

ان أمة مكوّنة توقظ لدى أفرادها شعوراً قومياً . فاذا اضطهدوا او نغصّوا صاغوا مطالب قومية . ولكن من الملاحظ ان ثمة رود فعل من نفس النوع قبل وجود الأمة ، الأمة بالمعنى الذي ذكرناه . كيف تُفسر هذه الواقعة ؟

هنا يُطرح تمييز في غاية الأهمية . من الممكن أن توجد في كل مجتمع مطالبة بالحقوق الفردية بشتى أنواعها : حقوق سياسية ، حق المساواة القانونية ، الخ ، ومطالبة تقاوم كل تمييزٍ تُعامل به جماعة ما . وتلك كانت كما يبدو الحقوق التي طالب بها (على نحو لا يُحسُّ به) رعايا الامبراطورية الرومانية والتي منحت لهم عبر سلسلة من التدابير بلغت ذروتها في مرسوم كاراكالا عام ٢١٢م . وتلك كانت الحقوق التي طالب بها الجزائريون من الاصل العربي - البربري (عدا أقلية صغيرة) قبل الحرب العالمية الثانية . وتلك كانت الحقوق التي طالب بها في الامبراطورية العربية في مطلع العصور الوسطى الافراد من أصل غير عربي الذين كان يشكلون ما سمي بالحزب الشعوبي (الشعبوية) .

وأبعد من هذه ، يمكن ان توجد مطالبة بحقوق قومية . ربما كان من

(١) ج. دس . ويلورد : « تكون الأمة الفرنسية » ، باريس ، المنشورات الاجتماعية ،

الاناسب هنا استعمال كلمة اقوامية، كلفظة جديدة اقترحت وتمتاز بكونها لا توحى بصلة وثيقة مع الأمة في شكلها الاكثر اكتمالاً، في تعريف ستالين او موس . ونعني بالحقوق الأقوامية الحقوق التي تتيح لجماعة ما ان تواصل حياة خاصة، خصوصية، مستقلة استقلالاً مقصوراً (استقلال ذاتي على هذه الدرجة او تلك من الاتساع) او مستقلة استقلالاً كاملاً (استقلال بالمعنى الحقيقي للكلمة) ، وأن يكون لها مؤسساتها الخاصة ، وأن يكون لها الحق في تطوير عناصرها الثقافية الخصوصية : العادات والتقاليد بشق أنوعها ، الدين، اللغة. وهذا ما كانت تطالب به بوضوح عناصر القوميات الخاضعة في الامبراطورية النمساوية - المجرية وفي روسيا القيصرية قبل عام ١٩١٤ ، وهذا ما تطالب به معظم البلدان المستعمرة حالياً .

ان المطالبة بالحقوق الفردية والثورة ضد كل انواع التمييز وضد كل اضطهاد لم تكونا ابدأ شيئاً اوتوماتيكياً ، غير انها قد وجدت في شتى مراحل التطور الاجتماعي . ان الطموح الى الحفاظ على اشكال الحياة المشتركة والمطالب الاقوامية، اذا كان من الممكن لها ان تظهر في كل العصور ، كذلك يمكن ألا تظهر إلا ضمن بعض الشروط . ان هذا الغياب ، غياب رود فعل تبديها الجماعة تتصف به بخاصة الوحدات الاجتماعية الأقل تلاحماً والأقل قوة . عندما تكون عوامل الصهر في وحدة اكبر قوية جداً ، وعندما تكون قوى التطور الاجتماعي كلها تلعب دورها مع هذا الاتجاه ، يمكن للجماعات الصغيرة ان تنقاد الى هذا الحد او ذاك بل ان تطمح الى فقدان فرديتها . وفي هذه الحالة تخلق بصورة عامة عملية تناقضية ومعقدة يكتمل الصهر في مآلها . وثمة امثلة لا بأس بعددها على ذلك في تاريخ البلدان العربية . ولكن هذه العملية تشكل كل تاريخ صهر العشائر وتحويلها الى قبائل ، وتحويل القبائل الى « شعوب » او نارونوست . في بلاد الغال ، حدث بعد رد الفعل الاقوامي العنيف الذي مثله « فيرسا نجيكتوريكس » صهر ، طوعي إجمالاً ، للغالين في البوتقة الرومانية . ان عملية الصهر في الامبراطورية الرومانية كانت

بالتأكيد تناقضية ومعقدة ، وينبغي التمييز بين البلدان التي كانت ردود فعلها متباينة ومختلفة جداً . ولكن بصورة اجمالية فإن النزوع الى الوحدة قد لعب دوره الى اقصى حد ممكن ، وهذا ما يبرر بيت الشعر الذي قاله « روتيلوس ناما ثيانوس » :

من شعوب مختلفة كوَّنتَ وطناً واحداً
وما كان عالماً صنعت منه دولة واحدة

من الطبيعي ان يكون عصر الرأسمالية هو العصر الذي شهد أقوى النوازع والميول الوحودية الموحدة . كتب لينين : « ان التطور الاقتصادي في المجتمع الرأسمالي جعلنا نشهد في العالم كله أمثلة عن حركات قومية لم تتطور تطوراً كاملاً ، وأمثلة عن قيام أمم كبرى من خلال صهر او على حساب بعض أمم صغيرة ، وأمثلة عن عمليات تمثُّل أمم ... ان من لم يفرق في الاحكام المسبقة القومية لا يمكنه ان لا يرى في هذه العملية ، عملية صهر الرأسمالية للأمم ، تقدماً تاريخياً هائلاً يدمر الرتبة القومية لختلف الاصقاع النائية ، وبخاصة في البلدان المتأخرة كروسيا مثلاً » .

بيد ان كل محاولة للصهر عبر أساليب العنف ، وكل محاولة تُفرض من فوق ، وبخاصة عندما تترافق مع رفض المتمثُّل التخلي عن امتيازاته بالنسبة للمتمثُّل ، إنما تصطدم عموماً بمعارضة كثيراً ما تنتهي بمفاقمة وتشديد التخالف . وأمثلة ذلك كثيرة في التاريخ ، وبخاصة الأمثلة التي تقدمها السياسة القيصريّة لروسة الأقليات بالإكراه .

ان الحركات التي يمكن ان نسميها « وطنية » بالمعنى الأوسع للكلمة هي حركات قائمة في كل الازمان . وهي موجهة ضد كل محاولة للتذويب بالقوة . لا بد للجماعة المهددة بوجودها الخاص ان تمتلك وحدة عظيمة لكي ترد رداً شديداً . في هذه اللحظة ، يمكن لجميع عوامل الوحدة ان تلعب دوراً كبيراً . فنرى عشائر منفصلة تملك فقط لغة مشتركة (او لهجات أصلها واحد على الأقل) وعادات وتقاليدها متشابهة قد تستشعر فجأة بأنه قد اخترقها عصف الوحدة

امام التهديد المشترك الذي يواجهها. ولقد حدث مثل هذا الامر في عدد كبير من البلدان في مواجهة الغزاة. طبعي ان الانفصال والتفكك السابقين يتابعان ايضاً لعب دور ما . فبرى فئات من تلك العشائر تتحالف مع الاجني ضد فئات من ذوي قرباها ، والحديث عن تحالفات تلك العشائر ومقارنتها بـ « التعاون مع العدو » الذي عرفناه خلال الحرب العالمية الثانية ينطوي على مغالطة تاريخية . لقد رفض البلجيكيون واللغونيون والريميون ان يتبعوا فيرسانجيتوريكس . ولولا المساعدة النشيطة التي أبداها أهالي تلاكسكالتيك ما كان ممكناً لكورتز البتة ان يُخضع مكسيكو. ورأى عبدالقادر الجزائري نفسه مضطراً الى ان يكرس كثيراً من قواه للنضال ضد الجمعية التيجانية ومعتقها عين مدّية .

ان خلق دولة قوية ، عندما تكون حدود هذه الدولة متطابقة مع حدود مناطق طبيعية ، ووجود ولغات وأديان وأعراف مشتركة تلعب ، منذ عهود سحيقة ، دوراً أساسياً في تقوية النوازع الوحدوية . ان مصر ربما كانت احدى بلدان العصور القديمة التي كانت الروح الوطنية فيها على أقوى وأوضح ما تكون . وبنفس المعنى فاننا نعرف ايضاً دور الملكيات الاقطاعية في العصور الوسطى (فرنسا ، انكلترا) حيث اخذت ترتسم منذ ذلك الحين البدايات الاولى للسوق القومية التي قُدِّر لها ان تخلق البورجوازية التجارية . كما انهم قد أشاروا ايضاً الى دور الملكية الفيينتنامية . ومن هنا نفهم نفور المؤرخ الفيينتنامي « داو ديبّ آنه » من النظرة التي تعتبر ، كما يرى شينو ، ردود الفعل الفيينتنامية القديمة ضد الغزاة الصينيين « كظواهرات تأتي بها المناسبات لضرب من نزعة المحافظة على خصوصيات محلية ... والتعبير عن بعض طموحات فردية » ^(١) . وكذلك الامر فان الامة الفرنسية لا يمكن ان تتخلى عن « جان دارك » او « آلان شارتيه » .

(١) مجلة « الفكر » ، العدد ٧٣ ، أيار - حزيران ١٩٥٧ ، ص ٥٣ - ٦٤ .

موقف الحركة الاشتراكية

إذن فثمة تطلعات ومطالب أقوامية قبل الأمة . في الحقبة المعاصرة كان موقف الحركة الاشتراكية الدولية من هذه التطلعات ينطوي على تلاوين وفروق دقيقة. لقد أشاروا مراراً الى ريبة ماركس وانجلز إزاء بعض الحركات القومية . ولقد رأينا قبلاً بيانات للنين رجّعها ورددها ستالين . لقد كان موقفهم ينطوي على عنصر تكتيكي وآخر نظري .

والحقيقة ان بعض الحركات في بعض جماعات قومية تعمل في سبيل استقلالها الذاتي قد 'خلقت' او استخدمت من قبل عناصر ظالمة لمساعدتها على السيطرة على جماعات اوسع وأكبر وعلى أمم في طور التكوّن تمثل خطراً شديداً على سلطانها . والجماعات المدعومة لهذه الغاية من قبل الفئات المهيمنة كانت بوجه عام جماعات تعيش في مرحلة اجتماعية أكثر قدماً وعتاقة بكثير، وكانوا يقدرّون ان من الاسهل السيطرة عليها بواسطة بعض من القادة يغدقون عليهم التثريف والمال . وعلى هذا النحو كانوا يحافظون بصورة مصطنعة على النزعات الاقليمية التي هي في سبيلها الى الزوال ، وهي نزعات لا تسبب اضراراً ولا تقيم عقبات بالنسبة للمهيمنين . كانت هذه هي السياسة التقليدية للحكومات الاستعمارية . هذا ما فعله الانكليز في الهند ، كما ان الفرنسيين قد أثاروا النزعات الاقليمية والنعرات الطائفية بين الاقليات في فيتنام ، وبين الدروز والعرب في سوريا ، والبربر في شمال افريقيا . وفي عام ١٨٤٨ ، استخدمت اسرة « هابسبورغ » الاقليات السلافية ضد الثورات المجرية التي كانت اشد خطراً على المدى المباشر .

وعلى الدوام ، كان استراتيجيو الحركات الاشتراكية الأممية حذرين إزاء نزعات قومية من هذا الطراز . ولكنهم كانوا يدعمون المطالب الاقوامية للجماعات الكبيرة والمطالب القومية للأمم التي تعيش طور التكوّن باعتبار ان تحررها سيكون خطوة الى الامام بالنسبة للبشرية بأسرها . فهدم النظام

الذي يضطهدها سيتيح لها ملء التطور الاقتصادي والاجتماعي ، وسيكون هذا في نفس الوقت مساعدة لحركة تحرر البروليتاريا في البلدان المهيمنة .
وفي كل الأحوال فان الحركة الاشتراكية الدولية هي ، من الناحية المبدئية ، مع التوسيع الاكثر اكتمالاً لكل الحقوق الفردية ومع إلغاء شتى أصناف التمييز ومع « الديمقراطية الاكثر اكتمالاً » ، كما قال لينين .
من الواضح كيف ان نظرة اكثر تاريخية واكثر دقة وتلويحاً للوقائع ، في المنظور الماركسي ، يمكن ان تسمح بتجاوز بعض الاتجاهات وحيدة الجانب التي شجعتها صلابة تعريف ستالين معزولاً عن سياقه ، والتي كان لبعضها نتائج سياسية مشؤومة . والامر كذلك بالنسبة الى الاتجاه الذي لا يرى عمق الجذور التاريخية لأمة العصر الرأسمالي ^(١) ، والاتجاه المعاكس الذي يرى هذه الجذور على صورة عناصر منعزلة التي يبقى تضافرها أمراً مُلغِزاً والتي يتيح افتقارها الى التلاحم والاتساق المجال لسائر الشعوذات ، وكذلك الاتجاه الذي يرفض تقديم الدعم الى حركة ذات مطالب أقومية لشعوب لم تصل الى مرحلة الأمة . ولا ينبغي كذلك ، كرد فعل ، ان تُسَقَط الى ماضٍ بعيد جداً الامة الرأسمالية التي تكونت تكويناً ، لان هذا يملّصها من طابعها البرجوازي الذي اكد عليه بحق « م . كافينغ » . ان هذا يعني بناء نزعة قومية خالصة غير مبررة سوسيولوجياً .

أمم المستعمرات

ثمّة اعتبار عام له أهمية بالغة في دراسة المشكلات العربية . في البلدان التي وجدت نفسها خاضعة للسيطرة الاستعمارية (الكولونيلية) ، كانت عملية تكوين

(١) ان آراء ج. كافينغ التي نشرها في مجلة : « طرق جديدة » ، العدد ١ ، نيسان ١٩٥٨ ، ص ٣-٧ ، التي تنزع الى المطابقة بين الأمة والتكوين formation الاقتصادي الاجتماعي الرأسمالي ، هذه الآراء يمكن ان تذهب في هذا الاتجاه وتجعل انتقال الأمة الرأسمالية الى الأمة الاشتراكية أمراً غير قابل للتفسير .

الأمم مختلفة غاية الاختلاف عن العملية التي جرت في أوروبا^(١) . ففي بعض البلدان المتقدمة جداً ، في الشرق الأقصى بخاصة ، كانت برجوازية صاعدة قد استطاعت من قبل ان تهيب لتوحيد المقاطعات الإقطاعية ولخلق سوق قومية ولتكوين امة حقيقية . وعلى العكس فإن ثمة بلداناً متأخرة جداً كانت تعيش في المرحلة القبلية . وقد كان للنظام الاستعماري تأثيراً متناقضاً على التطور الجاري . ولقد بذل عامداً وسعه لكبح ذلك التطور لكي يحافظ على السلفية ونزعة المحافظة على الخصوصيات الاقليمية اللتين تسهلان استمرار هيمنته . غير انه كان مجبراً بسبب طبيعته نفسها على إدخال العلاقات الرأسمالية التي كان لها مفعولاً مدمراً جداً على البنى العتيقة . ان الاطر التي فرضها النظام الاستعماري والتي تنزع الى تكوين وحدات اقتصادية يمكن ان تعارض (كما كانت عليه الحال في أوروبا بالنسبة للدولة متعددة القوميات ، كالامبراطورية النمساوية - المجرية والامبراطورية الروسية) النوازع القائمة من قبل ، نوازع الوحدة على اساس تشكيلات الجماعات السابقة (شعب ، نارودنوست) التي تكونت او تتكون وفقاً لاعتبارات وحدة الارض واللغة والثقافة . غير ان هذه الاطر يمكن ان تغطي بصورة تقريبية بعضاً من هذه التشكيلات الجاري تكوينها . ويحدث في هذه الحال تسارع في عملية تكوين الوحدة القومية يجري في الغالب رغم رغبات السلطة الكولونيالية . ان هاتين الحالتين قد ظهرتا في البلدان العربية ، وآمل ان ابينها في مناسبة اخرى . تلك وقائع تنبغي دراستها عن قرب قدر الإمكان متخلصين من العقدة الكولونيالية (ويمكن فهمها من الناحية الانسانية ، غير انها ضارة من الناحية العلمية) التي ترفض كل دور تقدمي ، وإن كان غير متعمد ولا إرادي ، للاستعمار .

(١) ثمة إشارات حول هذا الموضوع ، كتبها جان شينو في مجلة « الفكر » ، العدد ٧٣ ، ايار - حزيران ١٩٥٧ ، ص ٦٠ - ٦٤ ، وفي مجلة « النقد الجديد » ، العدد ٧٧ ، تموز - آب ١٩٥٦ ، ص ٦٣ - ٦٤ . وكذلك في مقال لمكسيم رودنسون في مجلة « الحضور الافريقي » شباط - آذار ١٩٥٧ ، ص ١٦٦ - ١٧٠ ، (وقد استشهد بالناقشات السوفياتية) .

القسم الثاني

الماركسيّة

والقوميّة العربيّة والوحدة العربيّة

الأمة العربية، الوحدة العربية (*) الأمبريالية، الثورة الاشتراكية

بقلم الياس مرقص

- ١ -

لقد تكونت الأمة العربية خلال تاريخ طويل .
إن بعض بذور هذا التكوّن تعود الى ما قبل الاسلام . نقصد ، من جهة ،
الوحدة العريقة لشعوب المنطقة وتراثها المادي والثقافي المعروف بالسامي ،
ومن جهة اخرى ، يقظة الشعور القومي التي ظهرت لدى قبائل جزيرة العرب
وامتدادها الشمالي ضد غزو الفرس (في معركة ذي قار) او ضد خطر الاحباش .
وبهذا الصدد نودّ ان نشير الى ان النقطتين السالفتين لا تنبعان من منظور
قومي او عرقي او جغرافي او سيكولوجي لتاريخ العرب والعالم ، بل إنّنا
نجدّهما واضحتين في رسائل تبادلها ماركس وأنجاز في عام ١٨٥٣ وتطرقا فيها
الى تاريخ العرب وثورة محمد الدينية وعرضا فيها للمرة الاولى المقولة الماركسية
المعروفة باسم الاسلوب الآسيوي او الاسلوب الشرقي للإنتاج (١) . ليس هنا

(*) محاضرة أُلقيت في نادي خريجي الجامعة العربية في بيروت مساء ٢٤ / ١٢ / ١٩٧٠ .

(١) نقلت هذه الرسائل في كتابي : الماركسية والشرق ، دار الطليعة ، ١٩٦٨ .

المجال لتقديم هذه المقولة . يكفي ان نذكر هنا ان هذه المقولة تؤكد ان تاريخ الشرق ليس تاريخ الغرب ، وإنه اذا كان ممكناً تلخيص تاريخ الغرب في نظرية صراع وتعاقب أنظمة الرق والفيودالية والرأسمالية كأنظمة اقتصادية اجتماعية كاملة، فإن الأمر يختلف جذرياً بالنسبة لمجتمعات الشرق ^(١) . ونود ان نشير ايضاً الى ان انجلاز والمستشرق الفرنسي الماركسي المعاصر ، مكسيم رودنسون ^(٢) ، يربطان ظهور الاسلام في القرن السابع الميلادي (بين عدة امور) بظروف ما يمكن تسميته مسألة الهيمنة العالمية . فالحقوتان العالميتان آنذاك - فارس وبيزنطية (او فارس ، وبيزنطية ومعها الحبشة) - كانتا تتصارعان للهيمنة على هذه المنطقة المركزية من العالم ، وبالتحديد تسعيان للسيطرة على جزيرة العرب . فخطوط التجارة العالمية والاقتصاد العالمي تمرّ عبر المشرق العربي : الطرق البرية (العراق - سوريا الشمالية - فالبحر المتوسط) ، والطريق البحري (اليمن - البحر الاحمر - مصر) . ولقد تقاعست او فشلت اليمن المتقدمة في تحقيق المهمة المطلوبة او الممكنة ألا وهي توحيد جزيرة العرب لضمات سيادتها على نفسها وتحقيق سيادتها على الجوار وردّ الحكم الاجنبي البيزنطي والفارسي عن المنطقة . ولا ريب ان من أهم اسباب الفشل انقسام اليمن ايدولوجياً أي دينياً بين مسيحية ويهودية وقدتا اليها من الخارج ولعلهما أفسدتا طبقاً للظروف المحلية . وقد انطلقت المهمة المذكورة من عرب الشمال ، من الحجاز . ولم تلبث ان قامت الدولة العربية الاسلامية الكبرى ، أي ان الزعامة والهيمنة في المنطقة المركزية بين الشرق الاقصى والغرب ، آلتا الى العرب ، لردح طويل من الزمن ^(٣) .

(١) ونضيف ان هذه المقولة الشرقية تفسح للمعطيات الجغرافية (قاعدة الانتاج) والسلاية والسيكولوجية مجالاً آخر غير الذي يفسحه او لا يفسحه مفهوم ماركسي دارج .

(٢) انظر كتابه: محمد، بالفرنسية Seuil ، سلسلة Politique ، بشكل خاص ص ٧٤ وبعدها .

(٣) لكل الفترة ما قبل البرجوازية من التاريخ العالمي .

بالطبع، حين نتحدث - في صدد تلك الحقبة الماضية والبعيدة من التاريخ - عن اقتصاد عالمي وهيمنة عالمية ، فإننا لا نعطي هذه الصفة العالمية سوى معنى نسبي محدود . ان حجم التجارة العالمية في زمن كسرى وهرقل او حتى في زمن الممالك لا يقاس بحجم التجارة العالمية في زمن الاستعمار الاوروي والانقلاب الصناعي ، بله في زمن الامبريالية ^(١) ولئن كنا نحصر - رغم ذلك - على تسجيل هذه الصفة العالمية في التاريخ ، وبالأحرى في تاريخنا ، فلكي نؤكد نقطتين : النقطة الاولى - ويمكن ان نسميها نظرية او منهجية - وهي ان التاريخ الواقعي ليس تاريخ مجتمع تجريدي ، ليس تاريخ قطر او منطقة او شعب او أمة مجردة ، ليس تاريخ مجتمع وحيد ينتقل بفعل تقدم ادوات الانتاج من نظام اقتصادي - اجتماعي الى نظام اقتصادي - اجتماعي آخر، أرقى . بتعبير آخر : ثمة فرق بين التاريخ و « نظريته » ، بين الواقع و « مفهومه » ، بين العالم و « المجتمع » . العالم هو مجموعة مجتمعات ، مجموعة شعوب وأمم وأقطار الخ ^(٢) . النقطة الثانية هي ان موضوع الوحدة والتجزئة قد ارتبط ، على طول خط التاريخ، وبشكل واضح في القرن الميلادي السابع بموضوع الهيمنة العالمية لدول كبرى وقوى اجنبية كبرى . ومرة اخرى برز هذا الارتباط ، عسكرياً ، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر في ايام

(١) وأياً كانت الفوائد الحقيقية التي جناها العرب من سيادتهم التجارية طيلة هذه « العصور الوسطى » ، فان هيمنتهم هذه لم تكن هيمنة بالمعنى الحديث ، تقرر سير الاقتصاد والتطور في قطبي العالم ، لدى الهنود والصينيين والاوروبيين . والسلع العالمية كانت سلماً هامشية .

(٢) بالطبع ، يمكن القول ان الصفة العالمية هي صفة الطور الرأسمالي من التاريخ (هذا الطور هو طور الرأسمالية - و - الاستعمار) ، وهي تتخذ مداها الكامل في المرحلة الاخيرة - الامبريالية - من الطور المذكور . ولكننا نقول ذلك بالمقارنة مع الطور السابق او الاطوار السابقة للرأسمالية . بتعبير آخر ، ان الصفة العالمية ليست غائبة من هذه الاطوار السابقة : بدونها تبقى حقائق اساسية، بل اساسية في نظرية التاريخ الماركسية (العلاقة بين نظام الرق والامبراطورية الرومانية ، العلاقة بين الفيورالية الغربية وغزو الجرمان وظهور وامتداد الاسلام) بدون تعليل كاف .

الحروب مع الصليبيين ومع المغول والرد العربي بقيادة الايوبيين والمماليك .
لقد ذكرنا ان بعض بذور التكوّن التاريخي القومي للعرب تعود الى ما
قبل الاسلام، وقلنا ان هذا التأكيد ليس هرطقة قومية او عرقية او جغرافية .
فالاشارات العابرة التي وردت على لسان مؤسسيّ الاشتراكية العلمية تدفعنا
الى تأكيد هذا القيدّم . ونضيف ان كتب التاريخ المدرّسة في مدارس الاتحاد
السوفياتي او في بلدان اوروبا الشرقية تذهب اليوم في اتجاه إرجاع بدايات
التكوّن القومي ، اي بدايات اللغة القومية والملاحم النفسية - القومية
والاستقرار في أرض قومية محدّدة ومعلومة ، لدى الروس والبولونيين
والرومانيين وغيرهم من الشعوب ، الى أزمنة قديمة . في الماركسية الصاحية ،
إن الأمم ، الأمم بالمعنى الحديث والكامل - الفرنسيين ، الانكليز ، الالمان ،
الخ - تلازم صعود البرجوازية ومجتمعها وأقول الاقطاعية والتجزؤ الاقطاعي ؛
ولكن عدداً من عناصر التكوّن القومي الأكثر عمقاً تبدأ قبل ذلك . وتاريخ
تكوّن أمم غربي اوروبا لا يُسحب سحباً على تاريخ تكوّن أمم شرقي
اوروبا .



نستطيع الآن ان نعود الى موضوع الانطلاق - لقد تكوّنت الأمة
العربية خلال تاريخ طويل - لنؤكد (بعد الملاحظات الآتية) ان القسم
الاكبر والاكثر حسماً في هذا التكوّن التاريخي الطويل هو التكوّن التاريخي
لحقة ما بعد الاسلام . فالأمة العربية ليست امتداداً في الزمان لأمة سامية
عامة غير موجودة، وليست تمّدداً في المكان لمعين قُرشي أصلي . إن أبناءها
- نيف ومئة مليون من البشر - « ينتسبون الى عدنان وغسّان » في اللغة ،
وبالباقي (الانتاج والثقافة) لا « ينبع » من اللغة . الموقف المعاكس هو نفي
لوجود تقدّم حقيقي ، للنمو بمعنى développement ، بما يتضمنه هذا المفهوم
الفلسفي من تغيير في طبيعة الشيء . والحال ، اذا كان ممكناً ان نشك في
وجود التقدم development العربي بمعنى التحول الاقتصادي - الاجتماعي

على النمط الاوروبي او الغربي اي من مجتمع رق الى مجتمع فيودالي فالى مجتمع برجوازي ، فإنه من غير الممكن أن نشك في ان هناك تقدماً طويلاً وراسخاً في مضمار الأمة كأمة . إن حركة الاستعرا ب التاريخي شملت ملايين من الناس في العراق وبلاد الشام ومصر وبلدان المغرب العربي الخ ، وقد ظلت مستمرة في مختلف عصور الازدهار والانحطاط ، بل الارجح انها استمدت دفعاً جديداً من الاستعمار وآلية استثماره الاقتصادي الحديث (١) .

هذا فيما يتعلق بموضوع الامة العربية : لقد أفضى التطور الى تكون قومي واحد ، من حيث الجوهر ، للبلدان المعروفة باسم البلدان العربية . ولكن كيف يظهر موضوع الوحدة العربية — لا سيما الوحدة السياسية العربية ، الدولة العربية — عبر هذا التاريخ الطويل الممتد من عهد الفتح الاسلامي حتى زمن الاستعمار الغربي ؟



اولاً — أقام العرب الفاتحون دولة كبرى ، ظلوا حكامها لردح من الزمن. غير ان هذه الدولة العربية — الاسلامية قد تحطت حدود الأمة العربية السائرة في تكون تاريخي طويل ، إذ شملت بالاضافة الى الشعوب والاقوام التي دخلت في حركة الاستعرا ب التاريخي ، شعوباً أخرى أهمها الفرس . بينما كان الاسلام عاملَ استعرا ب كبيراً في غربي الدولة (شمالى — افريقيا) ، كان في شرقي الدولة وعلى تخومها الشرقية أداة تكون نهائي لامم اسلامية غير العرب ، للفرس والاثراك وبعض انسابهم .

ثانياً — انتقلت مراكز الحكم الى الاطراف الشرقية ، الى بغداد ، ثم الى بغداد والري وأصفهان، وخرجت الولايات العربية الافريقية من الدولة العربية، وتحولت الدولة العربية في المشرق الى دولة عربية — فارسية — تركية .

(١) مثلاً ، في مراکش ، في المنشآت الاقتصادية الفرنسية (كلناجم) ، تراجمت الألسن البربرية أمام اللسان العربي في صفوف العمال الوافدين الى هذه المنشآت من مناطق وقبائل مختلفة .

ثالثاً - انقسمت هذه الدولة الى دول ودويلات ، واتخذ الانقسام شكله الحاد في سوريا .

رابعاً - في ظروف التناثر السوري وفي ظروف الانقسام بين الخلافتين العباسية والفاطمية ، وصل الصليبيون وأقاموا دولهم على طول الساحل السوري - الفلسطيني . ثم جاء المغول . وكادت المنطقة أن تُسحق نهائياً تحت الحلف العالمي المغولي - الصليبي .

خامساً - في حقبة الصراع مع الصليبيين ، انتقل مركز الثقل السياسي للامة العربية بشكل واضح الى مصر . وظهر محور مصري - سوري بقيادة الايوبيين ثم المماليك ، أمّن الصمود والنصر على الصليبيين وعلى المغول . وقد استمرّ هذا المحور حتى الفتح العثماني في اوائل القرن السادس عشر . وظل العرب - وبشكل خاص مصر المملوكية - اسياد التجارة العالمية حتى القرن الخامس عشر .

سادساً - إن تدهور العرب الاقتصادي والحضاري - بعد قرون من تدهورهم السياسي - يبدأ او يستفحل سريعاً مع إغراق الاسطول المصري على يد البرتغاليين عند شواطئ الهند ومع الدوران حول رأس الرجاء الصالح واكتشاف قارة اميركا. بينما تدخل اوربا الغربية في طور الصعود البرجوازي العظيم ، ، يدخل العرب في طور انحطاطهم الاكبر : هلاك التجارة ، خراب الانتاج الزراعي ، انخفاض مطّرد في الثروة القومية ، انخفاض مطّرد في عدد السكان ، استحكام التقوقع الاجتماعي ، وتراجع العقل .



كيف تظهر العلاقة بين الأمة العربية وبين الوحدة العربية والدولة العربية خلال هذا التاريخ ؟

إن الوجود القومي العربي قد ارتكز على تشابه قديم في اسلوب الانتاج والملامح النفسية - الثقافية واللغات وتحقق على أساس لغة محددة قديمة وثابتة ، هي اللغة العربية ، لغة قريش .

هذه اللغة ، تاريخها اللاحق الوحيد هو تاريخها الخارجي ، أي تاريخ انتشارها و صيرورتها لغة عشرات الملايين من البشر ، لغة لاقتصادهم وثقافتهم وعلاقاتهم وحياتهم ، أي تاريخ صيرورتها لغة قومية . أما تاريخها الداخلي — أي تاريخ تكوينها كلغة ، تاريخ نشوء مفرداتها الاساسية وقواعدها — فهو يرجع الى ما قبل التاريخ المعلوم. تلك ليست مثلاً حال اللغة الفرنسية والأمة الفرنسية . بين مجتمع الرق الغالي — الروماني وفرنسا القرن السادس عشر ، نستطيع ان نتتبع تاريخ تكوين اللغة الفرنسية بدءاً من اللاتينية العامية عبر اللغات الاقليمية في العصر الوسيط وصولاً الى انتصار لغة Ile - de - France وتحوّلها الى لغة قومية ، ونتتبع هذا التكوّن ليس فقط من حيث هو تكوين لغة قومية — أي من حيث هو انتصار لسان اقليم على ألسن اقليمية اخرى — بل ايضاً من حيث هو تكوين اللغة كلغة — كمفردات اساسية وقواعد — وإذا كانت تاريخ اللغة الفرنسية الداخلي — تاريخ تكوين المفردات والقواعد — انطلاقاً من اللاتينية ليس له ارتباط محدد بتاريخ اسلوب الانتاج ، أي بتعاقب وتصارع تشكيلات الرق والفيودالية والبرجوازية ، فإن الارتباط واضح بما فيه الكفاية بين تاريخ اللغة الخارجي وهذا التاريخ الاقتصادي — الاجتماعي . ان سير التوحيد اللغوي لفرنسا بين القرن الثاني عشر والقرن السادس عشر (وبعده) يواكب سير التوحيد الاقتصادي البرجوازي ، سير تقدم اسلوب الانتاج البرجوازي على حساب المجتمع الاقطاعي . إلا انه من الخطأ والسذاجة ان نفهم هذا السير في شكل آلية اقتصادية يكون فيها الاقتصاد سبباً محضاً سبب ، ويكون فيه الباقي نتيجة محض نتيجة . نريد ان نذكر بشكل خاص الأهمية الفاعلة للعنصر السياسي ، للدولة ، لوجود ونمو المملكة القومية الاقطاعية الفرنسية خلال تلك القرون مدعومة من الطبقة البرجوازية ومن الاكليروس الادنى ، والمضامين والنتائج والظروف الايديولوجية لهذه التطورات : ان القضاء على حركة Catarrhes - Albigeois الدينية في الجنوب ، قد سهل تداعي لغة OC ، لغة الجنوب ، وسير التوحيد اللغوي والقومي لفرنسا .

هذه العوامل غير الاقتصادية ، extra - économiques - الدولة ،
الايدولوجيا - التي لا تنسب الى مقولة الأساس الاقتصادي - الاجتماعي
الى مقولة علاقات الانتاج (والتي تظهر عوامل فاعلة في المثال الفرنسي ،
وهو المثال الاكثر كلاسيكية من وجهة نظر الماركسية ، من وجهة نظر النظرية
العامة لتطور المجتمعات بما في ذلك نشوء الأمم) إنما تظهر بشكل أقوى في
أمثلة اخرى ، في تاريخ الالمان والروس ، وبالأحرى في تاريخ العرب .

ان تاريخ نشوء وتكوّن الأمة العربية يبقى شيئاً عصياً على الفهم اذا لم
نضع العنصر السياسي (الدولة) والعنصر الايدولوجي (الدين) في مكان
الصدارة . لولا الاسلام والقرآن حافظ اللغة ، ولولا الدولة العربية - الاسلامية
الاولى وبقاء الطابع العربي للحكم قروناً طويلة بعد انقسام هذه الدولة الواحدة
لما كان لدينا اليوم امة عربية ممتدة من الخليج الى المحيط . تلك عناصر لا
تنحل في مقولة الاقتصاد . ومن العبث - من غير المجدي على صعيد تلمس
تاريخ الامم ومصيرها - ان نعتبر الاقتصاد سبباً ، محض سبب ، والدولة
والايدولوجيا نتيجة محض نتيجة . ومن العبث ان نقول ان الأمة تخلق الدولة
القومية ، وإن الدولة القومية لا تنشئ الأمة . ان التاريخ ، تاريخ الغرب
وتاريخ الشرق ، تاريخ الفرنسيين والالمان والروس والعرب والترك الخ يخطئ
هذه النظرة الاحادية الجانب ، يخطئها بدرجات متفاوتة ولكنه يخطئها دائماً .
هذه النظرة الخاطئة تدعى الدوغمائية . وقوام الدوغمائية الخلط بين الواقع
والمفهوم ، تدوين الواقع في مفهومه التجريدي . ومفهومه التجريدي هو
مفهوم « اقتصادي » (١) .

في النظرية الماركسية - عند ماركس وأنجلز ولينين ، وأيضاً عند كاوتسكي
وآخرين - الأمة ترتكز على اللغة والأرض . ولينين - استناداً الى ماركس

(١) سواء اعتبرنا ان الاقتصاد هو علم علاقات الانتاج (الطبقات) ، او اعتبرنا انه علم
اسلوب الانتاج (قوى الانتاج وعلاقات الانتاج) .

وأنجلز وكاوتسكي — يدعو النظرية الماركسية للأمة نظرية تاريخية — اقتصادية معارضة بذلك للنظرية السيكولوجية — الثقافية . هذا الاجتماع البشري — الأمة — له تاريخ ، انه نتيجة تكوين . وهذا الاجتماع البشري قائم من اجل الانتاج ^(١) . وانقسامه الطبقي حاصل حول الناتج القومي الواحد ، حول الدخل القومي الواحد . ولكن لا يخطر في بال لينين ان يضع تعريفاً مطلقاً للأمة يجمع اللغة والارض والتكوين النفسي — الثقافي والاقتصاد المشترك ، وأن يسقط بموجبه صفة الأمة في حال فقدان إحدى هذه العلامات الأربع .

إن أمة من الأمم يمكن ان 'تجزأ' سياسياً واقتصادياً دون ان تفقد بالضرورة صفتها كأمة . تلك هي حال بولونيا في القرن التاسع عشر . ووجود الأمة البولونية يتجلى في الحركة القومية البولونية الهادفة بالضبط الى اعادة السيادة والوحدة . فالدولة القومية البولونية المنشودة ليست نتيجة لاقتصاد بولوني مشترك غير موجود ، بل هي هدف للحركة القومية البولونية . هذا الهدف تقف وراءه ضرورة تاريخية ، ولنقل انها الضرورة الاقتصادية . والفرق كبير بين الامرين . الضرورة الاقتصادية — وحاجات التقدم بشكل عام — جرى وعيها على نحو ما ، حتى ولو على نحو يكتنفه قسط لا بأس به من التزييف . والوعي هنا يسبق الواقع ويرشده ويحدد هدف عمل تاريخي . إن الوحدة الاقتصادية تأتي بعد قيام الدولة البولونية ، وأياً كان التزييف القومي ^(٢) والمثالي الذي اشرنا اليه ، فانه يبقى أدنى من التزييف الآخر ، التزييف الذي

(١) شأنه في ذلك شأن الاجتماع الاول — العشيرة (والقبيلة) . القبيلة والأمة هما قطبا الاجتماع . بين القطبين ، احتمالات كثيرة . داخل الاجتماع ، الطبقات .

(٢) التزييف القومي : « رفض » صراع الطبقات ، تصور وتصوير الامور وكأن تحقيق الامة في دولتها القومية هو تحقيق الفردوس ونهاية التاريخ . ولكن حتى هذا التزييف التي تقوم به « الحركة القومية » يمكن ان نقول عنه — بشكل ما والى حد ما — ما يقوله أنجلز ولينين بصدد « الحركة الفلاحية » وأوهامها : يمكن التمييز بين ما هو صائب من وجهة النظر العلمية الاقتصادية القطعية الشكلية وبين ما هو صائب من وجهة النظر التاريخية الكونية الشاملة .

يتصور ان على بولونيا القرن التاسع عشر ان تحقق اولاً التكامل الاقتصادي والوحدة الاقتصادية كشرط لقيام وحدتها السياسية ، لقيام دولتها القومية . هذا التصور لم يقع فيه القوميون البولونيون ولم يقع فيه — على حد علمنا — أحد من الماركسيين . ولكن الماركسيين وقعوا في هذا التزييف الاقتصادي في نظرتهم الى موضوع الوحدة العربية في القرن العشرين . ويعزز طابع التزييف كونه يحصل في زمن الامبريالية وعلاقاتها وسياساتها . بتعبير آخر ، وضع الماركسيون مسألة الوحدة العربية حين ايدوها ، على ارضية التطور الاقتصادي « الداخلي » للعرب ، بدلاً من ان يضعوها على ارضية الامبريالية والعلاقات العالمية .



ما هي المواقف التي ظهرت ازاء مسألة الوحدة العربية ، من لدى الماركسيين او دعاة الماركسية ؟

هناك اولاً موقف رفض ، بوجه الاجمال ، هذا الموقف لا ينكر وجود روابط قومية للعرب ، اي وجود قواسم مشتركة قومية للشعوب العربية . ولكن هذه الروابط القومية والقواسم المشتركة لا تجعل من هذه الشعوب أمة واحدة . وعلى هذا الاساس ، تُرفض الوحدة العربية او تهمل (تُنزل الى مستوى تعزيز العلاقات بين الشعوب العربية) . هكذا نقرأ عند مرسيل ايجرتو وجاك كولان ^(١) انه تكوّنت لدى شعوب الشرق الأدنى او لدى شعوب العالم العربي مصالح قومية مختلفة نتيجة التطور الحديث . رداً على هذا المنطق ، نقول مباشرة : ان هذا التطور الحديث تطور امبريالي ، تطور بقيادة الامبريالية وفي اتجاه مصالحها . ونقرأ عند ستاروشنكو ^(٢) أن التاريخ قد

Marcel Egretaud : « Réalité de la nation algérienne » .

(١)

Jacques Couland : « Eveil du monde arabe » .

Starouchenko : « Le principe de l'autodétermination des nations » .

(٢)

عرف ويعرف تكونّ امم مختلفة تنبع من اصل قومي ولعوي واحد : تلك هي حال الانكليز وأمير كيي الشمال ، والنرويج والدانمارك ، والأمم العربية اليوم . هذا ، او هذا ايضاً ، لا نعارضه كلياً . ولكننا نشير الى ان تكونّ ما يسميه ستاروشنكو وآخرون ^(١) الامم العربية انما يحصل منذ زمن غير قصير تحت سلطة الامبريالية ، وفي اطارها ، وان الحركة القومية العربية ، هذه القوة الذاتية العربية الموجودة في الواقع الموضوعي، تعارض هذا التكوّن.

وبالطبع ، لم نذكر موقف الرفض المطلق للوحدة العربية وفكرة القومية العربية المتضمن في نظرية الأمة الجزائرية الآخذة في النشوء والتكوّن ، وهي النظرية التي صاغها وأعلنها مورييس توريز في عام ١٩٣٩ ونقلها وعمّمها خالد بكداش في السنة ذاتها في شكل امم عربية آخذة في التكوّن . والحال ، ان هذا الموقف الاخير يتصل بالموقف السابق : فالأمم العربية المعنية الآخذة في التكوّن في العصر الحديث على اساس الاقتصاد الحديث ، وما حمله من تكونّ الروابط القومية الحديثة لكل قطر وتراجع الروابط القبلية والعشيرية والدينية والمذهبية في القطر . نحن هنا ايضاً لا نعارض بقولنا « لا » ، لا « رفض » هذا الرفض . بل نقول : هذا التكوّن القطري هو بأحد المعاني تقدم . انه شيء حديث . ولكن هذا الحديث هو ايضاً زمن الامبريالية وعلاقاتها . وان هذا التكوّن القومي - القطري ، حتى من حيث هو كذلك ، يبقى ناقصاً وملغوماً . الروابط ما قبل الحديثة - القبلية والعشيرية والدينية والمذهبية ، الخ - تراجعت الى حد فقط ، ثم تكيّفت وتأقلمت مع « عصر النهضة » اي مع عصر الامبريالية . « الأمة » القطرية ناقصة كأمة قطرية . والاساس العام التاريخي - الاقتصادي لذلك هو : ان « مرحلة الرأسمالية الصاعدة » في

(١) مثلاً جورج حنا في كتابه « تصويب مفهوم القومية العربية » ، ١٩٥٩ : أمم انجلو سكسونية مختلفة تنتسب الى قومية انجلو سكسونية واحدة ، وأمم لاتينية اميركية مختلفة تنتسب الى قومية لاتينية اميركية واحدة، وعلى غرارها امم عربية مختلفة تنتسب الى قومية عربية واحدة.

شرقنا هي جزء من مرحلة الامبريالية العالمية (صعودها واستفحالها وأزمتها ، واستمرار الصعود والاستفحال بعد بداية الازمة ، اي بعد قيام ثورة او كتوبر وتقدم الثورة الاشتراكية وانحسار رقعة الامبريالية) .

هناك ثانياً موقف قبول ، موقف تأييد للوحدة العربية . وهو الموقف الذي أعلنه شيوعيو سوريا ولبنان في عام ١٩٥٦ . غير ان هذا الموقف كان قوامه توخّي او انتظار الوحدة العربية من التطور الاقتصادي الموضوعي للاقطار العربية التي نالت الاستقلال ، من تطور ونمو الاقتصاد العربي المستقل ، من التصنيع ونمو التكامل الاقتصادي العربي . أما النضال ضد الامبريالية فقد أنزل الى مستوى نضال ضد المشاريع والاحلاف الاستعمارية . وسير النضال الشعبي والممارسة الانسانية قد مُسَخ وُسْطِر بين تطور موضوعي طبيعي يَحْتَمّ الوحدة العربية وبين رغبة او ارادة لا فاعلية لها ^(١) .

منذ نيف وعشر سنوات ، بدأنا صياغة منظور آخر قوامه وضع مسألة التجزئة العربية والوحدة العربية على أرض الامبريالية مفهوماً وواقعاً اقتصادياً وسياسة . ولم يلبث ان تبين لنا اننا في هذا العمل نعيد الصلة المقطوعة مع موقف قديم ظهر عند شيوعيين الكومنترن في زمن لينين وبشكل أوضح في سنوات ١٩٢٨ - ١٩٣١ ^(٢) ، ومع عناصر تفكير وحدوي لدى بعض من خيرة شيوعيين المشرق العربي في حقبة مختلفة .

هذا عن « الفكر الماركسي » . ولا بد من كلمة عن « الفكر القومي العربي » . يمكن ان نلخص هذا الفكر في الاستدلال الآتي : العرب أمة

(١) قصدنا بشكل خاص قرارات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري اللبناني الصادرة في ١٩٥٦ بعنوان « تحت آفاق جديدة » ، بعد قليل ، صدرت وثائق عراقية ثم مصرية افضل بدرجة ما .

(٢) انظر بهذا الصدد ترجمتنا « الأمية الشيوعية والثورة العربية » ، دار الحقيقة ، ١٩٧٠ ، المقدمة والوثيقة الاولى) .

واحدة إذن يجب ان يؤلفوا دولة واحدة . هذا الفكر القومي نظّر عفوية الجماهير العربية ، ولكنه بالحقيقة ظل قاصراً عنها . ان حركة الجماهير حتى العفوية تمثل الى حد كبير ديناميكية الواقع الصراعى ، ديناميكية التاريخ . وهي إذن منفحة للنمو والتقدم تحت سلطة حاجات الممارسة ^(١) . اما « النظرية القومية » فهي تجميد وقتل لقابلية النمو ^(٢) .

كيف نضع إذن مسألة الوحدة العربية ؟

- ٢ -

١ - لقد تدفقت الدول الاستعمارية الاوروبية على البلاد العربية في عصر الرأسمالية التجارية وخصوصاً في عصر الرأسمالية الصناعية والمالية . استفادت من تخلف بنيانها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، ومن تفككها وضعفها البشري والعسكري ، فسلّطت عليها احتلالها العسكري وتحكّمها السياسي واستعمارها السكاني واستغلاها الاقتصادي المتنوع الاشكال .

وكان أحد الوجوه الرئيسية لهذه العملية التاريخية ربط اقتصاد كل بلد عربي باقتصاد الدولة المستعمرة ، بتحويله الى اقتصاد كولونيالى تابع يصدر اليها الخامات ويستورد منها المصنوعات ، وبذلك عززت الدول الاستعمارية استغلاها وتسلسلها عاماً بعد عام بتعميقها الجذور الاقتصادية للتجزئة العربية . كانت التجزئة العربية سابقاً ، قبل الفتح الاستعماري ، تتصل بأسلوب الانتاج البدائي وعلاقات الانتاج البدائية وشبه الاقطاعية (وما يقال عن فواصل البيئة الجغرافية وضعف وسائل المواصلات الخ ... يدخل في نطاق

(١) من الجلي ان تجربة وحدة ١٩٥٨ وانفصال ١٩٦١ وما بعده دفعت وعي الجماهير الجنيني الى أمام ، نحو إدراك او تحسس موضوع الامبريالية ومساائل وعلاقات وقوى الانتاج وصراع الطبقات ، اي في اتجاه اللينينية .

(٢) ساطع الحصري ، في كتاب « الاقليمية » ، ١٩٦٣ ، خطأ خطوة الى الامام . ولكنه في هذه الخطوة وراء الجماهير . سنعود الى « الفكر القومي » في مكان لاحق .

اسلوب الانتاج المذكور) ، فأصبحت بعد الفتح الاستعماري ترتبط بالدرجة الاولى وعلى نحو متزايد بعلاقات عصر الامبريالية — العلاقات الخارجية للدول العربية ، والعلاقات الداخلية التي أنشأتها الامبريالية داخل كل قطر عربي — واتخذ البنيان الاقتصادي والاجتماعي السابق والمتحوّل مكانه في إطار هذه العلاقات الامبريالية .

ومن هنا يمكن القول :

**ان تعميق التجزئة العربية هو القانون الموضوعي لعصر الامبريالية ،
اي القانون الموضوعي لعمل الامبريالية في الوطن العربي .**

ان الفكر القومي العربي التقليدي قد ركّز على سير التقسيم السياسي للبلاد العربية . فالاستعمار الفرنسي والانكليزي هو الذي جزّأ بلاد الشام الى اربع دول ، هو الذي سطرّ الحدود بين العراق وسوريا ، وبين سوريا ولبنان ... وقد جنح الفكر القومي نحو تعميم هذا المثال ، أنكر وجود كيانات وأقطار سابقة للفتح الاستعماري ، ساوى بين الكيان المصري والكيان السوري عبر التاريخ ، ساوى بين الاقطار في الأمة العربية الرمادية اللون ، خلط بين فكرة الكيان وفكرة الحدود (اذا كانت حدود جمهورية لبنان او الحدود السورية — العراقية مصطنعة ، استنتج من هذه الحقيقة ان اي حديث عن تمايز سوري ، عراقي ، لبناني ، حديث باطل من الاساس) ، أقّم مفهوم الطبيعي في معارضة مفهوم مصطنع الخ ...

هذا من جهة . ومن جهة ثانية ، اكد الفكر القومي ، متمثلاً في رائده الاعظم ، ان مصيبة العرب انهم خضعوا لاستعمار دول مختلفة هي فرنسا وبريطانيا واطاليا واسبانيا ، بعكس اندونيسيا التي خضعت لاستعمار دولة واحدة هي هولندا ، وهذا ما يفسر استمرار التجزئة بعد الاستقلال في الجامعة العربية وزوالها او عدم وجودها في الحالة الاندونيسية . هنا ايضاً ، الناحية السياسية التي هي استحوزت النظر . إن ساطع الحصري لم يَرِ اذن ان اقطار المغرب الثلاث — تونس والجزائر ومراكش — قد خضعت لاستعمار

فرنسي واحد وأن التجزئة ليست اليوم بين مرا كاش الفرنسية والريف الاسباني بل بين الاقطار الكبرى الثلاثة التي كانت تحت حكم فرنسا الواحدة . لم يرَ ساطع الحصري على وجه التحديد ان العلاقات الاقتصادية فيما بين الدول المغربية الثلاث تكاد تكون ، في زمن الحكم الفرنسي وبعده (في سنة ١٩٦٣ ، سنة صدور كتاب الحصري « الافليمية ») ، قريبة من الصفر .

إن الفكر القومي العربي لم يرَ آلية التجزئة الاقتصادية للوطن العربي ، الآلية الاقتصادية لتعمق الانفصال بين قطر عربي وآخر ، بحكم التكوين الكولونيالي المتأثر لاقتصاد مختلف الاقطار ، كجزء لا يتجزأ في عملية ربط كل قطر عربي على حدة والوطن العربي جملة ، باقتصاد الدولة المستعمرة والعالم المستعمر الصناعي المتقدم .

والحال ، لو كان عمل الاستعمار الغربي في مضمار التجزئة محصوراً في تسطير حدود ، في رفع اعلام مختلفة اجنبية ثم عربية ، في البلقنة بهذا المعنى ، لكانت المصيبة . بتعبير آخر : إن اكبر عيوب الفكر القومي أنه قاصر عن موضوع الامبريالية وعلاقاتها ، علاقاتها الاقتصادية بالدرجة الاولى .

بالطبع ، من السذاجة ان نطرح مسألة وجود التجزئة العربية في شكل ثنائية تفرض ان نختار بين القول ان التجزئة العربية سابقة لدخول الاستعمار وبين القول انها لاحقة لهذا الدخول . اجل انها سابقة . ولكن ليس هذا هو جوهر الموضوع . وثمة عيب في الطرح نفسه . انه موقف غير جدلي وغير تاريخي ان نطرح مسألة التجزئة او اي شيء آخر في اطار مفهوم الوجود او الكينونة Etre ، بل يجب ان نطرح المسألة في اطار مفهوم الصيرورة devenir ، والنمو développement . التجزئة صائرة ومتنامية في عصر الامبريالية بأشكال شتى .

ان تعميق التجزئة العربية هو القانون الموضوعي لعصر الامبريالية ، اي القانون الموضوعي لعمل الامبريالية في الوطن العربي بأشكال شتى ، اقتصادية اولاً وسياسية وسواها ثانياً .

٢ - هل خرجنا اليوم من تحت سلطة هذا القانون بعد ان حصلنا على الاستقلال السياسي ، بل وبعد ان حققنا في عدد من الدول العربية عدداً من التحويلات الاجتماعية والاقتصادية التحررية الجديدة ؟

ان الارقام تبين لنا ان حصة العالم العربي في مجمل تجارة كل بلد عربي ليست ضعيفة وحسب ، بوجه الاجمال ، بل هي آخذة في التدهور ، بوجه الاجمال ، وبسرعة كبيرة . ذلك هو الاتجاه العام الذي نلاحظه بالنسبة لسوريا والعراق والاردن والسعودية . ويرتبط هذا التدهور الى حد كبير بالتزايد المطرد في حصة احدى الخامات في الصادرات (القطن في سوريا ، البترول في العراق والسعودية ، الفوسفات في الاردن) .

ان حصة العالم العربي من مجموع التجارة الخارجية للقطر السوري قد انخفضت بين اواسط الخمسينات وأواسط الستينات من ٣٥ - ٤٠٪ الى ٣٠ - ٣٥٪ للصادرات ومن ٢٠ - ٢٥٪ الى ١٢ - ١٧٪ للواردات . في الحقبة ذاتها، ارتفعت حصة القطن في مجموع صادرات سوريا حتى بلغت حوالي ٥٠٪ . ويتضافر هذا العامل مع عامل آخر هو حاجات التنمية والتصنيع الى استيراد الآلات والتجهيزات والخدمات .

ان حصة العالم العربي من مجموع التجارة الخارجية للاردن قد انخفضت بين ١٩٥٣ و ١٩٦٥ من ٨٩٪ الى ٦٨٪ للصادرات ومن ٢٦٪ الى ١٨٪ للواردات ، في الوقت الذي ارتفع فيه انتاج الفوسفات الذي اصبح يشكل ٣١٪ من مجموع صادرات الاردن في ١٩٦٥ .

والاتجاه نفسه يلاحظ بالنسبة للعراق والسعودية (١) .

الاستثناء الوحيد هو مصر حيث بقيت حصة العالم العربي من تجارة مصر على حالها في الحقبة المعنية (وهي حوالي ٧٪) ، رغم انخفاض أصاب حصة

(١) محمد القاري، مزيداً من التفاصيل في كتابنا « الماركسية في عصرنا » ، دار الطليعة ، الطبعة الثانية ، ص ٣٤٨ - ٣٥٥ .

القطن في مجموع الصادرات ورغم التقدم الصناعي الحقيقي .
يمكن تلخيص وضع العلاقات الاقتصادية بين البلاد العربية في النقاط
الآتية :

- أ) ان العلاقات الاقتصادية بين المشرق والمغرب معدومة .
ب) ان العلاقات الاقتصادية فيما بين دول المغرب شبه معدومة (بين ١
و ٥ ٪ من مجموع التجارة العالمية لكل دولة) .
ج) في المشرق ، العلاقات قوية بين سوريا ولبنان والاردن ، اي بين دول
ثلاث كانت في الامس القريب بلداً واحداً .
د) فيما عدا ذلك ، اي اذا نظرنا الى العلاقات بين بلاد الشام — مصر —
العراق — السعودية — اليمن — السودان ، وجدنا ان الحالة متقدمة بعض الشيء
على ما هي عليه في المغرب (بين ٤ و ١٠ ٪ من مجموع التجارة العالمية لكل
دولة) .

هـ) الاتجاه الى التدهور ظاهر وواضح في اكثر الحالات ، رغم بعض
الجهود المعاكسة . والجدير بالاشارة ان اتفاقية السوق العربية المشتركة تحاول
ان تمنع هذا التدهور . وبالنسبة لسوريا مثلاً ، فقد استطاعت ان تحدّ من
وتيرة التدهور ، اي من سرعته ، ولكنها لم تستطع ان توقفه بله ان
تقلب السير .

هذا فيما يتعلق بالكم ، اما فيما يتعلق بالكيف ، فان احداً لا يستطيع ان
يقول ان البضائع التي يجري تبادلها في ما بين الدول العربية هي أعظم شأنًا
وحيوية من البضائع التي يجري تبادلها بين الدول العربية والعالم الخارجي :
الآلات والتجهيزات مقابل المواد الاولية .

هناك من يفكر بأن هذا السير الانحداري للعلاقات الاقتصادية بين العرب
سينقلب او سوف ينقلب الى سير صاعد ، بنتيجة تقدم الدول العربية في
طريق التصنيع .

ولكن هل تتقدم الدول العربية التقدمية في طريق التصنيع اكثر مما تتقدم الدول الصناعية المتقدمة الاشتراكية والرأسمالية ؟
ان من يعلّق الأمل على ذلك المستقبل ، إنما يراهن على غدٍ ينطوي على مجهولات كثيرة .

اما الحقيقة التي نملكها او هي نملكنا فهي هذا الضعف الراهن في العلاقات الاقتصادية بين الدول العربية ، وهي هذا التدهور الذي لاحظناه في الفترة المنصرمة .

والحقيقة التي نستطيع ان نستشرفها للمستقبل القريب هي استمرار هذا التدهور نتيجة طلب او نداء السوق العالمية المتزايد للخامات العربية (البترول والقطن والمعادن والفوسفات) ، ونتيجة متطلبات برامج التنمية التقدمية التي نحكمها او تحكمنا في ظروف التخلف وفي ظروف موقفنا التاريخي والسياسي الراهن (القطري ، الاقليمي) .

ان عوامل التباعد والتناثر في الوطن العربي تفعل فعلها اليوم وعلى نحو متزايد في الاقتصاد العربي. ان السير الراهن هو سير تبلور الكيانات العربية على نحو متزايد .

٣ - منذ نيف وعشرة أعوام نالت غالبية دول افريقيا استقلالها . وغمرت البشرَ وبعضَ المفكرين والقادة السياسيين موجةٌ من التفاؤل : ان عصر الاستعمار قد ولّى ؛ لقد تحرّرت جميع الشعوب او تقريباً ، وانفتحت أمامها صفحة جديدة ... ثم ذهب التفاؤل . وتواتر الحديث عن « الاستعمار الجديد » في « القارات الثلاث » ، في بلدان « العالم الثالث » . لن ندخل في لعبة المصطلحات ، سنكتفي بطرح مسألة الاستغلال الامبريالي للشعوب ، في شكل بسيط ومباشر .

لنقل : هناك استغلال داخلي ، داخل أمة واحدة او قطر واحد ، استغلال تمارسه طبقة على طبقة داخل المجتمع الواحد . وهناك استغلال خارجي - او

إذا شئت أفقي (في مقابل الاستغلال الآنف ، الشاقولي) - يمارسه قطر على قطر او امة على امة او مجتمع على مجتمع داخل العالم الواقعي الواحد .

هذا الاستغلال العالمي - القومي هل انتهى ؟ الجواب انه استفحل ويستفحل بصورة أكيدة وراسخة ، بعد زوال ما يسمى الاستعمار القديم . أشكال هذا الاستغلال كثيرة: هناك الشركات الاجنبية التي تسيطر على البترول وغيره ، هناك تصدير الرساميل ، والمشاركة الخ ... وهناك آلية التجارة العالمية ، آلية البيع والشراء بأسعار محددة وميزان هذه الاسعار . نصل إذن الى ما يُعرف اليوم باسم تدهور حدود التبادل او شروط التبادل او اسعار التبادل .

حدود التبادل هي ، حسب تعريف هيئة الأمم المتحدة : « النسبة بين قيمة الوحدة للصادرات وقيمة الوحدة للواردات » . هذه الحدود آخذة في التدهور ضد صالح البلدان المتخلفة مصدرة مواد الاساس ولصالح البلدان الصناعية المتقدمة مصدرة المصنوعات .

لن نطيل في شرح هذه الظاهرة . إن مؤلفات بيار جاله، إيف لاکوست، فارغا ، وغيرها من المؤلفات الاقتصادية المترجمة الى اللغة العربية تعرضها بشكل واف معتمدة في عرضها على الاحصاءات الصادرة عن هيئة الأمم المتحدة .

ما هي اسباب التدهور في اسعار الخامات بالمقارنة مع اسعار المصنوعات؟ هناك اسباب كثيرة . ولكن أياً كان تنوع الاسباب واتصاله بتنوع السلع المعنية ، فمن البدهي ان ميزان الاسعار في السوق العالمية يحدده ميزان القوى في التجارة العالمية . وفي ميزان القوى ، التجزؤ والتناثر والتبعثر عامل كبير من عوامل الضعف . إن التجزئة العربية وزن كبير في الكفة الامبريالية من الميزان . والتجزئة العربية حالة خاصة في تناثر العالم الثالث . ان الدراسة الاحصائية للتجارة العالمية تبين ان بلدان العالم الثالث تتاجر

اكثر فأكثر مع بلدان المعسكر الامبريالي، وأقل فأقل فيما بينها . وهذا السير ذاته هو جزء من تزايد التبعية .

والدراسة الاحصائية لتجارة الوطن العربي « الداخلية » والخارجية تبين ان الوطن العربي يتاجر اقل فأقل فيما بينه وأكثر فأكثر مع العالم الخارجي . في هذه التجارة مع الخارج حدثت تغيرات ايجابية: نمت حصة العالم الاشتراكي في تجارة البلدان العربية التقدمية (والاخرى) . ولكنه لم يحدث تطور ايجابي في العلاقات الداخلية للوطن العربي . حدث العكس . بالطبع نحن في صدد مقارنة الارقام النسبية (النسب المئوية) باعتبار انها معيار الاجتماع والتناثر .

ويمكن ان نلخص ما سبق في القانون الآتي :

اولاً : إن تدهور حدود التبادل هو التعبير الكمي الرياضي عن تزايد استغلال العالم الثالث ..

ثانياً : ان التدهور النسبي للمبادلات الاقتصادية بين الشعوب العربية هو التعبير الكمي الرياضي عن سير تعمق التجزئة العربية، عن سير تبلور « الأمم » العربية القطرية .

ثالثاً : هناك ارتباط اكيد بين البندين السابقين . واستراتيجية الامبريالية العالمية الرامية الى تعميق و « تطوير » وتخليد التجزئة العربية هي جزء مميز من استراتيجية الامبريالية العالمية في تعميق و « تطوير » وتخليد هيمنتها المتنوعة الاشكال في عالم اليوم .

والوجه السياسي لتطور احداث الحقبة التاريخية المنصرمة يُظهر النتيجة نفسها : إن احباط الامبريالية الاميركية وحلفائها وعملائها للوحدة العربية فتح طور انتكاسات كبيرة لحركة تحرر الشعوب وطور أزمة متنوعة في الثورة الاشتراكية العالمية بمختلف قطاعاتها .

٤ — ولكن السؤال الذي يطرح نفسه بصورة طبيعية هو: كيف تتحقق الوحدة العربية ما دام التكامل الاقتصادي بين العرب غير متوفر ؟

بالحقيقة ، يجب ان نطرح اولاً السؤال المعاكس :
كيف يتحقق التكامل الاقتصادي العربي بدون الوحدة العربية ؟
والحقيقة اننا ها هنا نواجه حلقة مفرغة : لا وحدة بدون تكامل ، ولا
تكامل بدون وحدة . والتجزئة تغذي التجزئة .
والحلقات المفرغة التي تخنق البلدان المتخلفة الطامحة الى النمو ، كثيرة
لا يحيلها أحد .

أكتفي بالاشارة الى اكثرها شهرة وانتشاراً وهي حلقة الفقر وتزايد السكان.
واسمحوا لي ان أقول ان الحل الثوري في معالجة هذه الحلقة الاخيرة
يتوجه ، بالدرجة الاولى ، لا على سبيل الحصر ، الى الضرب في الشطر الاول:
الفقر ، اي قضايا الانتاج وعلاقات الانتاج ، الاقتصاد والمجتمع والسياسة .
كذلك ، على ما أعتقد ، فان الحل الثوري في معالجة الحلقة المفرغة للتجزئة
واللاتكامل الاقتصادي يجب ان يتوجه بالدرجة الاولى ، لا على سبيل الحصر ،
الى الضرب في الشطر الاول ، في التجزئة بشكل مباشر .
فالمسألة مسألة وعي وارادة وهدف ، مسألة سياسية . فالسياسة تكثيف
للاقتصاد ، تكثيفه الحاسم ، في زمن التغيير الثوري ، ونحن في زمن
تغيير ثوري .

هذه « الثورة العربية » ضرورة وحتمية . ولكنها ضرورة جري وعيها
وفهمها . كذلك مهمتها المركزية : الوحدة العربية .
هل يعني ما نقوله بصدد العلاقة بين الوحدة السياسية والوحدة الاقتصادية
إهمال او معارضة اجراءات الوحدة الاقتصادية ؟
كلا ! بالعكس . يجب ان نحدد معنى المصطلحات حتى لا تفرّ الحقائق
من أيدينا .

إن اعتراضنا ليس بأي حال على الاجراءات الرامية الى تنمية التبادل
الاقتصادي بين اقتصادات الدول العربية . اعتراضنا ، بل اعتراضنا المطلق
هو على نظرية التطور الاقتصادي الموضوعي ، على النظرية التي تتوخى الوحدة

العربية (السياسية والاقتصادية ، او الاقتصادية والسياسية) ، النظرية التي تنتظر التوحيد القومي للعرب من سير التطور الاقتصادي الموضوعي التقدمي سواء كان هذا التطور هو التطور الاقتصادي الرأسمالي الوطني المزعوم او كان البناء الاقتصادي الاشتراكي التحرري شبه المزعوم (١) .

تستطيع كل دولة عربية تقدمية ان تحقق مزيداً من التأميم ومزيداً من التصنيع والائتماء ومن التحولات (المحدودة) الداخلية لصالح الطبقات الكادحة (ونصف - الكادحة) . ولكنها لن تصل بذلك ، لا بعد عشر سنوات ، ولا بعد خمسين سنة ، الى وحدة عربية . العالم الراهن ، الامبريالية ، طلب السوق العالمية للبترول العربي والقطن العربي والخامات العربية ، طلب برامج التنمية في الاقطار العربية التقدمية ونصف التقدمية والرجعية على الآلات والتجهيزات والخدمات والمواد الغذائية ، هذا كله يحتم حصول نتيجة أخرى هي التجزئة ، هي تبلور الكيانات القطرية ، هي تفرّع الأمة العربية الى « امم » ناطقة باللغة العربية (وربما « مؤمنة » بالوحدة العربية) .

لن نتقدم في طريق الوحدة إلا اذا كانت الوحدة هدفاً للعمل ، اي اذا وضعنا الوحدة في مكان الصدارة من وعينا. بتعبير آخر ، ثمة فرق بين مفهوم التكامل الاقتصادي الموضوعي التلقائي ومفهوم اجراءات اقتصادية وحدوية . الاجراءات الاقتصادية الوحدوية تدخل في ما يسميه الماركسيون «السياسة» ، عنصر الوعي ، العنصر الذاتي ، العمل الواعي للبشر والقيادات . وفي نظرنا ، ليست الاجراءات الاقتصادية الوحدوية هي الشيء الاكثر حسماً ، والشيء الأهم يمكن في « السياسة » ، في العمل الثوري .

ومن البدهي ان وحدة تفتقر الى قسط كبير من « شروطها الموضوعية »

(١) النظرية الاولى سقطت تحت وطأة الممارسة ، ممارسة صراع العرب والامبريالية ، وقد أسهمنا في اسقاطها . النظرية الثانية لا تزال قائمة : ابنو الاقطار التقدمية ، الوحدة في نهاية الطريق ، ملحقه ...

(الاقتصاد ، التكامل الاقتصادي ، وجود مراكز صناعية وافية ، وربما الاتصال الجغرافي) ، هذه الوحدة تحتاج الى أقصى ما يمكن من الوعي ، أقصى ما يمكن من الوعي والتنظيم . هذا الدرس نستخلصه من تجربة الوحدة السورية — المصرية السابقة ...

ونستخلصه أيضاً من تجربة الثورية الروسية بقيادة لينين . حيث هناك نقص ، نقص كبير ، في الشروط الموضوعية للتحويل المطلوب ، تتضاعف مسألة الوعي أضعافاً .

بل يمكن القول : هناك دائماً ، في التحولات الثورية ، نقص في الشروط الموضوعية ، بدرجات متفاوتة ، بأشكال شتى . والوعي يسبق موضوعه . ولكن تلك كانت الحال بشكل بارز في الثورة الروسية ، في الثورة الصينية . تلك هي الحال في الثورة العربية وفي مهمتها المحورية : الوحدة القومية .

هـ — ما دمنّا في صدد الوعي ، علينا ان نطرح مسألة القيادة ، وأولاً مسألة القيادة الطبقيّة ، للوحدة العربية .

لقد ذكرنا ان الاتجاه الغالب لدى ماركسي المشرق العربي في ١٩٥٦ ، اي حين تعاطفوا مع فكرة الوحدة العربية ، كان توخّي هذه الوحدة من التطور الاقتصادي الرأسمالي المتحرر ، اي انهم سلموا بقيادتها للطبقة البورجوازية . غير ان فريقاً من الماركسيين الجدد لم يلبث — بعد ان قمنا بتنفيذ المنظور السابق — ان أعرب عن رغبته في عدم تسليم هذه القيادة للبورجوازية ولا « للبورجوازية الصغيرة » وقياداتها وجيوشها . تلك رغبة . ولم تلبث هذه الرغبة ان أسفرت في الواقع العملي التطبيقي عن إلقاء مهمة الوحدة في سلة المهمات ، وانتهت بسرعة فائقة الى موقف تخريبي أدى فوراً الى انعزال هذه الفئات المتعددة الاسماء والادوار والتي تطبّل لها وتزمر كبريات صحف العالم الغربي انعزالاً كاملاً عن الطبقة العاملة والفلاحين ، عن الجماهير الكادحة ، عن الشعب ، عن الامة .

ماذا قلنا ونقول ضد هذا المنطق الذي يرجىء الوحدة العربية الى ما بعد ظهور قيادة البروليتاريا للشعب ؟

على صعيد نظري عام ، على صعيد النظرة الى تاريخ الوحدات القومية ، وضد آراء الماركسيين القدامى اليمينية البرجوازية سواء بسواء ، قلنا ونقول : أ) ان الوحدات القومية في تاريخ أمم أوروبا كانت جزءاً من الثورة البرجوازية ، او من التطور البرجوازي .

كانت جزءاً الى جانب اجزاء اخرى . لو لم يؤخذ هذا الجزء كهدف للعمل ، لما تحقق هذا الجزء ولانتكست ايضاً الاجزاء الاخرى .

ب) ان الوحدة القومية العربية ، في عصر الامبريالية والثورة الاشتراكية العالمية ، هي جزء لا يتجزأ من الثورة الاشتراكية . واذا لم يؤخذ هذا الجزء كهدف للعمل ، فان هذا الجزء لن يتحقق ، والأجزاء الاخرى ستنتكس هي ايضاً . بدون الوحدة العربية ليس ثمة ثورة اشتراكية عربية ، اي ليس ثمة ثورة اشتراكية عالمية في الوطن العربي .

جـ) ان الوحدات القومية الأوروبية كانت جزءاً من الثورة البرجوازية او التطورات والتحويلات البرجوازية . ولكنها لم تكن بأي حال - لا في فرنسا وانكلترا وهولندا ، ولا بالأحرى في المانيا واسبانيا بله في روسيا القيصرية ، جزءاً اخيراً ، « تنويجاً » ، خاتمة لهذه الثورات البرجوازية . بالعكس ، إن هذا الجزء هو سلسلة حلقات تقع في آخر التطور البرجوازي ، وتقع في وسطه ، وتقع في أوله ، والى حد ما وأحياناً الى حد كبير تقع قبل التطور البرجوازي .

الماركسوي - الطبقي - الاقتصادي يفكر (اذا خطر له ان يفكر بمثل هذه الامور) : إن الوحدة الالمانية تأخرت عن الوحدة الفرنسية لان المانيا كانت متأخرة عن فرنسا من زاوية التطور الاقتصادي الاجتماعي الطبقي البرجوازي . ونحن نقول : هذا صحيح . ولكن خذ في اعتبارك ايضاً ان التطور الاقتصادي الاجتماعي الطبقي البرجوازي تأخر في المانيا عنه في فرنسا

لأن الوحدة الألمانية تأخرت وتأخرت كثيراً في ألمانيا عنها في فرنسا . في فرنسا ، إن الدولة الملكية الاقطاعية الفرنسية الواحدة ، رغم نواقصها الاقطاعية الكبيرة ، كانت ، طيلة قرون ، إطاراً ملائماً للتطور الاقتصادي الاجتماعي السياسي الفرنسي ، إطاراً لم يكن متوفراً لشعب ألمانيا . وعدم وجود مملكة اقطاعية واحدة للامان خلال قرون ليس مردّه التطور الاقتصادي الداخلي وحده بل التطور الاقتصادي العالمي والسياسة العالمية ، سياسة وحروب الدول الأجنبية في ألمانيا . ولكي تدرك تماماً خطأ نظرتك الاقتصادية – الطباقية الى التاريخ ، تذكر ان إيطاليا كانت بين القرن الثالث عشر والقرن الخامس عشر متقدمة على فرنسا من الناحية الاقتصادية . أما روسيا الأكثر تأخراً بكثير من الناحية الاقتصادية فقد كانت أكثر تقدماً من زاوية الدولة القومية الواحدة . وهذا التقدم ليس مردّه الاقتصاد او الطبقة البرجوازية بل ظروف وحاجات الصراع مع التتار وغيرهم من الشعوب والدول .

ان الدولة القومية الفرنسية ليست بنت ثورة ١٧٨٩ ، رغم المأثرة الكبيرة لثورة ١٧٨٩ في هذا المضمار . الدولة القومية الفرنسية موجودة او صائرة ، آخذة في تكون ونمو ، خلال قرون عديدة من العصور الوسطى والحديثة . ووحدة ١٨٧٠ الألمانية لم تكن وحدة برجوازية طاهرة ، او بقيادة برجوازية خالصة . كلا . كانت بقيادة البرجوازية الألمانية وبسارك وملك بروسيا وبلاطه وعسكريه ، وقد نالت مع ذلك مساندة جماهير العمال والفلاحين الالمان ، ومعهم ماركس وإنجلز ايضاً ، ولكن بدون اكبر تلامذتها الالمان ، قصدنا فيلهلم ليبكنشت الذي اتخذ موقفاً آخر لانه نظر الى المسألة من زاوية أطماع ملك بروسيا وسلالته وعسكريه الخ ، كما ينظر اليوم يُسر اويونا «ال فلسطينيون» الى الكون والتاريخ من زاوية نوايا ومصالح ملك آخر أصغر شأنًا بقدر لا بأس به . بالنسبة لماركس وإنجلز (وقد أيدهما لينين وشرح موقفها بصورة واضحة وبسيطة) ، الوحدة القومية حتى البساركية غدت في ١٨٦٦-١٨٧٠ شرطاً لا غنى عنه لتقدم ألمانيا واقتصادها وصراع طبقاتها وطبقتها العاملة وحركتها

العمالية وثورتها البروليتارية . وقد ذكر لينين ان مسألة الوحدة الالمانية كانت طيلة القرن التاسع عشر ، بعد حروب نابليون الاول ، هي المسألة المركزية في الثورة البرجوازية الديمقراطية الالمانية ، في التحوّل البرجوازي لهذه الامة الكبيرة التي تشغل وسط قارة اوروبا .

وفي نظرنا ، إن الوحدة القومية العربية هي المسألة المركزية في الثورة العربية القومية والديمقراطية والاشتراكية البروليتارية . وعلى تقدم قضية الوحدة العربية ، سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وشعبياً ، يتوقف كل التقدم المنشود للثورة العربية .

٦ - كما ان هناك من يعلق الوحدة العربية على قيادة غير موجودة لطبقة عاملة وحزبها القليل الوجود ، هناك من يعلّق الوحدة العربية على تحرير فلسطين .

ان العقيدة الغريزية والراسخة للجماهير الشعبية العربية كانت وستبقى ان الوحدة العربية شرط لتحرير فلسطين . ان جهاتٍ متعددة عملت بدأب وثبات ضد هذه العقيدة . كان عملها تحايلاً على الوحدة العربية ، هروباً منها ، طمساً لأهميتها . ولقد قيل مثلاً ان الوحدة ستتحقق من خلال المعركة ، لا معركة الدفاع ضد مشاريع التوسع والعدوان الاسرائيلي بل معركة تحرير فلسطين المسماة « حرب التحرير الشعبية » . وكأننا اللاعبون الوحيدون ، نلعب ضد خصم وهمي ، نحدّد له مثالياً طريقة ردّه كما نشاء .

كانت النتيجة هزيمة حزيران ، الحرب - الهزيمة . عندئذ قيل : الهزيمة كانت محتومة . وهذا حق . ولكن قيل ان الهزيمة كانت محتومة لخسة اسباب او عشرة اسباب ليس بينها التجزئة العربية والانفصالات العربية ، الانفصالات العربية المقاتلة . وهذا باطل الأباطيل . واندفع المدّ «الفلسطيني» بعد الهزيمة ، في شكل فَلَاسْطَنَة الثورة العربية ، فيتنمّ فلسطين والساحة العربية ، في « ايدولوجيا » خيالية جامحة . هذا المجرع الذهني يصل الآن

الى نهاية مسدودة . ولا بد من عودة الجاحين الى الجماهير ، الى الواقع ، الى العقل ، الى الوحدة العربية ، باعتبار ان التقدم الحقيقي في طريق الوحدة العربية هو اول الشروط ليس لتحرير فلسطين وحسب ، بل لما هو دون ذلك بكثير ، لإلحاق خسارة بشرية ومادية جديّة بالعدوان وردّه — مثلاً — الى حدود ما قبل ١٩٦٧ .

ليس هنا مجال هذا الموضوع . ولكنني أريد ان أشير الى حقيقة تاريخية بسيطة وبديهية . إن مسألة التجزئة العربية والوحدة العربية تحكم مسألة فلسطين وصراع العرب والصهيونية على فلسطين وما حولها، وذلك منذ بداية اقتحام الاستعمار للشرق العربي .

في اواخر القرن الثامن عشر ، استولى بونابارت على مصر ، ثم دخل الى فلسطين . ومن غزاة أذاع بياناً دعا فيه يهود افريقيا الى التجمع في فلسطين . ولم يلق هذا البيان تجاوباً .

وفي سنة ١٨٤٠، استطاع حلف الدول الاستعمارية بقيادة بريطانيا العظمى ان يهزم بمساعدة السلطان العثماني وثورة الطوائف المحلية الوحدة المصرية — السورية . كان الحلف حلفاً عالمياً لم يشهد التاريخ مثيلاً له من قبل ، جمع كل « الدول » puissances او كل الدول تقريباً (بريطانيا، روسيا، امبراطورية النمسا، بروسيا ...، القيصر الارثوذكسي وخليفة المسلمين بقيادة بالمرستون). إن مخطط هيمنة بريطانيا على العالم تركّز على ضرب الوحدة العربية في المشرق، في شكل ضرب الوجود المصري في بلاد الشام . وما ان تم ذلك (١) حتى ارسل زعيم الامبريالية البريطانية العالمية — بالمرستون — رسالة الى سفيره في استنبول دعاه فيها الى التدخل لدى جلالة السلطان تدعيماً لمشروع الهجرة

(١) هدّدت بريطانيا باغراق اسطول ابراهيم باشا على شواطئ سوريا : عام ١٨٤٠ نسخة اولى من عام ١٩٦١ .

اليهودية الى فلسطين . ذلك ، على حد قوله ، هو السبيل لمنع عودة محمد علي باشا او خليفته الى سوريا (١) .

وفي الحقبة التالية مباشرة ، كان بنك روتشيلد وراء التسلل الاقتصادي الانكلو - فرنسي الى مصر ، وكان بنك روتشيلد دافعاً قوياً الى تدخل الجيش الانكليزي ضد احمد عرابي في ١٨٨٢ . وفي العام ذاته او تقريباً ، كان بنك روتشيلد ممول اول هجرة يهودية الى فلسطين. ثم جاءت «الصهيونية العمالية» و « العمل اليهودي » وتكوين المجتمع اليهودي الكامل في فلسطين. نكتفي بهذا القدر ، بانتظار لقاءات اخرى ، وبانتظار أسئلتكم . والسلام عليكم وشكراً .

(١) سوريا كان مخططاً لها ان تصبح دومينيون انكلو - يهودياً .

الماركسيّة والقوميّة العربيّة^(*)

بقلم مكسيم رودنسون

ان مسألة العلاقات بين النضال القومي والنضال الطبقي هي احدى المسائل الاساسية في العصر الذي نعيشه ، وقد تمثل أكثر المسائل أهمية بالنسبة لمجمل تطور الانسانية حالياً . لذا فثمة أهمية لدراستها على ضوء النتائج المكتسبة من التحليل الماركسي ، جاهدين تجاوز مستوى التنظير البسيط والتعميمات المبتذلة المكرسة لتبرير مواقف سياسية مؤقتة ، حتى وان كانت هذه المواقف صحيحة ومقبولة . ونأخذ هنا نقطة انطلاق لنا دراسة القومية العربية التي تقدم مثلاً نموذجياً عن قومية البلدان المتخلفة . ان تطورها التاريخي معروف وغني بالدروس . سندرس أسسها وتطورها ...

القوم العربي

ثمة قوم ethnique عربي . وقد تشكل ، في الصورة التي نعرفه فيها اليوم ، في القرون التي تلت عهد الفتوحات الكبير ، من عرب شبه الجزيرة العربية الذين اصبحوا مسلمين إثر دعوة النبي محمد ، الذي توفي عام ٦٣٢ . هذه

(*) عن مجلة : « Voies Nouvelles » ، العدد ٨ ، نيسان ١٩٥٩ .

الفتوحات ، التي بدأت في العام التالي ، عام ٦٣٣ ، بلغت مداها الاوسع .
موقتاً ، من عام ٧١٠ الى عام ٧١٥ . وتبع ذلك تعريب الامبراطورية التي
قامت . وتعلم قسم من شعوب البلدان التي 'فتحت اللغة العربية ، واندجوا ،
بصورة كاملة الى هذا الحد او ذاك ، بالعرب الفاتحين . وهكذا تكونت
الامبراطورية في مساحة شاسعة تمتد من بلاد ما بين النهرين حتى الاطلسي
حيث اصبحت أكثرية سكانها تتكلم اللغة العربية . وقد تحالفت اللغة المحكية
الى عدد من اللهجات متفاوتة من حيث سهولة التفاهم تبعاً لحالة من يأتي من
قطر عربي آخر . أما اللغة المكتوبة فواحدة .

ان العلامة اللغوية هي ، في الحقيقة ، كما هو عليه الامر في كثير من الحالات ،
الامارة الاكثر وضوحاً للانتساب الى القوم المعني . وينبغي ان نوضح اننا
احياناً بصدد مستعربين مفترضين . ان بعض الجماعات تستمر بالكلام بلغات
اخرى ، ولكن ليس لهذه اللغات بالنسبة اليها اعتبار ومكانة اللغة المكتوبة
ولغة الثقافة . فهي عندما تتعلم وتنتقف ، وعندما ترقى اجتماعياً ، انما تتعلم
اللغة العربية ، كما كانت عليه اللغة الفرنسية في بريطانيا البريتونية . هكذا هي
الحال بالنسبة للبربر افريقيا الشمالية او آراميي العراق ، وكذلك اكراده في
حدود معينة . ويمكن ان نقدر بصورة تقريبية ان ثمة ٧٥ مليون فرداً
ينتسبون للقوم العربي ، يشغلون رقعة من الارض مساحتها حوالي ١٤ مليون
كيلو متر مربع .

وثمة عوامل اخرى للوحدة تربط هؤلاء البشر : تاريخ مشترك وثقافة
مشتركة ، الى حد كبير . ولكن ثمة عوامل تمايز وتغاير اقليمية ، وهي امر
طبيعي عندما نكون بإزاء رقعة جغرافية شاسعة متغايرة جداً . فالعالم العربي
يمكن ان ينقسم الى وحدات جغرافية او وحدات اقتصادية (قائمة او كامنة)
متميزة ومتفردة . واللغة المحلية متنوعة ، وكذلك العادات الى بعض الحدود .
وكل اقليم له تاريخه الخاص ، وعانى على مر العصور تأثيرات مختلفة .

فالوحدة العربية تعبر اذن عن جانب من الوقائع ، غير انه مجرد جانب فحسب منها تكن الالهية التي يصير اليها . ليس ثمة من حتمية في هذه الوقائع او طبيعة موضوعية للمعطيات الاجتماعية بحيث تفرض وحدة للعرب في أمة « nation » واحدة كما تصورها عدد من الماركسيين العرب او غير العرب في بعض الفترات ، وكما تصورها ايضاً غير الماركسيين . لقد اكثرنا من استعمال تعريف ستالين للأمة (وهو التعريف الذي اوضحنا عدم كفايته ونقصه بصورة عامة) ^(١) لكي يقدموا « البرهان » على هذه الاطروحة . بيد انه من الواضح ان هذا التعريف عسير ان يتناسب او ينطبق مع حالة العرب بخاصة . فليس من الممكن الحديث عن وحدة اقتصادية إلا كوحدة محتملة او كامنة ، بل اخذت تتأكد الصعوبة البالغة لبنائها . أمة وحدة في اللغة والثقافة و«التكوين النفسي» ؟ : هذا صحيح بمعنى ما وخاطيء في آخر ، أشرنا اليه قبلاً . اما من جهة وحدة الارض ، كما صاغها ستالين ليجعلها معارضة للطابع القومي للجماعات المشتتة كاليهود والتريغان او الاقوام التي تفصلها أبعاد شاسعة كأميركا الشمالية وانكلترا ، فليس لها ، فيما عدا هذه الحالة ، سوى دلالة ملتبسة . فمن الممكن ان نخطط ، على الخارطة ، اي حيز جغرافي شئنا بخطط ، وأن نقرر ان هذا الحيز يتمتع بوحدة في الارض .

الأمة العربية هي نزوع وتطلع يتوقف تحقيقها على عوامل كثيرة ، يستطيع علماء الاجتماع والمؤرخون ان يقدروا الى حد ما وزنها ويستطيعون محاولة تقييم قوتها . ان هذه الأمة نزوع قد تجسد تاريخياً في عدد من الحركات ، بدءاً من زمن ما وتاريخ ما . بعض هذه العوامل الموضوعية في تحقيق العلاقات الاجتماعية كانت بالتأكيد ضرورية لكي تتشكل هذه الحركات . ولكن الحقيقة الواقعة التي يقدمها لنا التاريخ هي القومية العربية بدرجة أجلي وأقوى من الأمة العربية ، وان اعتبرت في « طور التكوين » .

(١) راجع مقال رودنسون السابق .

سير تطور القومية العربية

في بداية العصر الحديث ، كانت العوامل المذكورة قبلاً تَمَثَّلُ في نفس المظهر الذي مثلت فيه منذ الف عام . ان وحدة الارض ، اذا اردنا التمسك بها ، كانت هي نفسها . والعلاقات بين اللغة المكتوبة واللغات المحكية المتعددة كانت من حيث الجوهر هي نفسها حتى اليوم . وكذلك الأمر فيما يتعلق بسمات التاريخ والثقافة ، المشتركة جزئياً والمتمايزة جزئياً . والوحدة الاقتصادية كانت كما هي عليه اليوم غير قائمة . هل كان ثمة شعب *peuple* (نارودنوست حسب الاصطلاح السوفييتي) عربي ؟ اذا اردنا ذلك . ولكن ينبغي عندئذ الاعتراف بأن وعيه الأقوامي *nationalitaire* وأن وحدته كانت قريبة من العدم .

كان ثمة وعي أقوامي عربي في القرن الذي جرت فيه الفتوح ، وحتى عام ٧٥٠ إجمالاً . فالعرب ، كقوم قام بالفتوح ، مستمر التجانس ، مرتبط بايدولوجية هي الدين الاسلامي ، اجنبي بالنسبة لكتلة محكوميه ، كانوا يسيطرون على شعوب اخرى ويستثمرونها اقتصادياً . لقد كان ثمة « امبراطورية عربية » ، كما بين ذلك في مؤلف كلاسيكي ج . ويلهوسن . وفي عام ٧٥٠ ، جاءت ثورة سياسية ، أدت الى انهيار الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية مكانها في بغداد ، لتسجل القضاء على هذه الظروف . الشعوب الخاضعة قد استعربت اكثر فأكثر ، وتحولت على نطاق واسع الى الاسلام . وهي تطالب وتحصل على المساواة في الحقوق مع أحفاد السلف الفاتحين . وأصبحت الامبراطورية امبراطورية اسلامية تجمع في اطارها القوم العربي (الذي كان القسم الاعظم منه مؤلفاً من مستعربين جدد) والقوم الايراني والقوم التركي ، الخ . ولم يكن ثمة من صراعات حقيقية بين هذه الاقوام . ان تفسخ الامبراطورية واحتلال سلالات حاكمة من اصل تركي مركز السيطرة حوالي عام ١٠٥٠ على معظم الدويلات التي قامت من جراء هذا التفسخ ، لم يغير من هذا الامر شيئاً .

وحتى حوالي عام ١٨٠٠ حدثت مرات ومرات تمردات وثورات اجتماعية .
والهجوم الخارجي ، الحروب الصليبية الأوروبية في العصور الوسطى مثلاً ،
قد أثار ردود فعل دفاعية من قبل الشعوب التي هوجمت. غير ان الايديولوجية
التي كانت تلهم ردود الفعل هذه او تقودها هي ايديولوجية دينية خالصة .
وفي كل هذه الاحداث لم نشهد البتة ظهور عامل اقوامي ، يمكن اعتباره عاملاً
قادراً على خلق حركات سياسية .

لم تظهر القومية إلا في القرن التاسع عشر . ولقد رأيناها تظهر في وضع
معين وحالة معينة . ان القوم العربي كله ، او كله تقريباً ، قد ضمته ، بصورة
مباشرة او غير مباشرة ، امبراطورية شاسعة طبقتها القائدة تركية ، ألا وهي
الامبراطورية العثمانية . هذه الامبراطورية ، التي كان دينها الاسلام ، والحكم
فيها استبدادي ، قد قوّضها تزايد قوة اوروبا السياسية والتقنية والاقتصادية .
فالمنتجات الصناعية الأوروبية ، بأسعارها المتدنية على الدوام وبمواصفاتها
الأجود ، قد دخلت في هذه الامبراطورية لتهدم الحرف المحلية . وتزايدت
أهمية الاستثمارات الرأسمالية الأوروبية اكثر فأكثر . والخلاصة ، فان الاقتصاد
الرأسمالي قد تغلغل بصورة مباشرة اكثر فأكثر في هذا المجتمع القديم المُتَمَتِّع
وخلق الانحلال والتفكك في بناء التقليدية . وبموازاة ذلك ، كانت الامبراطورية
العثمانية تُتَقَضَّم وتُتَلْتَمَّهم اكثر فأكثر ، ويسيطر ويشرف عليها أكثر فأكثر ، من
قبل الدول الأوروبية ، وتوضع تحت الوصاية باعتبارها « رجلاً مريضاً » .
وتبدو هذه العملية ، من الزاوية الايديولوجية ، وكأنها انتصار للقيم
الأوروبية — المسيحية او المادية على القيم المحلية — الاسلامية .

ان المشاعر التي ولدتها هذه الاحداث والوقائع في صفوف سكان الامبراطورية
العثمانية ، في الجماهير والنخبة ، هي مشاعر ذل ومهانة عميقة ومريرة ، لا سيما
وأنها تأتي بعد شعورهم بالتفوق . هذه المهانة مترافقة بالطبع بالبغضاء والريبة
إزاء اوروبا ، وبرغبة شديدة في التحرر والثأر يأخذ طابع ابتهاج وتهليل
شديدين لكل هزيمة تصيب اوروبا ، كالنصر الياباني على روسيا عام ١٩٠٥ .

ان تقليد الغرب من قبل الطبقات العليا لم يؤد سوى الى تأجيج هذه المشاعر . وسيكون لدى الجماهير المتألمة موضوعاً تُسقيط عليه بغضاءها وغيرها، موضوعاً يقع في مدى بصرها ويدها : ان مستثمريها المتأوربين سيرمزون، في اخلاقهم وطباعهم ذاتها، الى العدو البعيد، الذي كثيراً ما يكون منيعاً ، وشبه مجرد.

هذه الحالة الجديدة ، والمشاعر الجديدة التي أثارها ، خلقت من جهة رد فعل وجد بالكاد تنظيراً له ، او لم يحده البتة ، لدى حكومات الامبراطورية (العثمانية) التي تتخذ خياراتها السياسية يوماً فيوماً .

كان بعضها يتخذ مواقف رجعية، ويتخذ بعضها الآخر مواقف اصلاحية. وفي هذه المرحلة لم تكن الاصلاحات سوى تدابير تتخذها من فوق سلطة استبدادية متنورة . ان الصعوبات التي يواجهها هذا النموذج من الاصلاحات معروفة ، غير انها مضت تزعرع البنى القديمة للمجتمع ، وتهيء الجماهير للمضي الى أبعد .

الايدولوجيات من الطراز القديم

ومن جهة أخرى ، وبأسلوب اكثر بطأً وتعرجاً والتواءً ، وهو بصفته هذه كان مزدري من قبل السياسيين «الواقعيين»، فان الحالة الجديدة والمشاعر الجديدة قد دفعت الى صياغة ايدولوجيات تمثلها وتعبر عنها. في هذه المرحلة، بالطبع ، حاولوا التفكير بهذه الحالة في إطار الفكر العادي الدارج . وكالعصور الوسطى لجأوا الى الدين . وكالعادة ، فانهم قد بحثوا عن اسباب شرو الزمن واسوائه في هجران الطهر الديني للماضي . غير ان الرجل الذي كان اول من جسّد هذا الاتجاه ، جمال الدين الافغاني (١٨٣٩ — ١٨٩٧) ، ذهب الى أبعد من ذلك . وكسائر الشعوب التي هاجمتها اوروبا ، فقد بحثوا عن سر النجاحات الأوروبية، الذي رآه الافغاني في العلم العقلاني وفي التقنيات الحديثة . فالعودة الى الاسلام الاول ، الاسلام الأصلي ، وهو حسب تفكيره

دين عقلاني ، معقول ومختلف في جوهره عن التشويه الجامد الذي أصابه ،
تتيح تكيف العالم الاسلامي مع الشروط والظروف الجديدة . غير ان عملية
تطهير وتنقية الاسلام إنما تعرقلها البنى السياسية القديمة ، المدعومة من قبل
الدول الأوروبية ، المستفيدة من تصلب هذه البنى وجودها . وعلى هذا فان
تطهر الاسلام وتنقيته يتطلب استقلال العالم الاسلامي والنضال ضد الامبرياليات
الاوروبية .

هذه النزعة القومية الدينية الاسلامية قد اقترنت معها تارة ، وتعارضت
معها تارة أخرى ، نزعة قومية سياسية عثمانية ، جاءت كمحاولة لاثارة شعور
الولاء من نمط النزعة القومية الاوروبية . إزاء الاطار السياسي القائم ، إطار
الامبراطورية العثمانية . ان هذه النزعة القومية إذ استوحت القومية الرومانسية
الليبيرالية لاواسط القرن التاسع عشر ، ثم استوحت النزعة الوضعية العقلانية
الفرنسية ، قد مست بخاصة المستفيدين من البنية السياسية المذكورة ، اي
الاتراك . ولقد تجسدت هذه النزعة القومية في مؤسسات وجمعيات سرية
وانتهت الى تحقيق ثورة تركيا الفتاة عام ١٩٠٨ . ولقد استقبلت الثورة بحماسة
شاملة وبدأت كحل لكل المشاكل ، والنظام البرلماني الذي أقيم سيتيح المجال
لشقى انواع التطور . وألغيت كل انواع التمييز القومي داخل الامبراطورية .
انه الاندماج الكامل ، من مكدونيا الى اليمن ، من سكوبيه ودورازو الى
البصرة ونخا .

الايدولوجية الجديدة

هاتان النزعتان القوميتان ، اللتان أنضجتا وصيغتتا في إطار الايدولوجيات
والسياسات القديمة ، قد أخفقتا . لقد أخفقتا لأن البرجوازية التركية لم تتخلَّ
عن موقعها المهيمن في الامبراطورية . والجهة الموحدة للشعب الاسلامي ، التي
اقترحها القوميون الدينيون ، قد تقوضت بسبب هذه الواقعة . وفي الممارسة ،

أظهرت حكومة تركيا الفتاة ان القومية العثمانية هي واجهة ، وهي قناع لإخفاء هيمنة العنصر التركي. والبرجوازية وقسم هام من الارستقراطية العقارية في البلدان العربية التابعة للامبراطورية العثمانية لم تعد مستعدة لقبول هذه الهيمنة . وطالبت بحقوق قومية وبحكم لامركزي للامبراطورية . ولأنها لم تحصل على ما طالبت به ، انتسبت الى ايديولوجية جديدة ، ايديولوجية القومية العربية .

أول منظّر للقومية العربية كان منظرأ سورياً ، ليبرالياً ، ماسونياً، هو عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩ - ١٩٠٣) . كان يفكر ايضاً بامبراطورية اسلامية ، ولكن تحت سيادة العرب . وما ان استخلصت الايديولوجية وصيغت ، ونضج الظرف ، حتى قامت هيئات على أساسها بين عامي ١٩٠٤ و ١٩١١ على شكل جمعيات سرية . وأتاحت حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ أول انجاز للمشروع الايديولوجي ، تمثل بالثورة العربية في عام ١٩١٦ ، التي كان رئيسها الحسين، شريف مكة، تدفعه الى الانخراط بها مصالح عائلته، وتدعمه الجمعيات السرية القومية في سوريا والعراق، وتحرضه بريطانيا. وفي ٢٩ تشرين الاول ١٩١٦ ، أعلن نفسه ملكاً على العرب ، وهو لقب لم تعترف به الدول الكبرى .

وأسهّم العرب ، الذين دُفعوا الى الثورة ضد الأتراك من قبل الحلفاء ، في إحراز النصر . ونحن نعلم كيف خابت آمالهم وكيف انتهكت الوعود التي أعطيت لهم . وفترة ما بين الحربين كانت الفترة التي قادتهم فيها خيبتهم الى تعديلات عميقة في ايديولوجيتهم. كما ان ثمة عوامل اخرى لعبت دورها ايضاً. ان فترة ما بين الحربين قد طُبعت سياسياً ، في الشرق الأوسط ، بضرب من التسوية بين بريطانيا والعائلة الهاشمية . وترك قسم من البلدان العربية لفرنسا (سوريا ولبنان) وقسم آخر للصهيانية (وطن يهودي في فلسطين) . واحتفظت بريطانيا بحق ممتاز في السيطرة والإشراف بواسطة نظام الانتداب، ثم بواسطة معاهدات غير متكافئة . ولقاء ذلك حصل افراد السلالة الهاشمية

على تعويضات هامة على صعيدي السلطة والفوائد المادية . والارستقراطية العقارية الكبيرة التي كانت قد اشتركت بالثورة العربية مُنحت بسخاء واخذت تلعب بصورة متزايدة دور العميل للدولة البريطانية . غير ان الشعب العربي ، القاطن في الاقاليم الآسيوية العربية والذي كان خاضعاً قبل عام ١٩١٤ للإمبراطورية العثمانية (العراق ، سوريا ، لبنان ، فلسطين ، شرقي الاردن) رأى آماله تخيب . فبدلاً من الاستقلال الذي وعدوا به ، خيم عليهم إشراف أجنبي في أحسن الحالات ، وهيمن عليهم بصورة عامة حكم مباشرة مارسه الدول المنتدبة . وبدلاً من الوحدة ، نزلت بهم التجزئة والتقسيم الى ابعاد الحدود (الاقليم السوري - اللبناني ، لا تزيد مساحته كثيراً على ثلث مساحة فرنسا ، قسم في لحظة معينة الى خمس دويلات) وهو تقسيم مصطنع الى أقصى حد . وفضلاً عن ذلك ، فان جزءاً من البلد قد ترك مفتوحاً للهجرة الاجنبية ، للصهيانة الذين لم يخفوا نواياهم في جعله دولة لهم .

خلال هذا الزمن ، كانت مصر العربية تخوض كذلك نضالاتها الخاصة في سبيل استقلالها ضد الامبريالية الانكليزية . المغرب وشبه الجزيرة العربية والسودان ، وكلها بلدان عربية ، مستعمرة او مستقلة ، كانت ما تزال خارج الحلبة .

في آسيا العربية استمرت عملية انضاج وبلورة الايديولوجية القومية العربية . وفيها بلغت بغضاء الامبريالية ، والامبريالية الانكليزية بخاصة ، الذروة . وحلت محل الارستقراطية العقارية في قيادة الحركة القومية البرجوازية الكبيرة والوسطى والصغيرة ، التي نهضت ضد الارستقراطية التي خانت . واخذنا نستشعر تأثيرات ايديولوجيات عالمية . نذكر منها الماركسية . غير ان تأثير الفاشية كان أقوى . ولعبت المجتمعات العدو - الامبريالية الانكلوفرنسية واليهود - دوراً كبيراً في هذا الميدان . غير ان الايديولوجية العنصرية ، التي لا تنطبق على حالة العرب ، لم تحتل إلا مواقع مشتتة بواسطة زمر تسبح ضد التيار . وتلك هي حال الحزب السوري القومي الذي أسسه انطون

سعادة الذي خلق نزعة عنصرية سورية تتعارض ضمناً على الأقل مع الوحدة العربية . غير ان الايديولوجيا القومية الوحودية العربية بقيت سائدة . وذلك لأن نضال الشعب العربي ضد نفس الاعداء كان العنصر المهيمن في تلك الظروف . ولم يكن ثمة من تنافس جوهري بين مختلف اجزاء القوم العربي . ولهذا احرزت هذه الايديولوجية تقدماً . وامتدت باتجاه المغرب والسودان . وحاولت هذه الايديولوجية ان تضع لنفسها أسساً عقلانية . وناقش منظرون الأسس التي تبنى عليها الأمة العربية وصلاتها مع الدين الاسلامي والصفات الفيدرالية او الوحودية للدولة التي ستشكلها . وبحثوا في تعريف الأمة ، مفتشين بالطبع عن صفات تتفق مع السمات الخاصة بوضع البلدان العربية . ودفع التأثير الايديولوجي الالماني الى تصور الأمة ككيان موضوعي يفرض نفسه على اعضائه ويطالبهم بولاء غير مشروط .

يمكن استخلاص بعض السمات المميزة للقومية العربية وتلخيصها كما يلي :

١ - يرى المنظرون ، وكذلك الجماهير التي يعبر هؤلاء عن تطلعاتها ومشاعرها ، ان التناقض الرئيسي انما يكمن في الصراع بين العالم الشرقي المضطهد والامبريالية الغربية . والتناقض مع القوميات الشرقية الاخرى (كلقومية التركية مثلاً) يبدو تناقضاً ثانوياً . واذا فكر البعض ان بالإمكان اللعب بامبريالية غربية ضد اخرى ، فان هذا الأمر يبقى مجرد تكتيك . ومن هنا اخفاق الجهود البريطانية لتحويل حدّ القومية العربية ضد فرنسا وحدها .

٢ - وهي قومية استمرت ، في حدود معينة ، تستعمل زمناً طويلاً المشاعر الدينية . ومن الطبيعي ان تدفع الى ذلك ، لكون الاسلام ، وقد خلقه عربي ، يكرم كتاباً أوحاه الله بالعربية ، وهو ظاهرة ثقافية وحضارية عربية وإشرافاً ثقافية وحضارية عربية ، مزدري ومهدداً من قبل الآخرين . أضف الى ذلك ان أقليات دينية تتكلم اللغة العربية (يهود ومسيحيون) تعتبره كذلك في كثير من الاحيان .

٣ - انها، كما رأينا، قومية تقودها البرجوازية بعد خيانة الارستقراطية. وهي تنتقص من شأن الصراع الطبقي لصالح الوحدة القومية. ورغم ذلك فانها قد غدت مقبولة، بدون مقاومة او رفض تقريباً، من قبل الشرائح البروليتارية. والحقيقة انه ما دام الاستقلال لم يكتسب بعد فان الصراع الطبقي يتحول بسهولة الى صراع قومي. والطبقات العليا التي تضطهد وتستغل مواطنيها يشهر بها باعتبارها خائنة للصراع القومي ومتعاونة مع الامبرياليين، الخ. والبؤس والمصاعب والنزاعات تجدد تفسيرها في الهيمنة الاجنبية.

٤ - انها قومية وحدوية، لأسباب تحدثنا عنها. والانتساب الى دولة فيدرالية عربية بل الى دولة عربية واحدة موحدة لا يبدو انه يمثل (إلا بالنسبة للعناصر الحاكمة وبالنسبة لبعض الاوساط التجارية والمالية) تهديداً بسيطرة عنصر اقليمي على آخر. والتقسيمات التي فرضتها الدول الكبرى قد خلقت داخل الحدود، مها بدت مصطنعة، كما هو عليه الأمر دائماً، وحدات اقتصادية نسبية ومصالح خاصة، بيد انها محدودة جداً وبسيطة اذا قيسَت بالتيار الكبير، تيار التضامن الوحدوي.

الانجازات الحديثة

قيل عام ١٩٣٩، وعى الانكليز بوضوح لا شعبيتهم. فحاولوا ان يحدوا علاجاً لذلك. ففي فلسطين صدر الكتاب الابيض في ايار (مايو) ١٩٣٩ مستهدفاً عرقلة تحويل الاستعمار الصهيوني الى دولة يهيمن عليها اليهود. وفي ايار (مايو) ١٩٤١ أعلن انطوني إيدن جهاراً عن تحبيذ بريطانيا للوحدة العربية. وجاء النفوذ الانكليزي ليساعد بقوة، بين عامي ١٩٤٣ و ١٩٤٥، على انسحاب فرنسا من سورية ولبنان. وفي ٢٩ أيار (مايو) ١٩٤٨، جرى التوقيع على ميثاق تأسيس جامعة الدول العربية بمباركة من بريطانيا.

كل هذا كان بعيداً عن ان يجعل الرأي العام العربي محابياً للقضية الانكليزية ، الذي رأى بوضوح الهدف المعرض لهذه المناورات . والسلالة الهاشمية الملكية الحاكمة التي فقدت الثقة والاعتبار والاستقرارية العقارية الممقوتة بقيتا محتفظتين بمواقعهما بواسطة قوة بريطانيا وذهبها . وبقيت الجيوش البريطانية في السويس وفي الاردن . والجامعة العربية بانجازاتها الادارية والثقافية المحضة وعدم فاعليتها في معالجة سائر المسائل التي تنطوي على بعض التعارض والتزاع — هذه الجامعة بدت في احسن الاحوال إطاراً يمكن استتماله في شروط وظروف اخرى . وجاء النشاط المعادي للامبريالية الفرنسية ولاسرائيل ليحرك ويعبىء الشعور القومي العربي الى أقصى حد .

ان الرغبة العنيدة المستكبة لدول حلف الاطلسي في ضم البلدان العربية الى تحالف عسكري معادٍ للسوفييت جاء في نهاية المطاف . فالتصريح الثلاثي الصادر في ٥ ايار (مايو) ١٩٥٠ ، الذي كان ذروة هذه الجهود الخرقاء ، ذهب ، كغيره من الجهود ، في خط معاكس للتطلعات العربية . فالرأي العام العربي لم يكن يكنّ أي عداً للاتحاد السوفياتي ، ولم يكن يعتبر الشيوعية خطراً ، وكانت تداخله الريب والشكوك من الدول الامبريالية الكبيرة وأنصارها من الاستقرارية العربية ومن العناصر الأجنبية التي أرادوا ان يشركوها مع الدول العربية في تحالف واحد ، بل ومنها ما أوكل اليه دور قيادي : كالاتراك والاسرائيليين . وعلى العكس مما أرادته تلك الدول ، فان مجهوداتها قد سهّلت تنامي تأثير افكار الوحدة العربية والاستقلال العربي المرتبطين بالتقدم الاقتصادي والاجتماعي .

وكانت ثورة ٢٣ يوليو المصرية في عام ١٩٥٢ اول انتصار هام ، على الصعيد الدولي ، للطبقات الوسطى . والعناصر البورجوازية المصرية التي تمثلها الثورة كانت تريد استقلالاً وضرباً من التقدم الاقتصادي والاجتماعي الذي يضمه . لقد استفادت تلك العناصر في البداية من العطف الاميركي وأرادت التفاهم مع الدول الكبرى .

غير ان تصميم الحلفاء الاطلسيين وعنادهم لتجنيد العرب في موقع دولي وضع النار على البارود . وجاء حلف بغداد ، في بداية عام ١٩٥٥ ، ليضم بريطانيا وتركيا والعراق وايران وباكستان . وكان هذا الحلف إثارة للشعور القومي العربي . وانفجر الغضب والسخط ، اللذان وجدا تعبيرهما الوحيد الممكن الهام على مستوى الدول في تحول اتجاه القادة المصريين . وفي نيسان (أبريل) ١٩٥٥ ، كان ناصر في باندونغ ، وتأثر بشوإن لاي ونهرو وتيتو . واستمرت الدول الغربية في رفض مساعدة هؤلاء الذين لا ينضمون الى الاحلاف . وتم الخيار . ففي ٢٦ ايلول (سبتمبر) ١٩٥٥ ، بين هتاف وتصفيق الجماهير المصرية ، التي أبدت تأييدها للمرة الاولى ، أعلن ناصر أنه قد اتفق على عقد لشراء اسلحة من تشيكوسلوفاكيا .

ومن بعد، تسارعت خطى هذا التطور. ومنذ ذلك الحين سارت الايديولوجية الوحودية العربية دون ان تواجه بعدو ايديولوجي جدي (عدا أعدائها في لبنان) في جميع بلدان الهلال الخصيب (سوريا ، لبنان ، العراق ، الاردن) وفي مصر. وتغلغلت بقوة الى هذا الحد او ذاك باتجاه الغرب في ليبيا والمغرب، وباتجاه الجنوب الغربي في السودان بل في جزء من افريقيا السوداء المسلمة ، وباتجاه الجنوب حتى في الدول الاقطاعية ذات البنى القديمة الممتدة التي تغطي شبه الجزيرة العربية. وارتبطت هذه الايديولوجية بمحزمة من الافكار الاجتماعية وبسياسة خارجية ما كان ممكناً إلا ان تكتسب شعبية بين الجماهير . واستوحت من النظرية الماركسية ، كما سنرى ، عملية القيام بفرز او تمييز للعدو الرئيسي التي تصطدم به : الامبريالية . وكثيراً ما قبلت فكرة خلق تطوير ضروري للبنى نحو بنى ملكية اشتراكية في صيغ مختلفة، صيغ فهمت بصورة عامة بكثير من الغموض ، في بعض القطاعات الاقتصادية على الأقل . ولقد ربطت هذا النزوع ذا التلاوين الاشتراكية بفكرة استقلال قومي لا يمكن الحصول عليه وتحقيقه ، وهذا امر صحيح ومقبول ، إلا بإقامة بنى اقتصادية تحتية متينة ، بواسطة استثمارات مجزية قليلاً ، الامر الذي يستبعد ، كقاعدة

عامّة ، تمويلها بواسطة الاسلوب الرأسمالي في التمويل . بيد ان الرأي البرجوازي ، الذي يلعب دوراً قيادياً في الحركة القومية لم يرغب البتة ، وهذا امر مفهوم ، ان يتواجد في إطار بنى اجتماعية من الطراز السوفياتي . وعلى صعيد السياسة الدولية ، اصبح الآن واضحاً ان العرب لم يعودوا ينتظرون من الدول الغربية سوى العداء او مساعدة تافهة مشروطة بانضوائهم الى تحالف عسكري معادٍ للسوفيات ، حيث تلعب الشعوب العربية فيه دور الجنود وتتخلى عن حريتها في التصرف عسكرياً بأراضيها . هذا التعاطف مع الاتحاد السوفياتي الذي تواجد دائماً في نفس المعسكر مع البلدان العربية . اما بالنسبة للصين التي تقدم مثلاً مثيراً ومؤثراً عن بناء قوة اقتصادية وعسكرية ضخمة انطلاقاً من حالة مشابهة لحالة البلدان العربية ، هذا التعاطف كان كبيراً جداً ، ويتسم بفروق بسيطة الى هذا الحد او ذاك تبعاً لكل وسط من الأوساط العربية . هذا الموقف في السياسة الخارجية قد جرى التعبير عنه بـ « الحياد الايجابي » ، وهو موقف اصبح يعتبره الاتحاد السوفياتي ، خلافاً للفترة الجданوفية ، موقفاً ودياً ، ويمكن للجميع ان يتفاهوا في حدود هذا الموقف . هذه النزعة الوحيدة العربية ، ذات الاتجاهات الاشتراكية ، الشعبية الملتحمة بالجماهير وجدت ناطقاً باسمها على صعيد دولة ، هذا الناطق هو جمال عبد الناصر ، ووجدت تجسيدها في الدولة المصرية . كما ان الدولة السورية قد قبلت بها وتبنتها . وعلى صعيد آخر ، فان الرأي العام قد وقف الى جانب هذه النزعة ، غير ان الحكومات كانت مترددة ، متحفظة ومعادية . وجاءت الاحداث ، منذ عام ١٩٥٥ ، لتوطد شعبية عبد الناصر وتعزز تأثير الافكار التي يمثلها ، وتدفع الدول العربية الى صف الرأي العام الجماهيري .

وتضافرت كل الاحداث لتخدم ذلك . جاءت الحملة العسكرية الفاشلة على السويس (نهاية تشرين الاول ١٩٥٦) لتخلق بطل الساعة العظيم . وجاء تطور الثورة الجزائرية والاستقلال الذي حصل عليه السودان عام ١٩٥٥ ليقوي

شعور العرب بأن تطور التاريخ يسير معهم ولصالحهم . وبُعِيد ذلك لم تعد المسألة سوى مسألة أية صيغة ينبغي ان ترتديها الوحدة وأي اتجاه تقوم فيه الوحدة . ان قيام الجمهورية العربية المتحدة، في اول شباط (فبراير) ١٩٥٨ ، كان، على الأرجح، في الوقت وفي الظروف التي قامت فيها، مناورة من قبل عناصر غير شيوعية كانت تخشى ان تذهب سوريا بعيداً في وقوفها الى جانب الاتحاد السوفياتي. غير ان قيامها كان بالتأكيد وبلا ادنى شك ملبياً للتطلعات العميقة للجماهير . وفي الاشهر الستة التي تلت قيام الجمهورية العربية المتحدة ، اصبح التيار كاسحاً لا يقاوم : دخول اليمن في اتحاد مع الجمهورية العربية المتحدة ، تحييد وتعاطف من قبل المغاربة ، حرب اهلية في لبنان ، وجاءت اخيراً وخاصة الثورة العراقية في ١٤ تموز ١٩٥٨ التي جندلت «دركي الرجعية» في البلدان العربية .

(*) الوحدة العربية في تطورها التاريخي

بقلم اميل توما

تحتل حركة الوحدة العربية مكاناً بارزاً في حياة العالم العربي وتسهم في معركة مكافحة الامبريالية العالمية وتحظى بتأييد القوى الثورية في العالم .
ومن أجل تقييم حركة الوحدة العربية يجب أولاً رؤيتها في تطورها التاريخي ، وثانياً معالجتها على ثلاث مستويات ، مستوى الفكر ، مستوى التنظيم ، ومستوى النهج السياسي .

وعلى ان نؤكد منذ البداية ان هذه الدراسة تهمل تقويم الكتاب العرب الذين يعالجون الوحدة العربية كأنها امتداد للامبراطورية العربية الاسلامية التي قامت في القرن السابع الميلادي^(١)، كما تهمل تقييم الكتاب والمفكرين الغربيين الذين يفتتون الشعوب العربية حسب مذاهبهم^(٢) .

ان حركة الوحدة العربية قد نشأت في عصر القوميات ، وهي حركة قومية تتأثر مع الحركات القومية في بعض الملامح، وتنفرد بخصائصها الملموسة نتيجة الظروف التاريخية التي تفاعلت معها .

(*) ملخص لأطروحة دكتوراه قدمت لجامعة موسكو عام ١٩٦٨ .

(١) على سبيل المثال محمود كامل المحامي في كتابه « الدولة العربية الكبرى » ، القاهرة

١٩٥٨ ، ص ٣١٧ ، ١٣٢ .

(٢) تجسد هذا التوجه بعد احتلال فرنسا سوريا بعد الحرب العالمية الاولى ، آنذاك قسمتها

الى خمس دويلات على اساس المذاهب الدينية .

يؤكد هذه الحقيقة ميدان الوحدة العربية الجغرافي . فحركة الوحدة اقتضت على جزء فقط من اقاليم الامبراطورية العربية الاسلامية ، وبالتحديد على شبه الجزيرة العربية (داخلها وساحلها وهلالها الخصب) وحوض وادي النيل (مصر والسودان) ويطلق على هذه المنطقة المشرق العربي ، أما شمال افريقيا (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب) فيطلق عليه المغرب الغربي .

ان التطور التاريخي هو الذي قرر هذا الواقع الجغرافي الديمغرافي . حين قامت الامبراطورية العربية الاسلامية هاجرت القبائل العربية الى عدد من الولايات واستقرت فيها. وأدّى شيوع الاسلام الى تحطيم الحواجز بين المواطنين الاصليين والعرب الوافدين ، مما اسرع عملية الاندماج . وكان حصيلة التطور التاريخي في الولايات التي غمرتها الهجرة العربية انتصار اللغة العربية والثقافة العربية الاسلامية مما أدى مع الزمن الى نشوء ملامح قومية مشتركة بين الجماعات التي تسكن هذه الرقعة الواسعة التي نطلق عليها العالم العربي .

ويبرز هذا الامر بعمق بالمقارنة مع ولايات أخرى خضعت للامبراطورية العربية الاسلامية واعتنقت جماهيرها الاسلام ، وهي تؤلف اليوم اقطاراً قومية منفردة ، كإيران والباكستان وغيرها .

ظروف تطور العالم العربي التاريخية

تلاشت مركزية الامبراطورية العربية الاسلامية في وقت مبكر ، وتمزقت الى ممالك اقطاعية شرقية ^(١) مائعة الحدود متقلبة المصائر ، حتى قامت الامبراطورية العثمانية في القرن الخامس عشر وشملت سلطتها بمقاييس متفاوتة

(١) نستخدم هذا الاصطلاح لأن الاقطاع في الشرق اختلف عنه في اوروبا ، فالقطنع الشرقية لم تتحول الى ملك عائلي. وكانت تعني جباية الأعشار وسائر الرسوم والضرائب ، « البلاد العربية والدولة العثمانية » ، ساطع الحصري ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ٢٩ .

الولايات العربية . المغرب (مراكش) كان القطر الوحيد الذي احتفظ باستقلاله آنذاك .

ولكن مركزية هذه الامبراطورية لم تكن قوية فنشأت ^(١) في إطارها ممالك اقطاعية تباينت في قوة ارتباطها مع السلطة العثمانية وكانت تحاول الاستقلال عن السلطة وتنجح في حالات الى حين .

وفي القرن التاسع عشر عاشت السلطنة العثمانية في ظروف خارجية وداخلية عينية كان أبرزها :

١ - نمت في ولاياتها الحركات القومية مع نمو الرأسمالية بمقاييس مختلفة وتأثير موجة اليقظة القومية التي اشاعتها الثورة الفرنسية والحروب التي أعقبتها ^(٢) . وهكذا بدأت الاصطدامات بين القومية التركية السائدة والقوميات الخاضعة ومن بينها القومية العربية في الولايات العربية . وفازت القوميات البلقانية باستقلالها عبر سلسلة من الثورات القومية مما قلص السلطنة وزاد من تمسكها بالولايات الباقية .

٢ - تميز القرن التاسع عشر في اوروبا الغربية على وجه الخصوص بالانتقال من رأسمالية المنافسة الحرة الى رأسمالية الاحتكار ، الى الامبريالية ، وبتسابق الدول الاحتكارية الامبريالية على إتمام توزيع المستعمرات . وكانت ولايات السلطنة العثمانية مطمع تلك الدول وموضع تنافسها الشديد ^(٣) .

(١) او أبقت على الاقطاعية كما وجدتھا ، كما حصل في مصر المماليك .

(٢) في مصر كان تأثير الثورة الفرنسية مباشراً ، فحملة نابليون التي أدت الى احتلال مصر بين ١٧٩٨ - ١٨٠١ أنزلت ضربة كبرى بالمماليك الاقطاعيين ، وبذلك مهدت الطريق امام نشوء دولة مركزية بولاية محمد علي بدأت تسير في طريق النمو الرأسمالي .

(٣) يحدد لينين في كتابه «الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية» : « ان مرحلة اشتداد الاستيلاء على المستعمرات اشتداداً كبيراً هي بالنسبة لانجلترا في سنوات ١٨٦٠ - ١٨٨٠ ، واشتداداً ملحوظاً جداً من العقدين الاخيرين من القرن التاسع عشر ، ومرحلة الاشتداد الكبير بالنسبة لفرنسا والمانيا في العقدين الاخيرين بالضبط » .

وازدادت أهمية المشرق العربي في هذا الوقت بحفر قناة السويس في ١٨٦٩ التي أصبحت مع الأيام شريان المواصلات بين الشرق والغرب . وهكذا ما ان حلت نهاية القرن التاسع عشر حتى كانت بريطانيا قد احتلت ساحلي شبه الجزيرة العربية من عدن حتى الكويت ومصر (في ١٨٩٩) ، وكانت فرنسا قد احتلت الجزائر (في ١٨٣٠) وتونس (في ١٨٨١) .

٣ - اتجهت السلطنة العثمانية الى زيادة المركزية وتقوية سيطرتها على الولايات التي بقيت في حوزتها في المشرق العربي (اليمن والحجاز ونجد والعراق وسوريا الطبيعية) . وفي سبيل ذلك نظمت الجيش وقضت على الولاة الاقطاعيين الذين كانوا يتمتعون بقدر كبير من الاستقلال وأصلحت نظام الحكم الى حد ما باصدار قوانين تساوي المواطنين وتنظم المحاكم والتجارة وتفرض الضرائب الموحدة وتنظم تسجيل الأراضي ^(١) .

ولجأت الى هذه الاصلاحات لمواجهة الصراع الاجتماعي الذي كان يتجسد في انتفاضات الفلاحين والحرفيين ضد الولاة الاقطاعيين ملتمزي الضرائب ^(٢) ، ولضمان دخل للسلطة ^(٣) بعد ان تقلصت الى حد كبير . وكانت الولايات

(١) « البلاد العربية والدولة العثمانية » ، ساطع الحصري ، ص ١٤٦ - ١٤٨ .

(٢) في كتابه «مشهد الاعيان في حوادث سوريا ولبنان» ، القاهرة ١٩٠٨ ، يصف ميخائيل مشاقه بعض هذه الانتفاضات (أمثلة ص ٩٨ و ١٣١) . وعرف بعض الكتاب هذه الانتفاضات المسلحة «بالعاميات» ، وأبرزها في سوريا عامية كسروان التي قادها طانيوس شاهين وأعلن خلالها الجمهورية . وصفها يوسف زيبك في كتاب « ثورة وفتنة في لبنان » . وفي كتابه « العرب والترك في عهد الدستور » (ص ٤٦) يصف توفيق علي البرو موجة الانتفاضات التي وقعت في اليمن وحوارن والتحليل احتجاجاً على الضرائب .

(٣) يذكر ماركس عند وصفه الامبراطوريات الشرقية انها اعتمدت على النهب الداخلي والنهب الخارجي والخدمات المركزية (الاشغال العامة) . وفي القرن التاسع عشر نضب الدخل الخارجي في السلطنة العثمانية ونقص النهب الداخلي باستقلال دول البلقان واحتلال الدول الامبريالية عدداً من الولايات العربية .

العربية بمواطنيها العشرة ملايين تمد الجيش العثماني بالجنود وبثلثي الميزانية ، كما ان معظم أملاك السلطان الخاصة تقع فيها ^(١) .

ثالثاً - فرض نمو الصناعة المحلية البطيء واتساع التجارة الداخلية وغزو البضائع الاجنبية أسواق السلطنة إلغاء كثير من القيود الاقطاعية والأخذ بالاصلاحات البرجوازية. وعكس ذلك نجاح انقلاب ١٨٧٦ في إصدار الدستور الذي عكس بعض مبادئ الثورة البرجوازية الفرنسية وأوحى بحصول تطور رأسمالي .

اثر احتلال الامبريالية للولايات العربية

ودورها في تطورات الاحداث

أ (تفاوت وضع الولايات العربية ومدى تطورها في ظروف السيادة العثمانية . وان احتلال الدول الامبريالية عدداً من الدول العربية ، وبقاء الولايات الاخرى في اطار السلطنة العثمانية ، قد زاد في هذا التطور غير المتعادل.

ب (أدت الامتيازات الاقتصادية التي فازت بها الدول الاوروبية في السلطنة العثمانية الى اغراق الولايات العثمانية في هذه الفترة بالبضائع ^(٢) ، فدمرت

(١) توفيق علي برو : « العرب والترک في عهد الدستور » ، ص ٥٣ .

(٢) استطاع السلطان عبد الحميد ان يلغي الدستور بعد سنتين على اصداره . ويصور احمد امين في كتابه : « زعماء الاصلاح في العصر الحديث » ، ص ٤٢ ، القرى الاجتماعية البرجوازية التي كانت وراء هذا الانقلاب بنقل آراء زعيمه مدحت باشا ، فيكتب ان مدحت كان يرى : « ان اراضي الدولة العثمانية اخصب ارض في العالم وهي مع ذلك افقر ارض ، لهجرة كثير من اهلها وإتقال كاهل من بقي بالضرائب . لا شركات لا مصانع فالقطن كثير في هذه البلاد ومع هذا فالمنسوجات القطنية تجلب من اوربا ... وكل المواد الاساسية متوافرة عندنا ولكن لا عدل ولا امن على المال ، فلا شركات ولا صناعات ، ولا يأتي العدل إلا بالقوانين العادلة وهذه لا تكون إلا بالحرية وبالدستور » .

الصناعات الحرفية المحلية وأعاقت التطور الصناعي في الولايات العربية ^(١) .
ثم جاء الاحتلال الامبريالي ليثبت هذا الاتجاه ويبقي تلك الولايات زراعية
وليحولها الى اسواق ثابتة لبضائعه ومصدراً من مصادر المواد الخام التي تحتاجها.
ج (وأثر الاحتلال الامبريالي في توازن القوى الطبقية . فأدى من ناحية
الى عرقلة التصنيع ونمو الطبقة البرجوازية والبروليتاريا ، وقوّى من ناحية
اخرى اسياذ الارض الكبار الذين كانوا يزودون الاقطار الامبريالية بالمواد
الزراعية الخام . وحيال مقاومة الجماهير الاحتلال الامبريالي الذي امتزج
بكفاح طبقي تساوقت مصالح اسياذ الارض والامبريالية وأصبح اسياذ
الارض دعامتها .

د (وطدت بريطانيا، وأيدتها في هذا السلطنة العثمانية، التفسخ الاقطاعي
الى ولايات ومشيخات في شبه الجزيرة العربية وساحلها ومنعت أي محاولة
لتجميع ^(٢) بعض هذه الاقاليم في إطار واحد .

هـ (وقبل منتصف القرن التاسع عشر تلاقت الدول الكولونيالية في
احباط اول محاولة لإقامة دولة عربية كبيرة قام بها والي مصر محمد علي .

المحاولة الاولى لإقامة الدولة العربية الكبيرة

ما هي ظروف هذه المحاولة ؟

دشنت ولاية محمد علي على مصر القضاء على نظام المماليك الاقطاعي وبداية

(١) في عهد محمد علي في مطلع القرن التاسع عشر بدأت تنمو الصناعة في مصر وبرز منها
صناعة بناء السفن والحديد والنسيج ، ولكن الاحتلال البريطاني عام ١٨٨٢ اوقف هذا التطور
وجعل البلاد تنتج نوعاً واحداً من الزراعة هو القطن . ووقف النمو الرأسمالي بفعل الاحتلال
الامبريالي لتونس والمغرب الأقصى .

(٢) كانت بريطانيا قد استخدمت النزاعات الاقطاعية لتثبيت مواقعها واستمرت في هذه
السياسة . أما السلطنة العثمانية فحاربت محاولة الوهابيين تجميع ولايات شبه الجزيرة في مملكة
واحدة واستخدمت الولاة الاقطاعيين الواحد ضد الآخر . فاستخدمت مثلاً الشريف حسين
لمحاربة إمام اليمن .

السير في طريق التطور الصناعي والزراعي في إطار دولة قومية برجوازية .
ان التطور التاريخي لا يمكن ان يقاس بموازن ذاتية بل بموازن موضوعية .
وبغض النظر عن مطامع محمد علي التوسعية، التي لعبت دورها في تلك الفترة،
فقد كانت هناك ظروف موضوعية حسمت في التطور .

ويجب منذ البداية ان نلاحظ ان نوعاً من التكامل الاقتصادي كان قائماً
بين مصر وسوريا الطبيعية ^(١) . ولذلك ففكرة توحيد هذين القطرين كانت
تجد دافعها في ان مثل هذا التوحيد سيدعم التطور الاقتصادي بالإضافة الى
عوامل اخرى .

ويؤكد البارون بوا لكونت الذي شهد الحملة التي سيرها محمد علي في ١٨٣١
لاحتلال سوريا ، ان قائدها ابراهيم كان يجاهر علناً انه ينوي احياء القومية
العربية وإعطاء العرب حقوقهم وأسناد المناصب اليهم ... وإنه في منشوراته
ومخاطباته الجنود كان يذكرهم بمفاخر الأمة العربية ومجدها التالذ ... وكان
يقول ان البلدان العربية يجب ان تضم تحت لواء ابيه، فهو يحكم مصر والسودان
وسورية ومن الواجب ان يضم العراق وإن جزيرة العرب تابعة لأبيه ^(٢) .

ويبدو الملمح القومي في توجه محمد علي . فهو حين طالب بالاستقلال عن
السلطنة العثمانية اوضح ان ذلك يستهدف التفريق بين الوطن العربي والوطن
التركي، على اعتبار ان ذلك هو الضمانة الوحيدة التي تحول دون النتائج المهلكة
المتولدة من حرب اهلية ^(٣) .

وننتجت سهولة فتح سورية عن استعداد الاهالي للترحيب بالجيش المصري

(١) كانت مصر تزود سوريا بالارز والسكر والقمح والسمسم والسمك المملح وأنواع مختلفة
من القماش القطني والصوفي ، ومقابل ذلك كانت سوريا تصدر الحرير والقطن وزيت الزيتون
والصابون والدخان والفواكه وجلود الخيل والماعز .

(٢) ذكر ذلك أسد رستم في كتابه: «حروب ابراهيم باشا المصري في سوريا والأناضول»، ص ٩٤ .

(٣) « الدولة العربية المتحدة » ، امين سعيد ، الجزء الاول ، ص ٩٥ - ٩٦ .

العربي إذ تولد في نفوسهم الاعتقاد بأن فتح المصريين سيؤدي الى تحرير العرب^(١) .

ويدعي المؤرخون الذين عالجوا الحملة على الرغم من تباين تقديراتهم لطابع الحملة ان الحكم المصري (العربي) في سورية ، الذي امتد بين ١٨٣٢ - ١٨٤٠ ، اجرى ما يشبه الانقلاب السياسي والاقتصادي في تلك البلاد ووضع اسس بناء دولة برجوازية . ويقول معاصر لتلك الحملة : ان جهاز الحكم المصري (العربي) كف يد الامراء والمشايخ وأوقف مطامعهم عند حد ورتب مجالس الملكية والمدنية وأقام مجالس شورى ووضع نظاماً لجباية الخراج ومعاملة الرعية امام القانون على السواء^(٢) . ويذكر قنصل بريطاني ان في عهد الحكم المصري عاد كثيرون الى سكن المدن والقرى المهجورة في جوار حمص وبعض منطقة حوران^(٣) .

ان بعض الباحثين يسقطون هذه المحاولة لإقامة الدولة العربية الكبيرة على اعتبار ان التمردات التي وقعت في سوريا ابان هذا الحكم تبرهن على ان الجماهير رأت في الادارة الجديدة ادارة اجنبية . اكثر هذه التمردات قادها اقطاعيون ومن الطبيعي ان يقاوم هؤلاء تقليص نفوذهم ومركزية الحكم . أما تدمير بعض الجماهير فيعود الى ان الحكم فرض التجنيد والضرائب . ولكن بناء دولة عصرية على انقاض مجتمع اقطاعي زراعي متخلف لا يمكن ان يتم بدون اجراءات قاسية بينها التجنيد والضرائب .

ان البرجوازية قامت بأعنف الاجراءات عند انتصارها على الاقطاع وقيست الجماهير الامرين خلال نمو البرجوازية ولذلك فلا يمكن قياس التقدم بصعوبات مرحلة الانتقال .

(١) « يقظة العرب » ، جورج انطونيوس ، الطبعة العربية ، ص ١١٣ .

(٢) « مشهد العيان في حوادث سوريا ولبنان » ، ميخائيل مشافه ، ص ٧٦ .

(٣) « الدولة العربية المتحدة » ، امين سعيد ، الجزء الاول ، ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

وعروبة هذه الدولة الجديدة كانت تفرضها الجماهير واللغة العربية والملاحم القومية المشتركة التي كانت في طور التكوين في هذه الدولة ^(١) .

وتداعت هذه الدولة لا بفعل التناقضات الداخلية بل بفعل التدخل المسلح . فالقوات المسلحة البريطانية تعاونت مع القوات المسلحة العثمانية ، يؤيدهما الاقطاعيون ، على إجبار القوات المصرية على الانسحاب الى مصر . واجتمعت الدول الكولونiale - الرأسمالية وبينها بريطانيا وروسيا القيصرية وأمبراطورية النمسا - المجر لتقرر تصفية الدولة الجديدة وحصر عائلة محمد علي في مصر .

وأعرب عن عداء الكولونiale البريطانية لهذه الدولة العربية رئيس وزراء بريطانيا بالمرستون في رسالة الى سفيره في نابولي في اذار ١٨٣٣ كتب : ان هدف محمد علي الحقيقي هو إقامة مملكة عربية تضم جميع البلاد التي تتكلم العربية . وقد لا يحوي هذا المشروع ضرراً ما في حد ذاته ، ولكنه سيؤدي الى تقطيع اوصال تركيا ، وهذا ما لا نرضى عنه . فضلاً عن ذلك فلا نرى سبباً يبرر احلال ملك عربي مكان تركيا في السيطرة على طريق الهند ^(٢) .

الحركات القومية والفكر السياسي

استنفر الاحتلال الامبريالي حركات استقلالية معادية للامبريالية في كل قطر من الاقطار العربية وانتقلت في بعض الحالات الى ثورات مسلحة ^(٣) .

(١) يشير بعض الكتاب الى ان عائلة محمد علي ألبانية ولذلك فحملة ابراهيم تفقد عروبته . ولكن هذا التوجه لا يحتمل البحث ، فوجود هذه العائلة في موقع الحكم في مصر لم يغير طابع مصر القومي العربي من البلاد التي حكموا فيها .

(٢) « يقظة العرب » ، جورج انطونيوس ، ص ٢٢ .

(٣) أمثلة على هذه الثورات: ثورة الجزائر بقيادة الامير عبد القادر الجزائري ١٨٣٠ - ١٨٤٨ ، وثورة المهدي في السودان ١٨٨٢ ، وثورة القبروان في تونس في ١٨٨١ ، وثورة عرابي =

وكانت جماهير الفلاحين قوة المقاومة الجهورية . أما قيادة هذه الحركات فقررتها اوضاع التطور الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . ففي ليبيا مثلاً حيث انعدمت الرأسمالية كانت القيادة من زعماء القبائل الزراعية . في حين كانت في مصر من اصحاب الحرف الحرة والتجار الوطنيين وعناصر متنورة من ابناء اسياذ الارض الكبار .

ومع مرور الايام وبتأثير النمو الاقتصادي والسياسي تحولت هذه الحركات المعادية للكونولونية^(١) والامبريالية الى حركات قومية محلية ، تعمل في إطار اقطارها وتنتسب الى تلك الاقطار ، وهكذا نشأت فقط الحركات القومية المصرية والتونسية والمغربية ، وفيما بعد العراقية والسورية وغيرها .

وخلال عملية التطورات الاقتصادية الاجتماعية كانت تجري عملية تمايز طبقي في قيادة تلك الحركات . ولو اردنا التعميم لاستطعنا القول ان الايديولوجية السائدة في القرن التاسع عشر ، في هذه الحركات ، كانت الايديولوجية الاسلامية . ولم يكن هذا من قبيل المصادفة ، فالانتفاضات الاجتماعية خلال تاريخ الامبراطورية العربية الاسلامية استوحت الدين الاسلامي لتصيغ اهدافها على اعتبار ان الدين الاسلامي يشمل الحياة الروحية والمادية . واقتفت السلطنة العثمانية الامبراطورية العربية الاسلامية في اعتبار الدين الاسلامي قاعدة الحكم . بل ان السلطنة صورت قيامها امتداداً للخلافة العربية الاسلامية . ولهذا حين اعتمل الصراع الاجتماعي لجأت الطليعة الى الدين تستوحيه

= في مصر عام ١٨٨٢ التي هدفت الى اقضاء النفوذ الامبريالي وغيرها . وقد استمرت الثورات في القرن العشرين في الولايات العربية التي وزعتها الدولتان الامبريالتان بريطانيا وفرنسا بينهما بعد الحرب العالمية الاولى .

(١) الواقع ان احتلال فرنسا الجزائر تم في مرحلة الكولونالية قبل غو الاحتكارات والامبريالية ، وسارت فرنسا على طريق الكولونالية الكلاسيكي محاولة توطين البلاد بالفرنسيين والاوروبيين .

الاصلاح . وهذا التوجه شمل الولايات العربية كلها ، تلك التي كانت في اطار السلطنة العثمانية ، وتلك التي وقعت بأيدي الامبريالية .

ولكن الدعوة الاسلامية الاصلاحية لم تكن متماثلة وجسّمت التفاوت الاجتماعي . فالدعوتان : الوهابية والسنوسية ^(١) نشأتا في مجتمعات قبلية زراعية وكانتا في إطار المضمون الاجتماعي لتلك المجتمعات وأفقها . اما دعاة الاصلاح في الاقطار العربية المتقدمة فقد شملت دعوتهم الاصلاحية الاسلامية مبادئ الديمقراطية البرجوازية، مثل المطالبة بالقضاء على الاستبداد وإقامة حكومات دستورية تحكم بمشورة الشعب وتنهض بالأقطار صناعياً وزراعياً ^(٢) .

طبعاً لا يمكن تفسير دعوة الرواد الى الاصلاحات الديمقراطية البرجوازية بنمو الرأسمالية البدائي في الاقطار العربية المتقدمة فقط . فبالاضافة الى هذا النمو اطلع المفكرون العرب على افكار ومبادئ الثورة البرجوازية الفرنسية الكبرى وأذاعوا بعض ذلك بالعربية ، كما انهم اطلعوا على منجزات اوربا في عهد صعود الرأسمالية ، التي كانت نظاماً متقدماً على الاقطاعية ، وناقوا

(١) هدفت الحركتان الى الدعوة لاقتفاء اثر السلف الصالح وتنقية الدين من ما اعتبره دعاة الحركتين تراكم الشعوذة (عبادة الاضرحة ، والشفاة) . وجمعت دعوة السنوسية بين الدين والدنيا فكانت زواياها تنظم زراعة الاتباع في المنطقة جمعياً . واتسمت الوهابية بما سمي بهجرة حياة البداوة والاستقرار على الارض الزراعية .

(٢) هذا يظهر من كتابات رواد النهضة عبدالرحمن الكواكبي وجمال الدين الافغاني ومحمد عبده وخير الدين التونسي . « طبائع الاستبداد » لعبد الرحمن الكواكبي ، « العروة الوثقى » التي أعربت عن آراء الافغاني ومحمد عبده ، « أقوم المسالك في معرفة احوال الممالك » لخير الدين التونسي . ويذكر رثيف خوري في كتابه : « الفكر العربي الحديث وأثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي » (نسخة ١٩٥٣) ان الامير حيدر الشهابي تأثر بأحداث الثورة الفرنسية الكبرى (ص ١٦٨) . ويضيف ان رفاة الطمطاوي ، المبعوث المصري في فرنسا ، كتب حين عاد الى بلاده يصف ثورة ١٨٣٠ بروح انحازت الى الثوريين المدافعين عن الدستور ضد انتفاضات الملكيين له (ص ١٨١ - ١٨٤) .

الى اللحاق بها ودعوا الى الاقتباس من أنظمتها ^(١) .

من المهم ان نلاحظ ان انتصار البرجوازية على النطاق الاوروبي وفي اميركا الشمالية حمل في طياته انتصاراً فكرياً ^(٢) على الصعيد العالي ، وهذا أثّر على الشعوب حتى من قبل ان تختمر فيها الاوضاع الاقتصادية الرأسمالية او تكتمل فيها الظروف الاجتماعية - السياسية . ومن الممكن رؤية مثل هذا التفاعل في عصرنا نتيجة انتصار الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي وقيام مجموعة الدول الاشتراكية . فالأفكار الاشتراكية تنتشر حتى في اقطار متخلفة لم تظهر فيها الطبقة العاملة بعد وهي لا تزال بعيدة عن النظم الرأسمالية . وبعض هذه الاقطار التي لا تزال تسودها القبلية الزراعية الى حد كبير مثل مالي بدأ يسير في طريق التطور غير الرأسمالي .

وحيال الاحتلال الامبريالي تجسّمت دعوة الاصلاح الاسلامي سياسياً في فكرة الجامعة الاسلامية التي كان من بين دعايتها جمال الدين الافغاني (١٨٣٩ - ١٨٩٧) .

وجوهر هذه الفكرة ان المسلمين على اختلاف اقطارهم اعرضوا عن اعتبار الجنسيات (اي القوميات) ورفضوا اي نوع من انواع العصبية ما عدا عصبيتهم الاسلامية واذا ما عاد المسلمون الى قواعد شرعهم يصلح شأنهم ^(٣) .

(١) في كتابه « أقوم المسالك في معرفة احوال الممالك » كتب خير الدين التونسي : ان الامم الاسلامية لا تصلح إلا بنظام الشورى وان العدل والحرية ركنا الدولة وان ما بلغه اهل اوربا من التقدم في العلوم والصناعات والزراعة كله وليد العدل والتقدم (نقلاً عن كتاب: «دعاء الاصلاح في العصر الحديث» ، لأحمد امين ، ص ١٦٣) .

(٢) المقصود بالفكر هنا القيم السياسية والاقتصادية التي اشاعتها الرأسمالية وفعلتها الامبريالية الى حيث حلت .

(٣) من المقالة الثانية بقلم محمد عبده في مجلة «العروة الوثقى» ، التي صدرت في باريس بإشراف جمال الدين الافغاني ، بعنوان : « الجنسية والديانة الاسلامية » ، عن « تاريخ الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده » ، لمحمد رشيد رضا ، الجزء الثاني ، ص ٢٢٤ - ٢٢٧ .

ودعا جمال الدين الأفغاني الى الحرية والعدالة والدستور وروَّج لإقامة دولة اسلامية تجمع كافة الاقطار الاسلامية ، وبذلك تلحق بالدول الراقية ، فيعود للاسلام شأنه وللدین الحنفي مجده وتجلو دولة بريطانيا عن الاقطار المشرقية (١) .

لقد اكتسبت فكرة الجامعة الاسلامية في هذه الفترة من القرن التاسع عشر ملمح مكافحة الامبريالية وتمسكت بها الحركات القومية في مصر زمناً طويلاً على اعتبار ان العودة الى السلطنة العثمانية يخلص مصر من الاحتلال البريطاني. كذلك اتجهت الحركة القومية في المغرب في بداية القرن العشرين الى فكرة الجامعة الاسلامية وأرادت الارتباط بالسلطنة العثمانية للتخلص من اخطار الاحتلال الفرنسي (٢) .

ولكن التيار الاسلامي، وإن كان غالباً، فهو لم يكن وحيداً. فإلى جانبه ظهر تيار فكري قومي عربي. ولقد انبثق احد جداوله عن التيار الاسلامي او نما في احضانه بدون ان ينفصل عنه. وأعرب عن هذا الجدول عبد الرحمن الكواكبي بدعوته الى خلافة عربية اسلامية ، على اعتبار ان الاتراك أضروا بالاسلام وقادوه الى الاضمحلال. وعلى ضوء المذابح التي جرت في لبنان عام ١٨٦٠ تعمق شعوره القومي ودعا الناطقين بالضاد من غير المسلمين الى الاتحاد مع المسلمين، فيتحقق بذلك الاتحاد الوطني دون الديني وتحيا الأمة ويحيا الوطن (٣) .

وأما جدول التيار القومي العربي الجوهري فقد انبثق مستقلاً عن الفكرة الاسلامية ورائده اديب اسحاق (١٨٥٦ - ١٨٨٥) من دمشق ، ولعله اول من صاغ فكرة الوحدة العربية الجينية في مقاله « دولة العرب » . في هذا

(١) المصدر ذاته .

(٢) «الحركات الاستقلالية في المغرب العربي» ، غلال الفاسي، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ١٠٠ .

(٣) هذه الافكار اودعها في كتابه : « طبائع الاستبداد » .

المقال وضع في اطار الدولة العربية : الحجاز والشام (سوريا) ومصر والعراق واليمن وتونس والمغرب ، ودعا أولي العزم من تلك الاقطار للتداول فيما بينهم لجمع الكلمة العربية على حد تعبيره . وجسم ابراهيم اليازجي فكرة القومية العربية في قصائده القومية التي دعا في احدها العرب لأن ينتبهوا ويستفيقوا وينهضوا لأمرهم ويعيدوا مجدهم .

وهنا لا بد من ان نلاحظ ما يمكن تسميته باللفتة التاريخية وأثرها في الفكر القومي العربي . فخلال القرن التاسع عشر دأب الادباء والكتّاب العرب على النهوض باللغة العربية التي انحطت خلال قرون حكم السلطنة العثمانية وعلى بعث الثقافة العربية وجلوا صفحات التاريخ العربي . وظهرت أمام هؤلاء حقيقة الامبراطورية العربية الاسلامية حية في أخيلتهم ، فتصوروا أن من الممكن بعثها او نسخها في الظروف القائمة ^(١) .

ومع هذا فلا يمكن القول بشيوع فكرة الوحدة العربية . والمنظمتان القوميتان اللتان يسجلهما التاريخ قامتا خلال القرن التاسع عشر في ولاية سوريا الواقعة في السلطنة العثمانية ودعنا الى وحدة العرب ، مسلمين ومسيحيين ، الى مقاومة الاتراك ... والاولى دعت الى منح سوريا متحدة مع لبنان الاستقلال والاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في البلاد وإلغاء الرقابة والقيود التي تحول دون حرية النشر وعدم استخدام الوحدات العسكرية المجنّدة من اهل البلاد خارج حدودها .

وهكذا بنهاية القرن التاسع عشر نرى ان محاولة اقامة الدولة العربية الكبيرة أخفقت ، وان فكرة الوحدة القومية العربية لا تزال جديداً ضبابياً .

(١) « الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث » ، لأنيس الحوري المقدسي ، ص ١١٧ .
وجدير بالملاحظة ان بعض الشعراء في مصر ، حيث كانت الحركة القومية مصرية ، تغنوا بالعروبة بدون ان يكون هناك وضوح سياسي .

أما حركة وحدة قومية عربية فلم تكن قائمة. والفكرة القومية العربية اقتضت عملياً في الولايات العربية العثمانية حيث عاجلها الرواد^(١).

بين الثورة البرجوازية التركية والحرب العالمية الاولى

لم يكتف السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩) باستخدام الاستبداد في مقاومة الحركات الاصلاحية الاجتماعية والقومية ، بل لجأ بنفسه الى ترويج فكرة الجامعة الاسلامية لتكون البديل للأفكار القومية عامة والفكرة العربية بشكل خاص^(٢).

ولكن الحركات القومية نمت ، وفي مطلع القرن العشرين كانت فكرة الجامعة الاسلامية تتراجع امام الافكار القومية . وفي السلطنة العثمانية لم يكن من الممكن إخفاء فعالية اكبر قوميتين : القومية التركية واليهما ينتسب الحكام والولاة ، والقومية العربية التي تقع تحت نير الاضطهاد القومي .

وتجمعت القوى القومية ، التي جعلت من اهدافها اشاعة الدستور والحريات الديمقراطية ومساواة القوميات ، حول جمعية الاتحاد والترقي التي تغلبت فيها القيادة القومية التركية^(٣).

(١) جدير بالملاحظة ان رواد الفكر العربي في القرن التاسع عشر اما نبتوا في عائلات تجارية ومالية امثال الشيخ يوسف الاسد وسليم بسترش وشبلي الشميل ، وانتمسوا الى عائلات من البرجوازية الصغيرة امثال عبد الرحمن الكواكبي وأديب اسحاق . وكلهم تقريباً من سكان المدن السورية (وتشمل لبنان) . وكثيرون منهم هربوا من الاضطهاد الى مصر حيث نشروا انتاجهم وعالجوا القضايا المصرية مثل ابنائها .

(٢) « القومية العربية من الفجر الى الظهر » ، دكتور علي حسني الخربوطلي ، ص ١٥٨ -

١٦٠ .

(٣) يذكر ساطع الحصري في كتابه: « البلاد العربية والدولة العثمانية » ان الجمعيات القومية =

ونص برنامج جمعية الاتحاد والترقي على النظام الوزاري المسؤول امام البرلمان ومساواة جميع المواطنين واصلاح حالة الفلاحين وتوسيع الحكم الذاتي في الولايات (كانت تسمى في اصطلاح العصر توسيع المأذونية) .

ونجحت الجمعية في ١٩٠٨ في القيام بالثورة واضطر السلطان عبد الحميد الى اصدار الدستور واتخذت السلطنة القديمة شكل دولة برلمانية .

واستقبلت القوميات المختلفة الثورة بحماس بالغ واعتبرتها ايداناً بعهد تآخي القوميات في ظل الدولة العثمانية ، وكثر الحديث عن الوطنية العثمانية التي وضعت إزاء القومية .

ولكن الثورة لم تحقق آمال القوميات ، وتضافرت عناصر اليمين في البرجوازية القومية التركية ، وكانت تحلم بامبراطورية كامبراطوريات الامبريالية الاوروبية ، مع ضغط الدول الاجنبية لاحباط اصلاحات الديمقراطية البرجوازية التي كان على الثورة ان تحققها .

وأبرز لينين ضغط الدول الأجنبية فكتب في مقاله « الاحداث في البلقان وايران »^(١) : « ان الحكومات الاوروبية والاحزاب البرجوازية لا ترغب صادقة في توطيد الدستور في الدولة العثمانية ... فالجميع يخافون نجاح الثورة التركية لان نجاحها يعني كأمر محتوم ، من جهة ، النزوع الى الحكم الذاتي والى الديمقراطية بين الشعوب البلقانية ، ومن الجهة الاخرى انتصار الثورة الايرانية ، وحافزاً جديداً للحركة الديمقراطية في آسيا واشتداد نضال الهند في سبيل الاستقلال ... »

والواقع ان اليمين في البرجوازية القومية التركية الحاكمة تخوَّف من النهوض القومي بعد الثورة في ظل الدستور ومن بعض الحريات الديمقراطية البرجوازية

= التي مثلت مختلف شعوب الامبراطورية عقدت مؤتمرين في باريس في ١٩٠٢ و ١٩٠٧ وقررت إجبار عبد الحميد على ترك العرش وتبديل نظام الحكم من اساسه وإشاعة الدستور ، ص ١٠٦ و ١٠٧ .

(١) حركة شعوب الشرق الوطنية التحررية ، ص ٥٠ .

والانتخابات التي اوصلت عدداً من أبناء القوميات المحكومة الى مجلس المبعوثان (البرلمان) .

وزاد خوف الطبقة الحاكمة من النهوض القومي العربي الذي تجسم تنظيمياً في الجمعيات العربية، مثل « المنتدى العربي »، وفكرياً في الدعوة الى التمسك بالقومية العربية ورفض الرابطة الدينية ^(١) .

ونتيجة تخوفها من انسلاخ الولايات العربية ورغبتها في امبراطورية امبريالية ^(٢) انتهجت البرجوازية القومية اليمينية سياسة تشديد المركزية لا توسيع صلاحيات الولايات في الحكم الذاتي . وانتقلت الى تترك القوميات الاخرى .

ولخص هذا التوجه أحد كبار الكتاب الاتراك نوري بك في كتابه « تاريخ المستقبل » : « مما لا مندوحة لنا عنه للدفاع عن كياننا ان نحول جميع الاقطار العربية الى اقطار تركية لان النشء العربي الحديث صار يشعر اليوم بعصبية جنسية وهو يهددنا بنكبة عظيمة يجب ان نخطا لها من الآن » . وكتب احمد شريف في جريدة « طنين » : « فمن واجبات الباب العالي

(١) في كتابه: « الجامعة الاسلامية واروبا »، كتب رفيق العظم: « ان رابطة الجنس (القومية) والوطن طبيعية الوجود لا سبيل الى اخلالها الا باخلال القوم المنتسبين اليها »، ص ٤، وكتب احد رجال المنتدى العربي، عزت الجندي: « اتنا عرب قبل كل شيء: المسلم عربي والمسيحي عربي. اجل اتنا عرب قبل ان نكون مسلمين، والمسيحي عربي قبل ان يكون مسيحياً، وقد تركنا مسألة الأديان والعبادات الى الجوامع والكنائس. كنا عرباً قبل ان نكون مسلمين ومسيحيين، فبالأولى ان نكون عرباً قبل ان نكون عثمانيين » . الاهرام ٢٢ نيسان ١٩١٢ . ومن الممكن الاستشهاد بكثير من مثل هذه الاقوال .

(٢) اعرب عن هذا الاتجاه احد كتاب « طنين » جريدة غلاة القوميين الاتراك، فكتب في عدد ١٩٠٩/٩/٢٢ : « لا وسيلة لإصلاح اليمن غير اتباع الاسلوب الاستعماري الانكليزي »، انه عار على العثمانيين ان يكونوا اقصر باعاً وأقل نجاحاً » . وكتب آخر في مقال له بعنوان: « العرب والترك »: أليست حكومة انكلترا ديمقراطية وليس في مجلس نوابها هندي ولا ترنسغالي... وهل حكومة فرنسا حكومة استبدادية لأنه ليس في مجلس نوابها وقواد جيوشها تونسسي او جزائري؟ ألا يجوز للأتراك ان يفعلوا فعل الفرنسيين والانكليز؟ الاهرام ١٥-٢٠ آذار ١٩٠٩ .

(مركز الحكم في الدولة العثمانية) في هذه الحال ان ينسبهم (اي العرب) لغتهم ويجبرهم على تعلّم لغة الامة التي تحكمهم ... وإلا استعاد العرب ايجادهم « (١) .

وحيال هذا الوضع اتجهت الحركة القومية العربية الى الاضفاء على الفكرة القومية شكلاً تنظيمياً مستقلاً (٢) ، كما تعاونت عناصرها الرسمية مع جناح البرجوازية القومية التركية الديمقراطية (٣) .

والمهم ان التنظيمات العربية المستقلة تمسكت باطار الدولة العثمانية ورأت فيه حماية لها من أخطار الامبريالية وركزت كفاحها على المطالبة بتخفيف اللامركزية او الحكم الذاتي باعتباره سبيلاً للنهوض القومي العربي .

وهذا ظهر مثلاً من برنامج جمعية العربية الفتاة، التي اسسها الطلاب العرب، وجلهم من سوريا ، في باريس عام ١٩١١ ، جاء فيه : « العمل على النهوض بالامة العربية الى مصاف الامم الحية وعدم الانفصال عن الترك » ... ومن برنامج حزب اللامركزية الادارية العثماني الذي تأسس في القاهرة عام ١٩١٣ ودعا الى دولة دستورية نيابية تتمتع ولاياتها، التي تعتبر جزءاً من الدولة العثمانية، بالادارة المحلية على أساس اللامركزية الادارية (٤) .

ويلاحظ ساطع الحصري ان الكفاح دفاعاً عن اللغة العربية والمطالبة بحق التعليم باللغة العربية اتخذ موقع الصدارة عندما اخذ العرب يطالبون الحكومة العثمانية بمراعاة حقوقهم القومية .

(١) «ثورة العرب»، بقلم احد اعضاء الجمعيات العربية، القاهرة ١٩١٦، ص ١٥٩ - ١٦٠ .
(٢) تأسست اول جمعية عربية باسم : جمعية الاخاء العربي العثماني ، وسادتها روح التفاؤل بالأخوة العربية التركية ومساواة جميع القوميات . ومع انها دعت الى حماية الدستور وتوحيد القوميات، الا انها طلبت المساواة للعرب ونشر التعليم باللغة العربية عن : «يقظة العرب»، جورج انطونيوس ، ص ١٠٩ .

(٣) انضم النواب العرب وغيرهم من نواب القوميات الحكومة الى الحزب الحر المعتدل عام ١٩١٠ ، الذي دعا الى الرابطة العثمانية الى المحافظة على حقوق كل عنصر (قومية) ومساواته .

(٤) جورج انطونيوس : « يقظة العرب »، ص ١١٧ - ١١٨ .

وفي المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس ، بمبادرة القوميين ، وتحت رعاية حزب اللامركزية الادارية العثماني، وبحضور مندوبين من الولايات العربية العثمانية وفي الأساس من سوريا ، تجسست الدعوة القومية العربية في القرارات الداعية الى الاصلاح الاداري، وفي التأكيد على حقوق العرب السياسية والمطالبة بانشاء ادارة حكم ذاتي في الولايات العربية واعتبار اللغة العربية اللغة الرسمية في تلك الولايات (١) .

اما مقاومة أخطار الاحتلال والامبريالية ، فقد ظهر في رفض المؤتمرين محاولة قرن استخدام الحركة القومية العربية لمقاصدها . آنذاك أعلن مختار بيهم احد قادة المؤتمر ان القوميين العرب لن يرضوا بأن تكون فرنسا رئيسة عليهم ، وهم مع رغبتهم في اصلاح احوالهم يريدون البقاء عثمانيين (٢) .

وكان المبادرون الى المؤتمر قد جعلوا من اهدافهم تبليغ الاجانب « ان العرب يردون عادية الاحتلال من اية دولة كانت ويحتفظون بحياتهم الوطنية » ومصارحة الدولة العثمانية بوجوب تطبيق الاصلاحات اللامركزية في بلاد العرب (٣) .

ومن المهم ان نلاحظ ان الحركة القومية العربية في الدولة العثمانية تألفت جوهرياً من قوميي الولايات العربية المتقدمة : سوريا الطبيعية ، والى حد ما العراق . وطغيان السوريين كان بسبب نمو الرأسمالية في سوريا اكثر منه في اي قطر آخر في الدولة العثمانية .

ولو اردنا استعراض الذين حضروا المؤتمر لوجدنا انهم يمثلون التجار وأصحاب المعامل الصغيرة ، وخاصة النسيج ، واصحاب المهن الحرة مثل المحامين والاطباء ومن المتنورين من ابناء عائلات اسياد الارض الكبار الذين

(١) المؤتمر العربي ، ص ١١٥ .

(٢) « محاضرات في نشوء الفكرة القومية » ، ساطع الحصري ، ص ٢٢٠ .

(٣) « ثورة العرب » ، بقلم احد اعضاء الجمعيات العربية (عرف فيما بعد بأنه اسعد داغر)،

ص ٧٠ / ٦٩ .

كانوا يتلقون العلم في الاستانة او باريس ويتأثرون بأفكار الديمقراطية البرجوازية^(١). اما الطبقة العاملة فقد كانت في بداية نموها وتنظيمها النقابي^(٢).

ولم تحصر الحركة القومية العربية ، على الرغم من انتسابها الاقليمي الى الهلال الخصيب ، نشاطها في ولايتها بل اعربت عن وعي قومي اوسع ، وظهر ذلك بتضامنها مع كفاح القبائل اليمنية ورد الطعن العثماني ضد اليمانيين^(٣) وبتنديدها باحتلال ايطاليا طرابلس الغرب^(٤) .

اتساع رؤيا الحركة القومية العربية كانت تظهر في ومضات تنظيمية ولا تعمّر طويلاً لأنها تفتقر الى القاعدة الجماهيرية. واحدى هذه المنظمات «الجامعة العربية» التي انشأها محمد رشيد رضا في ١٩٠٩، وكان مقصدها السعي لايحاد اتحاد حلفي بين امراء العرب والتعاون على عمران البلاد والدفاع عنها . كذلك انعكست في صرخة انطلقت عن مؤتمر عقده من اطلق على انفسهم «فتيان قحطان» ، ودعوا بها العرب لأن يكونوا عرباً ، وطالبوا الحكومة العثمانية باعتبار العرب امة حية وان تعتبر لسانهم لساناً رسمياً وان تمنحهم

(١) هذا يظهر من اسماء البارزين في الحركة ومن بيانات الذين كانوا يؤيدونها ومن بينهم رجال جمعية الاصلاح في بيروت . وحين حلت الحكومة العثمانية هذه الجمعية ارسل ١٣٠٠ من ابناء الولاية برقية احتجاج جاء مطلعها : «نحن الموقعين بذيله ملاكين وتجار وصيارف وأطباء ومحامين وصحفيين وأدباء ومن كافة طبقات الشعب» . عن «العرب والترك في عهد الدستور» ، تأليف توفيق علي البرو ، ص ٤٧٤ .

(٢) في كتابه «تاريخ الحركة النقابية وتشريعات العمال في الاقليم المصري» ، القاهرة ١٩٦١ ، كتب محمد فهم امين انه في عام ١٩١١ كان عدد النقابات في ميادين البناء والسكة الحديد والصناعة الخفيفة ١١ نقابة تضم حوالي ٦٠٠٠ عامل. وهناك صحف تذكر ان المنظمات النقابية نشطت في مدن الدولة العثمانية .

(٣) يصف توفيق علي البرو في كتابه : «العرب والترك في عهد الدستور» المساجلات التي دارت بين العرب والأتراك دفاعاً عن اليمنيين انطلاقاً من كونهم عرباً ، ص ١٥٧ - ١٥٩ .

(٤) «العرب والترك في عهد الدستور» ، ص ٢٤٧ .

الحكم الذاتي في بلادهم ^(١) .

وعند هذا الحد كان من الممكن رؤية التمايز الطبقي-الاجتماعي الذي ولدته الحركة القومية العربية في هذا الوقت الباكر من تاريخها . ففي حين كان ممثلو الرأسمالية العربية للضعيفة والمحامون والأطباء والأدباء يقاومون الكبت والاضهاد العثماني كان «الباشوات» اسياد الارض الكبار في سوريا الطبيعية والعراق يدافعون عن سياسة الحكومة العثمانية ويعلنون ولائهم لها ويكتبون بأنهم «اصحاب الاموال والأملأك وأرباب الحل والعقد وهم لا يعقدون على اعضاء المؤتمر العربي ولم يوكلمهم عنهم احد» ^(٢) . وفي المعارك الانتخابية كانوا يقاومون المرشحين القوميين العرب ويؤيدون اعضاء الحكومة . وموقفهم هذا لم يتغير في ظروف الاحتلال الاجنبي بعد الحرب العالمية الاولى .

وفي حين كانت الحركات الاجتماعية - السياسية في الولايات العربية العثمانية قومية عربية ، كان النهج في الاقطار العربية المغربية الواقعة تحت وطأة الامبريالية الفرنسية اسلامياً يتمسك بالجامعة الاسلامية . ومن جديد يظهر التفاوت في تطور الولايات العربية . ففي المشرق العربي تراجعت فكرة الجامعة الاسلامية امام النهوض القومي . أما في المغرب العربي فاستمر التيار الاسلامي قوياً حتى الحرب العالمية الاولى .

وكان للتيار الاسلامي في المغرب العربي أسبابه . ففي ١٩١١ احتلت ايطاليا ليبيا ، واحتلت فرنسا المغرب في ١٩١٢ . والحركات الاستقلالية ، في هذين القطرين وفي الجزائر ، التي كانت تتطور الى كفاح مسلح ، لم تكن تشعر بالكبت القومي التركي الذي كانت تشعر به الجماهير العربية في الولايات العربية العثمانية ، بل ترى في الجامعة الاسلامية قوة توحيدها لمقاومة

(١) الاهرام ٨ آب ١٩١٢ . استخدمنا كلمة صرخة لنصف هذا المؤتمر لأنه لم يترك اثرأ يذكر واختفت المنظمة بعده .

(٢) « العرب والترك في عهد الدستور » ، ص ٥٠٧ .

الامبريالية^(١) .

وزاد في عمق هذا التوجه هجوم الامبريالية الفرنسية والايطالية على الدين الاسلامي باعتباره احد مقومات الكفاح الاستقلالي^(٢) .

والمهم مع هذا ان نلاحظ ان فرنسا حاولت القضاء على اللغة العربية في الجزائر ، وضرب الفصحى في تونس ، وقد لاقت في القطرين ، وفيما بعد في المغرب ، مقاومة شديدة ارتبطت باعتبار اللغة العربية لغة القرآن كتاب المسلمين المقدس .

وتلاقت الحركات الاستقلالية الثلاث في المغرب العربي بصورها عن فكرة : « الجامعة الاسلامية في مكافحة الامبريالية » . ولأول مرة دعت الحركة القومية في تونس في عشية الحرب العالمية الاولى الى وحدة كفاح المغرب العربي وتعاون الحركات القومية في تونس والجزائر والمغرب . وقد اعربت الحركة القومية في تونس عن تضامنها مع كفاح الجزائريين كما اتصلت بالقوميين من المغرب^(٣) .

الحرب العالمية الاولى

حدد لينين موقف الثوريين قاطبة من الحرب العالمية الاولى بتقديره اياها صراعاً بين جبهتين امبرياليتين على إعادة توزيع المستعمرات وكتب : « وليس

(١) « الحركات الاستقلالية في المغرب العربي » ، غلال الفاسي ، ص ١٥٦ . ولا غرابة في استخدام الشعارات الدينية الاسلامية في المعركة الاستقلالية . ولينين في استعراضه اصداء ثورة ١٩٠٥ في آسيا ، قد ذكر ان الجماهير في جاوه (اندونيسيا) قد « استيقظت بينها حركة قومية تحت لواء الاسلام » ، حركة شعوب الشرق الوطنية التحررية ، ص ٩٧ .

(٢) كتب احد غلاة المستعمرين الفرنسيين : « اذا اردنا ان ننجح النجاح التام فما علينا الا ان نرغم المسلمين في افريقيا الشمالية على التجنس بالجنسية الفرنسية قلباً وفكراً ، ومتى سهل علينا هذا الامر تلاشى الدين الاسلامي ... وقام مكانه حب فرنسا المحبوبة » . عن « لا فرانس اسلاميك » (فرنسا الاسلامية) ، اثبتته كتاب « جهاد نصف قرن » ، بقلم انور الرفاعي ، دمشق ، ص ١٢ .

(٣) في كراس «مرارة الاحتلال» الصادر في دمشق ، وهو محاضرة ألقاها احد التونسيين =

من شأن الاشتراكيين ان يساعدوا قاطع طريق ما يزال في ميعة الشباب والقوة (المانيا) على نهب قطاع طرق آخرين تقدمت بهم السن وأصابتهم التخمة . ينبغي للاشتراكيين ان يستفيدوا من الصراع الدائر بين قطاع الطرق لاسقاطهم جميعاً ^(١) .

لم تكن قد نمت أي حركة اشتراكية ثورية في الاقطار العربية تنهج النهج اللينيني ، ومع هذا اقتربت حركة جمعية العربية الفتاة، التي عملت في الولايات العربية العثمانية ، من الموقف الصحيح حين اعلنت : « ينتج عن دخول تركيا الحرب ان مصير الاجزاء العربية في المملكة العثمانية بات مهدداً بخطر شديد ، فيجب بذل اقصى جهد لضمان تحريرها واستقلالها . وقد تقرر كذلك انه في حالة ظهور مطامع اوروبية في هذه الاجزاء ينبغي على الجمعية ان تعمل الى جانب تركيا في سبيل مقاومة النفوذ الاجنبي مهما كان نوعه وشكله » ^(٢) .

وخلال الحرب استمر التياران في الحركات القومية في العالم العربي ، تيار القومية العربية في الولايات العربية العثمانية، وتيار الجامعة الاسلامية في اقطار المغرب العربي . أما في مصر فكان التيار القومي المصري قد اشد قوة . إلا ان العداء للامبريالية البريطانية كان قوياً ، ولهذا اتجهت اقسام من الحركة القومية المصرية الى فكرة الجامعة الاسلامية على اعتبارها نهجاً سياسياً ^(٣) .

= في نيسان ١٩١٥ ، يصور المحاضر حالة المغرب العربي، واعتداء فرنسا على الدين واللغة العربية. ويكتب عن الجزائر فيقول : « بلغت فرنسا في الجزائر معظم امهاتها ، فأصبح الجهل ضارباً اطنابه في المدن والقرى وانقلب لسانهم الى لغة فرنسية قائمة على آثار من العربية وبقية مما ترك البربر » . ويأتي الى نتيجة المحاضرة حين يقول : « لا نقنع من الأمم الاسلامية المستقلة ان تقف في وجهه عدو يستوفز ... بل نتجاوز في الامل الى ما وراء هذه الغاية وهو تخليص تلك الشعوب التي قيدها الامبرياليون بسلاسل الاستعباد » .

(١) « حركة شعوب الشرق الوطنية التحررية » ، ص ١٥٣ .

(٢) « يقظة العرب » ، جورج انطونيوس ، ص ١٧٢ .

(٣) « التوجه السياسي للفكرة العربية الحديثة » ، محمد رفعت ، ص ١٠٢ .

والواقع ان الاضطهاد والحكم الاجنبي هو الذي قرر انخياز هذه المجموعة من الحركات القومية في العالم العربي الى هذه الجبهة او تلك . ففي الولايات العربية شرد الحكم التركي (الذي اصبح قومياً تركيا متعصباً) آلاف المواطنين الى المنافي وأعدم عدداً من طليعة العاملين القوميين في سوريا ^(١) . في حين اعتقل الحكم البريطاني آلاف الوطنيين وفرض على آلاف آخرين العمل بالسخرة في مصر ^(٢) .

وهكذا بينما تجمع في الاستانة عدد من زعماء حزب تونس الفتاة وليبيا والحزب الوطني المصري والقوميين من شمال افريقيا وأسسوا ، بدعم الحركة التركية ، هيئة لغزو شمال افريقيا ^(٣) لإحراج الامبرياليين الفرنسيين ، اتفق والي مكة الشريف حسين مع الامبريالية البريطانية لتمويله لاعلان الثورة وإحراج الدولة العثمانية والامبريالية الالمانية .

ثم ان التنافس الاقطاعي القبلي هو الذي حسم الموقف في شبه الجزيرة العربية ودفع أمير شمر ، مثلاً ، لأن يقف مع الدولة العثمانية وأمير نجد السعودي لأن يقف مع الامبريالية البريطانية ^(٤) .

ولا جدال ان هذا الانخياز المتباين لجبهتي الامبريالية المتصارعتين كشف ضعف فكرة الجامعة الاسلامية وإخفاق الدعوة الى الجهاد التي أطلقها السلطان العثماني بوحى الامبريالية الالمانية لإحراج بريطانيا في العالم الاسلامي بأسره بما فيه الولايات العربية والهند .

(١) في كافة المصادر التاريخية ، ومنها « يقظة العرب » ، جورج انطونيوس ، ص ٢١٣ -

٢١٤ .

(٢) « مذكراتي في السياسة المصرية » ، ١٩١٢ - ١٩٣٧ . الجزء الاول ، محمد حسين

هيكال ، القاهرة ، ص ٨٧ .

(٣) « الحركات الاستقلالية في المغرب العربي » ، غلال الفاسي ، ص ٥٣ .

(٤) « جزيرة العرب في القرن العشرين » ، القاهرة ١٩٥٦ ، الطبعة الثالثة ، حافظ وهبة ،

ص ٣٢٠ .

ولنتوقف قليلاً عند الاتفاق بين ممثل بريطانيا مكماهون والشريف حسين. لقد عقدت بريطانيا قبل الحرب العالمية الاولى اتفاقات عديدة مع الأمراء والمشايع العرب في شبه الجزيرة العربية . وفي الفترة نفسها عقدت اتفاقات الواحد مع امير عسير الادريس وأمير نجد السعودي. وفي كافة هذه الاتفاقات لم تتعدَّ بريطانيا حدود ضمان مصالحها العينية وتقييد الامير او الشيخ يجعله خاضعاً لها في علاقاته الخارجية . ولم يجر اي ذكر في هذه الاتفاقات للحركة القومية العربية . إلا ان الاتفاق مع الشريف حسين اختلف تماماً عن تلك الاتفاقات وكانت له أصداء بعيدة .

ومبعث ذلك ان الامبريالية البريطانية ، وقد احست بنمو الحركة القومية العربية في الولايات العثمانية ^(١) ، أرادت ترويضها وإخضاعها لاغراضها ووجدت في الشريف حسين سبيلها الى ذلك... أما هو فطماعه الاقطاعية وجدت تعبيرها في الاتفاق مع بريطانيا .

والحقيقة التاريخية ان الشريف حسين لم يكن يعرف شيئاً عن الحركة القومية العربية ^(٢) وإن اول معرفته بها كان عن طريق ابنه الامير فيصل الذي زار دمشق في ١٩١٥ وتعرف بالجمعيات القومية العربية السرية وانتسب لها . وعندئذ تبنى الشريف حسين فكرة جمع كلمة العرب وإقامة دولة عربية وتفاوض مع الامبريالية على ان تؤيد استقلال العرب . ووجد استعداداً كاملاً

(١) يصف اسعد داغر احد معاصري الاتفاق بين مكماهون والشريف في كتابه : « مذكراتي على هامش القضية العربية » ، التيارات المضطربة في الولايات العثمانية وبرز ان القوميين العرب اتفقوا على التخلص من الحكم التركي واختلفوا حول الطريقة ، ولكن التيار الاقوى كان التيار الداعي الى الاستقلال التام والوحدة العربية .

(٢) في بيانه عن اسباب اعلان الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦ ذكر ان من مخازي جمعية الاتحاد والترقي ثورتها على السلطان وتقييدها حريته واهمالها الذي سبب فقدان الولايات البلقانية ، ومخالفتها نصوص الشرائع الاسلامية ومساواتها في الحقوق بين الرجل والمرأة خلافاً لنصوص الدين واعفاء الجنود من صوم رمضان : « ملوك العرب » ، امين الريحاني، الجزء الاول، ص ٦٤ .

من الامبريالية البريطانية التي ايدت في مراسلات مكماهون - حسين قيام دولة عربية واحدة تشمل شبه الجزيرة العربية وسوريا والعراق ، على ان تعترف هذه الدولة بمصالح بريطانيا في العراق ^(١) .

ان بناء قيادة الحركة القومية العربية الطبقية من التجار وأصحاب المهن الحرة والمتنورين من ابناء عائلات اسيا الارض الكبار وتصورهم ان الانقاذ سيأتي من الصحراء ^(٢) ، كما جاء في بداية الامبراطورية العربية الاسلامية ، هو الذي سمح للعائلة الهاشمية ان تتفاوض باسم الحركة القومية العربية وتتولى قيادتها خلال الحرب وبعدها . فمن المؤكد ان هؤلاء القوميين أيدوا الاتفاق وهم الذين رسموا حدود الدولة المستقبلية وأقروا ان تكون لبريطانيا امتيازات اقتصادية فيها ^(٣) .

وينعكس ضعف الوعي القومي العربي في اتفاق قيادة الحركة القومية العربية مع الامبريالية البريطانية التي كانت تحتل مصر والسودان ، وفي عدم

(١) اختلفت في بعض المصادر بعض نصوص الاتفاق بشأن حدود الدولة العربية الموحدة ، ولكن هذا الاختلاف لا يغير من جوهر الوعد بإقامة تلك الدولة . النصوص موجودة في كتاب : « يقظة العرب » ، جورج انطونيوس ، ص ١٨٥ . و « جزيرة العرب في القرن العشرين » ، لحافظ وهبة ، في الملحق .

(٢) في كتابه : « القضية العربية » ، وصف احمد عزة الاعظمي ، احد اعضاء المنتدى الادبي وبعض الجمعيات العربية الاخرى ، كيف ان الشباب العربي العامل في القضية العربية كان يأمل بالخلاص من برائن الاستبداد والعبودية على يدي الزعيمين العربيين الإمام يحيى اليمني والامير ابن سعود النجدي . وقد توجه رئيس المنتدى العربي عبد الكريم خليل الى الإمام يحيى بدعوة الى العمل العربي . (اثبت ذلك توفيق علي البرو في كتابه : « العرب والتركة في عهد الدستور » ، ص ٢٣١) . وبعد الحرب العالمية الاولى طاف امين الريحاني على امراء شبه الجزيرة العربية في محاولة لعقد الاتفاقات بينهم واقامة الوحدة العربية ، وسجل اخفاقه وخبرته في كتابه : « ملوك العرب » . فهؤلاء لم يدركوا ان الاقطاعيين القبائليين لا يمكن ان يحققوا وحدة قومية خصوصاً وان ايديولوجيتهم كانت اسلامية جوهرياً .

(٣) « جزيرة العرب في القرن العشرين » ، حافظ وهبة ، ص ١٥٨ ، و « يقظة العرب » ، جورج انطونيوس ، ص ١٨٥ وما بعد .

رؤيتهم مغزى احتلال الامبريالية الفرنسية اقطار المغرب العربي^(١) .
وعند هذا الحد من الممكن القول ان فكرة الوحدة العربية ارتأت اطاراً جغرافياً محدوداً في شبه الجزيرة العربية او المشرق العربي بدون مصر وخلت من أي مضمون اجتماعي. فالاستقلال السياسي كان هدفها الرئيسي وكانت تتصور النظام نظاماً برجوازيّاً على النسق الاوروبي. أما تنظيمها فكان فضفاضاً موزعاً في جمعيات سرية تركزت في سوريا الطبيعية ، وقيادتها وقعت في أيدي الاقطاعية القبلية . وكان نهجها السياسي التحالف مع الامبريالية البريطانية . ولم يكن في وسعها آنذاك ان تعرف ان الدول الامبريالية (بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية) قد اتفقت في معاهدة سايكس بيكو في ربيع ١٩١٦ على تقسيم الدولة العثمانية فيما بينها ، وان بريطانيا ستصدر وعد بلفور في ١٩١٧ وتعد فيه الصهيونية بتمكينها من اقامة وطن قومي يهودي في فلسطين .

ثورة اكتوبر الاشتراكية الكبرى والموجة الثورية في العالم العربي

دشنت ثورة اكتوبر الاشتراكية الكبرى عصر انهيار الرأسمالية والامبريالية، عصر الثورات الاشتراكية وثورات شعوب المستعمرات التي اصبحت جزءاً لا يتجزأ من الكفاح من اجل الانتقال على الصعيد العالمي من الرأسمالية الى الاشتراكية .
وكانت الثورة إيذاناً بموجة من الثورات الاشتراكية في اوروبا وبموجة الثورات والانتفاضات القومية في المستعمرات .

(١) بعد اعلانه « الثورة » ، رحب الشريف حسين بوفد اسلامي نظمته فرنسا من اقطار شمال افريقيا لتحية حسين على « ثورته » . آنذاك اعلن الشريف امتنانه للوفد وتقديره لسياسة الامبريالية الفرنسية في المغرب العربي وما تبديه من عواطف « كريمة » نحو الاسلام : « ثورة العرب ، مقدماتها ، اسبابها ، نتائجها » ، بقلم احد اعضاء الجمعيات العربية السرية ، ص ٢٢٠ .

ولاحظ احد قادة القوميين في المغرب أثر الثورة الاشتراكية فكتب :
« وظهر في العالم تياران خطيران كلاهما يبشر بحقوق الانسان وينادي
بحرية الشعوب ، فمن جهة الثورة السوفياتية التي اندلعت في روسيا باسم التحرر
والتي ملأت العالم آنذاك دعاية ضد الامبريالية الفرنسية والغربية ، ومن جهة
ثانية دعوة الرئيس ولسن التي اعلن فيها مبادئه الاربعة عشر » (١) .

واعتبر محمد حسين هيكل ، احد زعماء حزب الاحرار الدستوريين
المصري ، ثورة اكتوبر من المؤثرات في ثورية الشعب المصري ويقضته القومية
فكتب : « وقد شهد العالم وشهدت مصر في هاتين السنتين ما لم يشهدا مثله
من قبل : مبادئ جديدة تعلن ومؤتمرات متوالية تعقد وانقلاباً في النظام
الاجتماعي والسياسي يقع في روسيا وفورة مصرية تخرج من قلب الشعب ومن
كل طبقاته ... كان هذا كله غذاء دسماً ودروساً متلاحقة لشعب قيل قبل
الحرب ان مصيره ان يصبح مستعمرة بريطانية » (٢) .

ولم تؤثر الثورة الاشتراكية الكبرى بأحداثها وبدعوها الشعوب الشرقية
الى الثورة فحسب ، بل خدمت الحركة القومية العربية في المشرق العربي خدمة
كبرى باذاعتها نصوص المعاهدات السرية التي عقدتها الدول الامبريالية ومنها
معاهدة سايكس بيكو (٣) وبذلك أيقظت الجماهير العربية في العراق وسوريا

(١) « الحركات الاستقلالية في المغرب العربي » ، ص ٥٧ .

(٢) « مذكراتي في السياسة المصرية » ، الجزء الاول ، ص ١١١ .

(٣) بالاضافة الى منح روسيا القيصرية الاستانة وبضعة اميال على ضفتي البوسفور وقطعة
كبيرة من شرق الاناضول ، منحت هذه الاتفاقية فرنسا القسم الاكبر من سوريا الطبيعية مع جزء
كبير من جنوب الاناضول ومنطقة الموصل في العراق . اما حصة بريطانيا فتألفت من المنطقة
الضيقة الممتدة من طرف سوريا الجنوبية حتى العراق ، وضمت بغداد والبصرة وجميع البلاد
الواقعة بين خليج فارس والمنطقة الفرنسية ، كما ضمت ثغري حيفا وعكا مع جزء صغير من
ساحلها . واحتفظت بمنطقة تضم القسم الاكبر من فلسطين ما بعد الحرب لإقامة ادارة دولية فيها .
(جورج انطونوس ، « يقظة العرب » ، ص ٢٧٢) . ومن الممكن القول ان وعد بلفور
استهدف معاونة بريطانيا على الاستيلاء على فلسطين ، وهذا ما وقع فعلاً بعد الحرب .

الطبيعية على الاخطار التي تتهددها .

ويذكر الزعيم السوري عبد الرحمن الشهبندر اثر هذه الخطوة فيكتب :
« ان اذاعة هذه الوثيقة دفع بريطانيا الى ارسال مارك سايكس^(١) الى المناطق العربية ليخفف من سوء وقعها في الاوساط العربية وما قد تحدثه من رد فعل »^(٢) .

واضطرت بريطانيا وفرنسا حيال زعزعة ما كان يطلق عليه الحلف العربي البريطاني اذاعة بيان أعلنتا فيه ان هدفها تحرير الشعوب الواقعة تحت الحكم التركي وإقامة حكومات وطنية في الولايات العثمانية وبينها حكومات وطنية في كل من سوريا والعراق^(٣) .

ولم تقتنع الجماهير بتهدئة بريطانيا وفرنسا لأن الدولتين الامبريالتين بدأتا في تنفيذ اتفاق سايكس بيكو بتعديلات اقتضاها الصراع بينها وحسم فيه وضع كل منها الدولي والمنطقي وطاقة بريطانيا على استخدام الحركة القومية العربية في سوريا عن طريق الامير فيصل .

وقاومت الجماهير بحركات مسلحة في سوريا عامي ١٩٢٠ و ١٩٢١ وبثورة جبسارة في العراق في عام ١٩٢٠ الاحتلال الامبريالي الفرنسي والبريطاني . وكانت هذه الموجة الثورية جزءاً من الموجة الثورية التي اجتاحت الاقطار العربية الاخرى ، ومن أبرزها الثورة المصرية في عام ١٩١٩ التي تجاوزت اصدائها في السودان ، والكفاح المسلح في ليبيا ، والهبات الكفاحية في تونس والجزائر والمغرب .

لم تحقق هذه الموجة اهدافها الاستقلالية لأن الدول الامبريالية، التي نجحت

(١) مارك سايكس هو الجانب البريطاني او ممثل وزارة الخارجية الذي عقد الاتفاق مع زميله الفرنسي جورج بيكو . وعرفت المعاهدة الامبريالية باسميها .

(٢) « الثورة العربية الكبرى » ، امين سعيد ، الجزء الاول .

(٣) « التوجه السيامي للفكرة العربية الحديثة » ، محمد رفعت ، ص ١٣٤ .

في منع التقاء الدولة الاشتراكية الفتية مع الحركات القومية المعادية للامبريالية، استطاعت ان تقضي، بطاقتها العسكرية الضخمة، على تلك الثورات وساعدها في ذلك في عدد من الاقطار العربية مهادنة الجناح اليميني من القيادة القومية ودعم اسياذ الارض لها. ومع هذا فمن آثار ثورة اكتوبر الاشتراكية الكبرى الدينامية ان الاستعمار اضطر الى بعض التنازلات (إلغاء الاحتلال البريطاني في مصر وإقامة حكومة محلية في العراق) في بعض الاقطار العربية ولجأ الى أنظمة الانتداب التي صيغت كشكل من اشكال الوصاية لتغطية احتلال الولايات العربية العثمانية .

ومن المهم ان نلاحظ هنا ، وسنرى هذا فيما بعد ، ان هذه الموجة القومية الثورية تميزت في الاقطار العربية المتطورة نسبياً مثل مصر وسوريا باقتحام القوى الشعبية النضال السياسي بشكل واع مما أدى الى مزج الكفاح الطبقي بالكفاح القومي الاستقلالي وهذا بدوره أدى الى تعميق التمايز الطبقي وتخوف المتنورين من أسياذ الارض القوميين والبرجوازية المرتبطة بالامبريالية^(١) .

والاثر الاول لاندحار الدولة العثمانية كان تراجع حركة الجامعة الاسلامية وفكرتها . وعمت اندحار فكرة الجامعة الاسلامية النمو في الوعي القومي الذي صاحب الموجة القومية الثورية التي أعقبت الحرب والثورة الاشتراكية الكبرى . وتحولت الحركات القومية في اقطار المغرب العربي الى حركات قومية اقليمية^(٢) .

ولكن هذه الاقليمية لم تمنع نمو التضامن العربي إبان الثورات والانتفاضات

(١) وصف هذا التمايز الطبقي اكثر من كاتب ، واهم بوصف الجمع بين الكفاح القومي والطبقي في مصر شهدي عطية الشافعي في كتابه : « تطور الحركة الوطنية المصرية ، ١٨٨٢ - ١٩٥٦ » ، ص ٣٨ وما يليها .

(٢) يصف علل الغاسي في كتابه : « الحركات الاستقلالية في المغرب العربي » هذا التطور في تونس ، ص ٥٩ ، والجزائر ص ١٢ ، والمغرب الأقصى في وصفه الثورة الريفية ١٢٩ - ١٤٠ .

القومية التي كانت تنفجر في مختلف أنحاء العالم العربي . فالأقطار العربية تضامنت مع ثورة الريف التي قادها عبد الكريم الخطابي في ١٩٢٣ والثورة السورية في ١٩٢٦ ومع كفاح الشعب العربي الفلسطيني كما سنرى . ولكن حتى في هذا الوقت المبكر تضامن المؤتمر المغربي الذي عقد في اواخر ١٩٢٤ في باريس بحضور الجزائريين مع ثورة الريف وحيا كفاح التونسيين ضد الامبريالية الفرنسية وثورة المصريين وكفاحهم الاستقلالي (١) .

معركة الوحدة العربية الحديثة الاولى

ودارت معركة الوحدة العربية في الولايات العربية العثمانية، وكان ميدانها سوريا لا الحجاز ، بغض النظر عن ان الشريف حسين الذي اعلن الثورة العربية الكبرى اعلن نفسه ملكاً على العرب في الحجاز .

لقد انتهت الحرب باحتلال القوات البريطانية العراق وفلسطين وشرق الاردن ، و باحتلال القوات الفرنسية لبنان . وقامت في سوريا ادارة عربية برئاسة الامير فيصل . وأصبح فيصل المتكلم باسم الحركة القومية العربية في مؤتمر الصلح والمنابر القريبة منه. وكان يصرح ان العرب امة واحدة جغرافياً وتاريخياً، وان سوريا والحجاز والعراق قطاعات عربية وكلها تطلب الاستقلال منفردة . وتريد ان تكون مصالحها الاقتصادية موحدة لا حاجز يحجز تعاونها الاقتصادي (٢) ، وكان يشير الى التفاوت بين الولايات العربية ويؤكد على ضرورة ادارتها على اساس اللامركزية ، وفي الوقت ذاته يدعو الى تنمية علاقاتها الاقتصادية (٣) .

وتجمعت في سوريا العناصر القومية من العراق وسوريا الطبيعية والحجاز ،

(١) المصدر ذاته ، ص ١٢ .

(٢) « الثورة العربية الكبرى » ، امين سعيد ، المجلد الثاني ، ص ٢٦ - ٢٨ .

(٣) المصدر ذاته ، ص ٣٣ .

وبدأت تعمل من اجل وحدة عربية . ولم يكن هذا من قبيل المصادفة ، فسوريا منذ نشوء الحركة القومية العربية كانت مركز هذه الحركة ، لتطور الرأسمالية فيها الى حد ما ، ولتفوقها الاقتصادي على غيرها من الولايات في شبه الجزيرة العربية .

وهذا الوضع جعل سوريا مركز الخطر على مواقع الدولتين الامبرياليتين : بريطانيا التي كانت تطمح في تثبيت أقدامها في العراق وفلسطين وشرق الاردن ، وفرنسا التي كانت تطمح في احتلال سوريا بعد ان احتلت لبنان .

وهذا الخطر كان من عوامل تسوية التناقض بين الدولتين الامبرياليتين تسوية مؤقتة ، انتهت بالاتفاق على توزيع الولايات العربية العثمانية بينها ^(١) .

ولم يكن من الممكن ان لا تصطدم الدولتان الامبرياليتان (بريطانيا وفرنسا) مع الحركة القومية العربية التي اتخذت سوريا قاعدة لها . فالقوميون من العراق وفلسطين لم يكتفوا بالكفاح دفاعاً عن استقلال سوريا بل اهتموا بإنقاذ العراق وفلسطين من الاحتلال .

وأدّى زخم النضال القومي ومكافحة الامبريالية الى تمايز اجتماعي واضح في الحركة القومية ، بين قياداتها ، التي مثلت أسياد الارض الذين التفتوا حول فيصل وأظهروا استعداداً لمهادنة الامبريالية ، تماماً كما هادنوا الدولة العثمانية في وقت مضى ، والقوى القومية المعادية للامبرياليين ، وجمعت الرأسماليين من اصحاب المعامل والتجار الوطنيين وأصحاب المهن الحرة والحرفيين والفئات الشعبية عامة .

ويصف محمد عزة دروزه هذا التمايز الاجتماعي في الحركة القومية فيكتب ان الشيوخ والوجهاء (ويعني بهم أسياد الارض الكبار) وقفوا الى جانب

(١) يتفق المؤرخون على ان الاتفاق بين الدولتين تم حين تنازلت فرنسا عن الموصل الغني بالترول لبريطانيا وأقرت حق بريطانيا على فلسطين . عندئذ بدأت بريطانيا تضغط على فيصل ليقبل بشروط احتلال فرنسا لسوريا : « يقظة العرب » ، جورج انطونيوس ، ص ٣٣١ .

فيصل في محاولته تهدئة الكفاح القومي ، في حين وقف رجال المؤتمر السوري (وجلهم من رجال جمعية العربية الفتاة والفئات التي ذكرنا آنفاً) بإصرار الى جانب المعركة من اجل صيانة الاستقلال ^(١) . ويضيف في مكان آخر ان طبقة الوجهاء والأعيان (أسياد الارض الكبار) لم يستشعروا فكرة التحرر القومي ووقفوا منها موقف التحفظ والعدو المهاجم ^(٢) .

وفي وصفه لهذا التمايز كتب اسعد داغر ان هيبة الارستقراطية في تلك الايام تلاشت في دمشق ، ورفض القوميون من رجال حزب الاستقلال ^(٣) قبول أعيان دمشق في الحزب ، على الرغم من شفاعة فيصل ، مما دفع الأخير الى تأليف لجنة استشارية منهم ^(٤) ليكونوا دعامة .

وانتهى هذا التمايز الى الاصطدام حين حلت اللحظة الحاسمة . فبعد اتفاق بريطانيا وفرنسا نصحت بريطانيا ، التي استخدمت حكم الادارة العربية وسيلة ضغط على فرنسا ، فيصل بالاتفاق مع فرنسا . وفعلاً تم الاتفاق في أواخر عام ١٩١٩ بين فيصل وكليمنصو رئيس وزراء فرنسا . وحين عاد فيصل الى سوريا ليقر الاتفاق ، واجه حركة قومية نضالية ترفض تجزئة سوريا ووضعها تحت السيادة الفرنسية وتمسك بالوحدة العربية ^(٥) .

وعلى العكس ، فبدلاً من السير في طريق المهادنة الذي دعا اليه فيصل ، اجتمع المؤتمر السوري ^(٦) في آذار ١٩٢٠ وأعلن استقلال البلاد السورية

(١) « حول الحركة العربية الحديثة » ، الجزء الاول ، ص ١١١ .

(٢) المصدر ذاته ، ص ٦٥ .

(٣) « مذكراتي على هامش القضية العربية » ، ص ١٠٩ .

(٤) وهكذا بقي حزب الاستقلال ممثلاً للحركة القومية العربية . وقد أسسته جمعية

« العربية الفتاة » ليكون وجهها العلني وبقيت هي منظمة سرية .

(٥) « يقظة العرب » ، جورج انطونيوس ، ص ٣٣٣ / ٣٣٤ .

(٦) عقد المؤتمر السوري ممثلاً عن انحاء سوريا من المنتخبين في حزيران ١٩١٩ ، وأصبح

بمثابة برلمان مؤقت .

بجدودها الطبيعية ومنها فلسطين، ورفض مزاعم الصهيونيين وطالب باستقلال القطر العراقي استقلالاً تاماً على ان يكون بين القطرين الشقيقين اتحاد سياسي-اقتصادي . كذلك نادى المؤتمر بفصل ملكاً على سوريا ^(١) .

وبعد ذلك اجتمع المؤتمر العراقي في دمشق وأعلن تمثيله للشعب في العراق واستقلال بلاده وأيد استقلال سوريا واتحاد العراق وسوريا سياسياً واقتصادياً ونادى بشقيق فيصل (عبد الله) ملكاً على العراق ^(٢) .

وخلص القرار الحركة القومية العربية من الشلل الذي كان يفرضه عليها فيصل وطبقته بمهادنتها بريطانيا ^(٣) اولاً ومساومتها فرنسا ثانياً .

وكان القراران السوري والعراقي تحدياً لبريطانيا التي احتلت قواتها فلسطين والعراق ^(٤) ، وفرنسا التي كانت تعدّ لاحتلال سوريا .

ولكن فيصل وطبقته لم يحترموا قرار المؤتمر السوري . وحين أُنذرت فرنسا فيصل مطالبة بتنفيذ اجراءات ^(٥) اعتبرها القوميون تصفية للاستقلال استسلم أمامها على الرغم من مقاومة الحركة القومية وسرح الجيش ، وبدلاً

(١) «يوم ميسلون ، صفحة من التاريخ العربي الحديث» ، ساطع الحصري ، بيروت ،

ص ٨٢ .

(٢) «الثورة العربية الكبرى» ، امين سعيد ، المجلد الثاني ، ص ٣٥-٣٦ .

(٣) وصف جورج انطونيوس هذا الاتجاه ، فكتب ان فيصل اقتنع بأن قدرته على البقاء واتقاء شر فرنسا تزداد فيما اذا وجد طريقاً لتحقيق رغبات بريطانيا الى اقصى حد ، ص ٣١٨ . وفيما بعد قبل الملك فيصل عرش العراق من ايدي البريطانيين الذين ارادوا به تهدئة الثورة القومية في العراق .

(٤) يكتب ساطع الحصري في «يوم ميسلون» : ان وزير الخارجية البريطاني آنذاك اللورد كورزون احتج بشدة على الاعلان وذكر في احتجاجه : «ان بريطانيا العظمى لا تعترف لأي هيئة في دمشق بحق التكلم عن فلسطين والعراق» ، ص ٨٥ .

(٥) من هذه الاجراءات تسليم سكة حديد ريات - حلب الى الجيش الفرنسي والغناء التجنيد الاجباري وتسريح الجيش العربي وقبول الاوراق النقدية التي أصدرها البنك الفرنسي باسم بنك سوريا ولبنان ومعاينة الوزارة المعادية للامبريالية الفرنسية : «يوم ميسلون» ،

ص ١٠٤ .

من تجنيد الجماهير لصدّ الاحتلال الفرنسي استخدم الشرطة لضرب الجماهير والجنود المسلّحين، الذين تظاهروا احتجاجاً على الاستسلام، وأرادوا الاستيلاء على مستودعات الذخيرة لمحاربة المعتدين ، وقتلت الشرطة ١٢٠ من هؤلاء^(١) .

ولم يقدّ قبول الانذار شيئاً ، فقد زحف الجيش الفرنسي واحتل سوريا التي أقيمت فيها إدارة عربية وطرد فيصل من البلاد ، رغم مهادنته ، لشكوك الامبريالية الفرنسية بمحالفته بريطانيا، وأقام نظاماً من أسياذ الارض المواليين للامبريالية الفرنسية ، وبذلك صفى دولة عربية من قبل ان تكتمل ملامحها ، بل انه قضى على قاعدة مادية كانت ترفع لواء الوحدة العربية .

وتضع هذه الاحداث بعض الأسئلة : لماذا انقسم القوميون العرب ، وهم يعلنون تمسكهم بالوحدة العربية^(٢) ، وينطلقون من مقولة امة عربية واحدة الى مؤتمرين سوري وعراقي ؟ ولماذا لم يعلنوا دولة عربية ؟ ولماذا اقتصروا الدعوة على تعاون فقط بين العراق وسوريا^(٣) ؟

(١) « يقظة العرب » ، جورج انطونيوس، ص ٣٣٨ . ويضيف انطونيوس : ان الطريقة الوحيدة التي كان فيصل يستطيع عرقلة الاحتلال الفرنسي او وقف تنفيذه هي اعلان الحرب على فرنسا واثارة البلاد والعشائر ضدها (ص ٣٣٨) . وواضح ان فيصل انتهج السبيل المضادة . فبدلاً من تجنيد القوى القومية المعادية للامبريالية شتتها .

(٢) في مقدمه قرار المؤتمر السوري فذلك جاء فيها: «ان الامة العربية ذات المجد القديم... لم تقم جمعياتها وأحزابها السياسية في زمن الترك بمواصلة الجهاد السياسي ... ولم تثر على الاثرak إلا طلباً للاستقلال التام والحياة الحرة بصفتها أمة ذات وجود مستقل وقومية خاصة لها الحق في أن تحكم نفسها بنفسها» ، عن: «الثورة العربية الكبرى» ، امين سعيد ، الجزء الثاني، ص ١٣٠ .

(٣) في ٤ آذار ١٩٢٠ ، قبل ان يعلن المؤتمر العراقي استقلال العراق ، عقد دورة له ، وبعث برسالة الى رئيس المؤتمر السوري جاء فيها : « ولما كانت الثورة العربية لا ترمي الى تخوير قطر دون سواء من الاقطار العربية ، ولما كان العراقيون عضواً عاملاً فيها ، فقد قاموا بما يجب عليهم من الخدمة للقضية العربية ... حتى وصلوا مع اخوانهم السوريين الى سوريا التي يربطها بقطرهم العراقي روابط اقتصادية وجنسية وسياسية » . ودعا المؤتمر العراقي المؤتمر السوري للاشتراك معه في تقرير مصير البلاد المحررة وفقاً لرغائب الأمة : « الثورة العربية الكبرى » ، امين سعيد ، الجزء الثاني ، ص ٣٤ / ٣٥ .

— لقد كان التقسيم الإقطاعي الذي توطد خلال عهود السلطنة العثمانية لا يزال يؤثر على القوميين العرب . ومع انه كان يخف في ظروف تشديد مركزية الدولة العثمانية ، بقي عميقاً في فترة ما بعد الحرب الاولى . والطبيعي ان يتبدد هذا التقسيم الإقطاعي بصعود البرجوازية الى الصدارة ، بنمو الرأسمالية ، كما حدث في الدول القومية التي توحدت ولاياتها ، وبفضل التفاعل بين مواطني الولايات وتوحيد نسق حياتهم وثقافتهم . ولكن التقسيم الاستعماري عرقل النمو الطبيعي لعملية التمازج والتوحيد .

— ثم ان أسياذ الارض كانوا يدعمون الاقليمية ويستخدمونها لتبديد القوى القومية . ولاحظ هذا محمد عزة دروزة ، من معاصري هذه الفترة والعاملين القوميين ، فكتب : ان كثيراً من أصحاب الوجاهات والزعامات المحلية (اي أسياذ الارض الكبار) ^(١) غاظهم ان لا يتمكنوا من استخدام وجاهاتهم ، فاعتبروا جمعية العربية الفتاة خصماً لهم واغتمموا فرصة ان عدداً من رجال الفتاة غير سوريين فحاولوا ان يحدوا في هذه الثغرة نقطة لاثارة النعرة الاقليمية والعصبية المحلية ^(٢) .

— والواقع ان الامبريالية بخلقها ظروف واقعية بددت القوى القومية التي لم تكن قد توطدت حركتها القومية وتطورت ايدولوجيتها السياسية ، بل كانت لا تزال تتأثر بالاقليمية . وهذا ما لاحظته ايضاً معاصر شغل وزارة المعارف في حكومة فيصل السورية : « فهذا فلسطيني يعتبر الصهيونية اول ما يجب ان يهتم به من مشاكل ، وذلك سوري يرى في اطماع فرنسا اكبر الاخطار التي تهدد القضية العربية ، وذلك عراقي يقول بوجود الثورة ضد

(١) نستخدم اصطلاح « أسياذ الارض الكبار » على اعتبار ان اصطلاح اقطاعيين لا يطابق الواقع تماماً في هذه المرحلة ، ونعني ايضاً الاقطاع الشرقي الذي ساد هذه المنطقة ، كما اوردنا سابقاً .

(٢) « حول الحركة العربية الحديثة » ، الجزء الاول ، ص ١٨١ .

الانجليز قبل كل شيء^(١) . وهذا يعني ان القوميين العرب الذين تجمعوا في سوريا بقيت جذورهم الاقليمية تشدهم الى رؤية اوضاع أقاليمهم العينية ومواجهة مشاكلها . ثم ان الامبريالية البريطانية والفرنسية بتقسيمها الولايات العربية العراق وسوريا الطبيعية على الوجه الذي قسمتها لم تمنع الانتقال من التجزئة الاقليمية الاقطاعية الى الوحدة القومية العربية الواسعة فحسب بل عمقتها وزادت من التفنيت الاقليمي باقامتها ولايات مستقلة مثل لبنان وفلسطين وشرق الاردن حيث كان القوميون يعتبرون انفسهم سوريين .

— ويوحى الاقتراح بتوحيد القطرين السوري والعراقي بحصيلة نمو الحركة القومية تنظيمياً ، خلال فترة الدولة العثمانية في القرن العشرين . فالقوميون السوريون والعراقيون انتسبوا الى جمعيات قومية واحدة ورأوا المستقبل في إطار وحدة عربية تجمعهم . وعدم توسيع مدى الوحدة العربية جغرافياً لتشمل الحجاز او نجد او اليمن مثلاً يوحي بأن القوميين العرب الذين تنظموا في جمعياتهم في العهد العثماني وعملوا فيما بعد في سوريا قدروا طاقاتهم على قدرها ووضعوا برامجهم على ضوءها . فلم تكن في هذه الولايات العربية حركات قومية او سياسية تتجاوب مع دعوة الوحدة العربية التي انطلقت من القوميين من العراق وسوريا الطبيعية .

وهكذا عند تلخيص هذه الفترة نستطيع ان نقرر ان فكرة الوحدة العربية اتضحت جغرافياً في آسيا العربية ولم تتعدّها ، على الرغم من ان بعض القوميين العرب كانوا يعتقدون ان ميدان الوحدة يجب ان يتسع ليشمل مصر^(٢) . أما تنظيمياً فكانت حركة الوحدة العربية في بدايتها، لذا لم تستطع الصمود

(١) ساطع الحصري في كتابه « يوم ميسلون » ، ص ٩٢ .

(٢) في كتابه « محاضرات في نشوء الفكرة القومية » ، يذكر ساطع الحصري ان جماعات من مثقفي العرب في العهد العثماني كانت تتجه بقلوبها وبأ نظارها نحو مصر ، تنتظر منها ان تنزع الحركة العربية (ص ٢٥٢) . ويستدل على هذا من خطاب عربي الى شكري العسلي وجاء فيه : « ان مصر والشام اختان بينهما رابطة الدين واللسان العنصرية » (ص ٢٥٤) .

أمام الاقليمية التي عمقتها الامبريالية بتقسيمها الولايات العربية المتقدمة، سوريا الطبيعية والعراق . وبعد الهبة الثورية في سنوات ١٩١٩ - ١٩٢٠ تجزأت الحركة العربية الى حركات قومية تعمل في اقاليمها وتعلن في بعض الاحيان ترابطها مع الوحدة العربية (١) .

اما نهجها السياسي فلم يكن واضحاً تمام الوضوح . فالتمايز الاجتماعي الذي فرز فيصل واسياد الارض الكبار (الوجهاء والاعيان على حد تعبير الكتاب البرجوازيين) عن مجموع الحركة القومية لم ينعكس تماماً في النهج السياسي . ففصل واسياد الارض الذين حوله واصلوا نهج الشريف حسين، الذي فرضوه على الحركة القومية ، وارتأوا مهادنة الامبريالية البريطانية في عملية تحقيق الوحدة العربية . أما القوى القومية التي تألفت من الرأسماليين وأصحاب المهن الحرة والحرفيين فقد اصطدمت بالامبريالية ورأت فيها القوة المعادية للوحدة ، إلا انهم لم يستنتجوا النتائج الضرورية كما سيظهر فيما بعد . أما الجماهير الشعبية فقد وعت بشكل اعنى طبيعة الوحدة المعادية للامبريالية .

وهذا الأمر الأخير يظهر من بيان لجنة الاتحاد العربي التي تأسست في سوريا من اجل تحقيق « تحرير كل الاراضي العربية واستقلال الشعب العربي » في ١٩ كانون الاول ١٩٢٠ . فقد جاء في هذا البيان « ان حكومة لينين واصدقائه والثورة الكبرى التي اعلنوها من اجل تحرير الشرق من نير الطغاة الاوروبيين يعتبرهم العرب بمثابة قوة كبيرة قادرة على اعطائهم السعادة والرفاه . ان السعادة والسلم في العالم بأسره يتوقفان على اتحاد العرب والبلاشفة (٢) » . ان هذه الحركة لم تعمر طويلاً ، إلا انها كانت بداية التيار الشعبي في حركة

(١) قرر المؤتمر العربي الاول الذي عقد في فلسطين : الاستقلال والوحدة مع سوريا ضمن الوحدة العربية ... « حول الحركة العربية الحديثة » ، الجزء الثالث ، محمد عزة دروزة ، ص ٣٢ .

(٢) اورد هذا نقولا شاوي في مقاله « اكتوبر فجر جديد في سماء الشرق » ، الاخبار ٦٧ / ١١ / ٥ .

الوحدة العربية وأعربت عن التمايز الطبقي واتجاه الفئات الشعبية الى مقاومة الامبريالية والتحالف مع الدولة الاشتراكية السوفياتية .

الفترة ما بين الحربين العالميتين

لقد تباينت منذ البداية سياسة الدول الامبريالية في العالم العربي في بعض الميادين . فكانت سياسة فرنسا وايطاليا استيطان مستعمراتها ، في حين انتهجت بريطانيا سياسة تشجيع الصهيونة الموالية لها على اقامة وطن قومي يهودي في فلسطين .

ولكن الدول الامبريالية اتفقت في العالم العربي ، كما في غيره ، على مقاومة الحركات القومية وخاصة اجنحتها الثورية ، وعلى توطيد التباعد بين الاقطار العربية ، بزيادة التفتيت^(١) ، حيث امكن ، وعرقلة التصنيع ، باغراق الاسواق بالسلع الجاهزة وعدم حماية الصناعة المحلية ، ونهب خيراتها وموادها الخام (النفط والفوسفات والزنك والرصاص والبوتاس وغير هذه المواد) وتوطيد توازن القوى الطبقية على حاله بتدعيم الاقطاع وضرب القوى القومية المعادية للامبريالية .

ومع هذا اضطرت الدول الامبريالية ، لتوطيد اقدامها في المستعمرات وأشباه المستعمرات العربية وتحقيق اقصى مدى من نهب موادها ، ان توسع

(١) بعد تقليص سوريا بسلخ لبنان وفلسطين وشرق الاردن عنها، خلقت فرنسا خمس دويلات في حلب واللاذقية ودمشق وجبل الدروز والاسكندرون اعتماداً على الفروق الطائفية الدينية القائمة : « التوجه السياسي لفكرة الوحدة العربية » ، محمد رفعت ، ص ٣٩٧ .

ويجب ان نشير ان الاتجاه الوحيد المعاكس للتفتيت جرى في شبه الجزيرة العربية حيث نجح امير نجد عبد العزيز بن سعود ، بمعونة بريطانيا التي تساوقت مصلحتها مع مصلحته ، على توحيد نجد والحجاز (بتصفية حكم العائلة الهاشمية) وشمرو عسير . ويبدو ان الامبريالية ارادت بتأييد حركة التوحيد هذه ان تخلق بعض التوازن بين السعوديين والهاشميين الذين كانوا يشكلون في العراق بشخص الملك فيصل وفي شرق الاردن بشخص الامير عبدالله . كذلك ارادت ان تتخلص من الملك حسين الذي كان يواصل المطالبة بإقامة دولة عربية حسب الوعود البريطانية .

الطرق وتضاعف امتداد خطوط السكك الحديدية وتقيم بعض المنشآت الصناعية لاستخراج الثروات الباطنية وتدريب نفر من الوطنيين الاداريين . ولم يكن في مقدورها الوقوف أمام سريان القوانين الموضوعية ، وهكذا نمت الرأسمالية القومية الى حد ما ، ونمت معها الطبقة العاملة وازداد عدد الفئات المتوسطة ^(١) من اصحاب المهن الحرة وكبار الموظفين .

واستمر التباين بين القطر العربي الواحد والآخر بفعل التطور غير المتعادل الاصيلي الذي تعمق نتيجة تباين سياسات الامبرياليين . وفي حين نمت البرجوازية القومية نمواً ملحوظاً ، ولو كان محدوداً ، في بعض الاقطار العربية ، كاد نمو البرجوازية القومية في الجزائر ان يتجمد ، وأدى الاستيطان الى ازدياد عدد الطبقة العاملة والفلاحين المعدمين .

ونشأ عن هذا تفاوت في توازن القوى الطبقية في داخل الحركات القومية مما أثر بدوره على ماهيتها وأساليب كفاحها .

وبظهور الطبقة العاملة او باتساع اعدادها اقترنت ، او ازداد اقتران ، الكفاح القومي من اجل التحرر والاستقلال بكفاح طبقي من اجل حقوق العمال والفلاحين ، خصوصاً وان العمال كانوا يعملون في منشآت الاحتكارات الامبريالية وان الفلاحين كانوا يتضررون من الاستيطان الاوروي ومن استغلالهم ^(٢) .

(١) نستخدم الاصطلاح بالمعنى الذي قصده ماركس اي المهندسين ومدراء المصانع والأطباء المستخدمين .

(٢) توافقت موجة التحرر في العالم العربي ، التي اقترنت بفترة نجاح الجبهة الشعبية في فرنسا وبكفاح النازية والفاشية واطارها ، بين ١٩٣٥ - ١٩٣٧ ، بنضالات العمال والفلاحين في عدد من الاقطار العربية . لقد وصف غلال الفاسي في كتابه « تاريخ الحركات الاستقلالية في المغرب العربي » هذه النضالات الشعبية في المغرب (ص ٢٣٨ و ٢٤٣ - ٢٤٦) وفي الجزائر (ص ٢٢) وفي تونس (ص ٨٣) . ووصفها في مصر شهدي الشافعي في كتابه « تطور الحركة الوطنية ، ١٨٨٢ - ١٩٥٦ » ، ص ٨٥ . كذلك جرت اضرابات في العراق في السكة الحديد وشركات البترول والحياكة في النجف . وفي سوريا ايضاً .

وبتأثير الثورة الاشتراكية الكبرى ، ومع ظهور الطبقة العاملة في حدود ضيقة نسبياً ، نشأت في هذه المرحلة الاحزاب الشيوعية في عدد من الاقطار العربية ، في اوقات مختلفة ، وبدأت تمثل تياراً مستقلاً في الكفاح القومي المعادي للامبريالية؛ فاستمرت عملية التمايز الاجتماعي وأصبح التمايز الاخطر التمايز الطبقي في داخل الحركات القومية مما أدى الى اختلافات بين تياراتها الاصلاحية والثورية .

وساعدت موجة الكفاح القومي في العالم العربي بين ١٩٣٥ - ١٩٣٧ ^(١) على تخليص كثير من الحركات القومية من اتجاهاتها الاصلاحية وبدأت تطالب بالاستقلال .

وعند تقييم هذه الموجة نستطيع القول ان البرجوازية القومية تقدمت لاحتلال مراكز هامة في قيادة الحركات القومية العربية وبدأت القوى الشعبية وخاصة الفئات المتوسطة تقوم بدور ظاهر فيها .

ولم يمنع تعدد الحركات القومية الاقليمية في العالم العربي من التماثل في اهدافها العامة وفي الاتفاق على الدفاع عن اللغة العربية خصوصاً (حيث كانت مهددة) وتطويرها وجعلها أداة الاتصال بين كافة الاقطار العربية . ومن الضروري التوقف عند هذه القضية قليلاً .

(١) اثبتنا فيما سبق كيف ان هذه الموجة اقترنت بفضالات عمال وفلاحين في مصر وتونس والجزائر والمغرب الاقصى وسوريا والعراق ، وعلينا ان نضيف ان من ابرز معالم هذه الموجة التي اتسمت بالاضرابات والمظاهرات اضراب سوريا الذي استمر ٥٠ يوماً وأدى الى بداية المفاوضات مع فرنسا ، والمؤتمر الجزائري الكبير الذي جسم قوة نمو الحركة القومية ، والمؤتمر القومي المغربي الذي اعتبره غلال الفاسي نقطة الانتقال من الاصلاحية الى الثورية ، وضراب الستة اشهر في فلسطين والكفاح المسلح الذي رافقه . والانتفاضات الثورية في العراق ، ثورة الاكراد ١٩٣٥ والانقلاب العسكري الاول ... وأفضل المراجع عن المغرب العربي هو كتاب «الحركات الاستقلالية في المغرب العربي» ، وعن فلسطين وسوريا كتاب امين سعيد : «الاستعمار البريطاني في الاقطار العربية» ، و «الدولة العربية المتحدة» ، وكتاب محمد عزة دروزة : «الحركة العربية الحديثة» ، الجزء الثالث .

انتصرت اللغة العربية في مصر قبل نهاية القرن التاسع عشر ، ولكن في فترة ما بعد الحرب استمرت المعركة لجعل اللغة العربية الصحيحة اللغة الدبلوماسية^(١) . وحين صدر الدستور المصري الاول عام ١٩٢٣ نصت مادته ١٤٩ على ان اللغة العربية هي اللغة الرسمية . كذلك نص دستور العراق لعام ١٩٢٥ على هذا الامر في مادته السابعة عشر^(٢) . وحين نجحت الحركة القومية في سوريا عام ١٩٢٨ بالفوز بحق سن دستور للبلاد صاغت مادة الدستور ٢٤ لتنص على ان اللغة العربية هي اللغة الرسمية . وحين وقّعت الحركة القومية في سوريا اتفاقاً مع حكومة الجبهة الشعبية في عام ١٩٣٧ كان من بنود الاتفاق ان اللغة العربية هي اللغة الرسمية الوحيدة . وفي تونس دافعت الحركة القومية عن اللغة العربية الصحيحة ازاء هجوم الامبريالية الفرنسية على اللغة العربية ونجحت في رد هذا الهجوم . ويذكر امين سعيد في كتابه : « الدولة العربية المتحدة » ان فرنسا حاولت جعل اللهجة الاقليمية لغة رسمية في تونس ورصدت مبلغاً ضخماً لوضع معجم لهذه اللغة كما ألفت لجنة لوضع تاريخ تونس بروح امبريالية بتلك اللهجة إلا انها فشلت^(٣) .

ورفعت الحركة القومية في الجزائر في سنوات الثلاثين مطلب التعليم الاجباري باللغة العربية^(٤) وفي مؤتمرها الكبير عام ١٩٣٧ طلبت الاعتراف باللغة العربية لغة قومية^(٥) . وفي عام ١٩٣٧ حين تقدمت الحركة القومية في المغرب بمطالبها كان احدها رفع الرقابة عن الصحافة العربية^(٦) . وجدير

(١) « مذكراتي في الحياة الدبلوماسية » ، محمد حسن عمر ، السفير السابق ، ص ١٩ .

(٢) اعتبر محمد رفعت في كتابه « التوجه السياسي للفكرة العربية الحديثة » ص ٢٣٤ ، من حسنات ادارة فيصل انه تقرر استخدام اللغة العربية رسمياً في جميع المكاتب .

(٣) امين سعيد : « الدولة العربية المتحدة » ، الجزء الثالث ، ص ٧٦ .

(٤) « الحركات الاستقلالية في المغرب العربي » ، علال الفاسي ، ص ١٥ .

(٥) المصدر ذاته ، ص ٢٢ .

(٦) المصدر ذاته ، ص ٢٢٢ .

بالذكر ان حزب الاصلاح الذي كافح في مراكش الاسبانية ، صاغ مشخصاته القومية على الوجه الآتي : « الاسلام والعروبة والمغربية ، ولغتنا الرسمية اللغة العربية ، وقوميتنا عربية مسالمة » (١) .

وتدل الشواهد على ان الامبريالية الفرنسية كانت تغلق الصحف العربية حين تضطهد الحركات القومية في المغرب العربي، مما جعل نشر الصحف العربية معركة من المعارك القومية .

لقد كان صدور صحيفة ما باللغة العربية في قطر من الاقطار العربية حدثاً يؤرخ به ، وفي مصر ، حيث ظهرت الصحافة العربية اول ما ظهرت ، تعثرت الصحافة حتى توطدت قبل نهاية القرن التاسع عشر . وفي الفترة ما بين الحربين تطورت الصحافة العربية في مصر تطوراً كبيراً وشاعت في الاقطار العربية المشرقية حتى اصبحت تمثل مركز الصدارة في العالم العربي . ونشأت الصحافة العربية في أكثر الاقطار العربية وتقدمت على الرغم من المقاومة الامبريالية حتى اصبحت قوة في الحياة السياسية . والمهم في هذا التطور ان الصحافة العربية استخدمت اللغة العربية الصحيحة التي تطورت خلال القرن الاخير وأخفقت محاولات تحويل اللهجات الاقليمية الى لغات قومية مستقلة . ومع تطور التعليم واتساع قاعدة الصحافة تضطر اللهجات الاقليمية الى التراجع لتحل محلها حتى في لغة المحاضرات اليومية باللغة العربية الصحيحة .

وساعد على انتشار اللغة العربية الصحيحة الاذاعات العربية والكتب الادبية والعلمية والسياسية التي تنتشر في العالم العربي عبر الحدود .

لقد أبرز لينين أهمية اللغة في عملية توحيد القوميات فكتب في بحثه «حق الامم في تقرير مصيرها» : «في العالم كله كانت حقيقة انتصار الرأسمالية النهائي على الاقطاع مصحوبة بحركات قومية . والاساس الاقتصادي لهذه الحركات هو ان انتصار السلع انتصاراً تاماً يقضي باستيلاء البرجوازية على السوق الوطنية ،

(١) المصدر ذاته ، ص ٢٦٣ .

يقتضي بلاداً موحدة سياسياً وأهلين يتكلمون لغة واحدة وإزالة كل ما يعيق تطور هذه اللغة وتوطد آدابها . فاللغة هي أهم وسيلة للتعامل بين الناس ، ووحدة اللغة وتطورها غير المعاق هما من أهم الشروط للتعامل التجاري حر واسع على نطاق يتفق مع الرأسمالية العصرية » (١) .

ولكن هل نستطيع القول ان الكفاح من اجل اللغة العربية الذي قام بدور هام في ايجاد احدى القواعد المشتركة لتقارب الاقطار العربية ويقوم بدور هام في عملية توحيدها صاحب انتصار الرأسمالية على الاقطاع وانتصار انتاج السلع انتصاراً تاماً ؟

ان تقدير لينين ينطبق على تطور الحركات القومية في اوروبا . ولكن التطور في آسيا وافريقيا اختلف عنه في اوروبا حيث سيطرت الامبريالية وأعاقات النهوض الصناعي والتطور الرأسمالي وفرضت توطيد التفتت الاقطاعي القديم على الولايات العربية .

ولهذا فلينين لم يتصور هذا التقدير تطبيقاً جامداً وحرفياً على المستعمرات وأشباه المستعمرات ، بل رأى الكفاح القومي في الشرق كفاح « كادحين وجاهير فلاحين مستثمرين رازحين تحت وطأة ظلم القرون الوسطى » (٢) . وهذا ينطبق على الكفاح القومي في العالم العربي على الرغم من التطور غير المتعادل بين اقطاره المتعددة . وقد تقاربت الجماهير العربية في ابان مكافحتها الامبريالية مستوحية مصالحها المشتركة وملاحها القومية المشتركة ومن بينها اللغة العربية وآدابها وثقافتها . ولا تفقد اللغة أهميتها في عملية التوحيد في ظروف الامبريالية ، التي تعرقل التصنيع والنهوض الرأسمالي في المستعمرات وأشباه المستعمرات ، بل تكتسب ماهية جديدة بوصفها أداة تحدي

(١) « حركة شعوب الشرق الوطنية التحررية » ، ص ١٠٨ .

(٢) تقريره في المؤتمر الثاني لعامة روسيا للمنظمات الشيوعية لشعوب الشرق ، المصدر ذاته ،

ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .

الامبريالية وميداناً لتعميق الوعي القومي ومقاومة العدمية القومية . فهي في هذا المعنى أداة في معركة التحرر القومي ^(١) .

ومع هذا لم يخف عامل البرجوازية العربية . فالبرجوازية المصرية اكتشفت عروبتها حين نمت نمواً ملحوظاً وبدأت ترى في الاقطار العربية ميداناً اقتصادياً يسهم في تطورها خاصة خلال الحرب العالمية الثانية . ولكن حتى في هذه الفترة كانت الاقطار العربية سوقاً لصحافتها وإنتاج كتابها الادباء والمفكرين . ولهذا كان من الطبيعي ان تدافع عن اللغة العربية الصحيحة وتروجها بدون ان تهمل لهجتها الاقليمية التي كانت تستخدم في حوار بعض القصص ولكن بشكل لا يستصعبه القارئ العربي في الاقطار العربية الاخرى . ولكن حين نؤكد على ان الحركات القومية العربية كانت في هذه الفترة اقليمية فنحن لا نقصد انها انطوت على نفسها . ففي هذه الفترة تقاربت الحركات القومية عبر كفاحها المشترك ضد الامبريالية :

— خلال صعود الموجة القومية بين ١٩٣٥ — ١٩٣٧ اتفق الحزب الوطني في المغرب والحزب الحر الدستوري في تونس وحزب الشعب الجزائري وجمعية العلماء المسلمين الجزائرية على التعاضد والتضامن في مكافحة الامبريالية الفرنسية ^(٢) .

— وإلى جانب هذا التنسيق نمت حركة التضامن التي اعربت عنها الشعوب العربية اول ما اعربت بتضامنها مع ثورة الريف التي قادها عبد الكريم الخطابي في ١٩٢٣ — ١٩٢٦ وتألبت عليها قوى اسبانيا وفرنسا قبل ان تقضي عليها . وفي تونس تضامن القوميون مع الثورة بالتأييد المعنوي والمادي . — كذلك استنفرت الثورة السورية ١٩٢٥ — ١٩٢٧ تضامناً عربياً كبيراً

(١) كانت إيطاليا تمنع الصحف العربية — التي كانت بين وقت وآخر تنشر مساوئ الحكم الإيطالي وتضامن مع معارك الشعب ضد الامبريالية الإيطالية — من الوصول الى ليبيا ، عن كتاب « طرابلس المغرب بين الماضي والحاضر » ، راسم رشدي ، ص ١٢٠ .

(٢) « الحركات الاستقلالية في المغرب العربي » ، ص ٢٦٣ .

في العراق ولبنان وفلسطين ومصر^(١) . وكان تضامن مصر خطوة هامة في عملية اليقظة على القومية العربية او الانتقال من القومية المصرية الاقليمية الى القومية العربية الجامعة .

— وفي ١٩٢٦ وقعت المملكة اليمنية والمملكة السعودية معاهدة في مكة اعربت فيها عن رغبة الطرفين توحيد الكلمة وحفظ كيان البلاد العربية وتقوية الرابطة بين امراء جزيرة العرب^(٢) .

— وفي ١٩٣٦ عقدت معاهدة الاخاء العربي والتحالف بين المملكة العربية السعودية والمملكة العراقية ، وانضمت اليها اليمن فيما بعد ، استوحت نصوصها من الفكرة العربية وهدفت الى تحقيق التضامن العربي^(٣) .

— واستنفر كفاح الشعب العربي في فلسطين ضد الامبريالية والصهيونية تضامن الشعوب العربية وارتفعت الى مستوى جديد مرتفع موجة التضامن ابان ثورة ١٩٣٦ . فقد جرت اضرابات تضامن في سوريا ولبنان^(٤) ، ومظاهرات في الحجاز وشرق الاردن والمغرب . كما عقد في بلودان (سوريا) في ايلول ١٩٣٧ مؤتمر حضره ٤٠٠ قومي من المشرق والمغرب العربيين صرح رئيسه : « ان فلسطين جزء لا يتجزأ من الوطن العربي » ويجب الدفاع عن عروبتها . كذلك عقد في القاهرة في تشرين الاول ١٩٣٨ مؤتمر برلماني ضم ممثلي الهيئات النيابية العربية واتخذ قرارات تسهم في المعركة دفاعاً عن مصالح الشعب العربي في فلسطين^(٥) .

(١) آنذاك اعلن سعد زغلول زعيم الحركة القومية في مصر : « ان مصر تربطها بسوريا روابط وثيقة من تاريخ ولغة ودين وعادات وجوار وان المصريين يعطفون على اخوانهم (السوريين) المصابين » ، عن « التوجه السياسي للفكرة العربية الحديثة » ، محمد رفعت ، ص ٨١ .

(٢) المصدر ذاته ، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٣) « اليمن عبر التاريخ » ، احمد حسين شرف الدين ، القاهرة ، ص ٣١٨ .

(٤) « حول الحركة العربية الحديثة » ، محمد عزة دروزة ، الجزء الثالث ، ص ١٦٢ .

(٥) المصدر ذاته ، ص ١٧٨ - ١٨٠ .

ولم تقتصر قضية الوحدة على التضامن العربي النامي في مكافحة الامبريالية بل اتخذت شكلاً تنظيمياً .

فلأول مرة بعد عقد المؤتمرين السوري والعراقي في دمشق عقد في القدس مؤتمر عربي في ١٣ كانون الاول ١٩٣١ ، بحضور قوميين من سوريا والعراق وفلسطين ومصر وتونس ، وأعلن « ان البلاد العربية وحدة تامة لا تتجزأ وما طرأ عليها من انواع التجزأة لا نقره ولا نعترف فيه » . ثم دعا المؤتمر لأن توجه الجهود في كل قطر من الاقطار العربية الى وجهة واحدة هو استقلالها التام كاملة موحدة ، وإلى « مقاومة كل فكرة ترمي الى الانتصار على العمل للسياسة المحلية والاقليمية » ... « ولما كان الاستعمار بجميع اشكاله وصيغه يتنافى كل التنافي مع كرامة الأمة العربية وغاياتها العظمى فإن الأمة ترفضه وتقاومه » . وارتأى المؤتمر ميدان الوحدة الجغرافي « خير بقاع في آسيا وأفريقيا » ^(١) أي المشرق والمغرب العربيين .

وقرر المؤتمر عقد مؤتمر اوسع في ربيع ١٩٣٣ ليضع اسس حركة عربية وحدوية ويصوغ منهاجها وأساليب تحقيق اهدافها . وتجاوباً مع هذه المبادرة تألفت لجنة من كبار الساسة العراقيين ^(٢) افترض فيها ان تكون نواة للجنة تضم مندوبين عن سائر الاقطار العربية لإعداد المؤتمر وللعمل على انقاذ سوريا وتحقيق آمال العرب في مختلف اقطارهم .

(١) من العناصر التي حضرت المؤتمر الزعيم التونسي عبد العزيز الثعالبي ، ورشيد رضا ، وعبد الرحمن عزام الذي شغل منصب سكرتير الجامعة العربية عند تأسيسها ، وشكري القوتلي رئيس جمهورية سوريا فيما بعد ، ورياض الصلح رئيس وزراء لبنان السابق ، وسعد الله الجابري ، ومزاحم الباجه جي . وهؤلاء ينتمون الى البرجوازية المتزجة بأسياد الارض الكبار : « الوحدة العربية » ، محمد عزة دروزة ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) وهم من المتلفين حول الملك فيصل ، امثال نوري السعيد وياسين الهاشمي وجميل المدفعي : « مذكراتي على هامش القضية العربية » ، اسعد داغر ، ص ١٨٨ .

ولكن اللجنة توقفت عن العمل بضغط الامبرياليين البريطانيين والفرنسيين وبذلك انتهى المؤتمر العربي الموعد (١) .

وجرت المحاولة الثانية لإقامة حركة عربية واحدة ، في كانون الاول ١٩٣٨ . انذاك عقد الطلاب الجامعيون العرب في اوروبا مؤتمراً حضره طلاب من اقطار المشرق العربي وأيسده طلاب المغرب العربي الذين لم يتمكنوا من حضوره .

وتصور المؤتمرون العالم العربي بمشرقه ومغربه ودعوا الى تكتل الاقطار العربية اتحادياً برضاها لا بالعرف والقسر كما طالبوا في برنامجهم الوحدوي بإصلاحات اقتصادية واجتماعية وسياسية ، استوحوها من مبادئ الثورة البرجوازية الديمقراطية ومن بعض شعارات الاشتراكية الديمقراطية .

وقد ربطوا ربطاً عضوياً بين التحرر القومي من الاستعمار والوحدة العربية وبين الإصلاحات الاجتماعية للنهوض صناعياً وزراعياً بالأقطار العربية . وأبرزوا أهمية رفع مستوى معيشة الجماهير واقترحوا تنظيم النقابات والجمعيات التعاونية (٢) .

ولكن هذا المؤتمر الذي ربط بين مكافحة الامبريالية والوحدة العربية رأى في العراق قاعدة الوحدة ، ولم يلاحظ ان العراق يقع في قبضة الامبريالية

(١) وصف اسعد داغر احد العاملين في اعداد المؤتمر في كتابه « مذكراتي على هامش القضية العربية » ، ص ١٩١ ، الضغط الامبريالي فكتب : « وكانت انكلترا اشد الدول رغبة في ذلك (في منع المؤتمرات) وكانت حجتها ان هذا المؤتمر سيدعى اليه كثيرون من زعماء مصر وافريقيا الشمالية وأنها لا تستطيع لاهي ولا فرنسا ان تقف مكتوفة الايدي امام النتائج التي قد تنشأ في بلادها المسؤولين عن استقرار السكينة والهدوء فيها » .

(٢) كراس « المؤتمر الاول للطلاب العرب » ، دار الاحد ، بيروت ١٩٣٩ . وجدير بالملاحظة ان المؤتمرين ابرزوا في وثيقتهم ان الاستعمار يؤجج الاحتراب القومي بين العرب واليهود في فلسطين ، ولذلك فبغايه ان تكون صعوبة في تسوية المشكلة باحترام حقوق اليهود ومساواتهم مع سائر المواطنين العرب وتمثيلهم في اجهزة الدولة ومنحهم الاستقلال في شؤونهم ذات الصبغة الداخلية (ص ١٣٣) .

البريطانية . واقتفى أثر الحركات القومية التي كانت تطالب بالاستقلال وبمعاهدات مع الدول الامبريالية (١) .

وإلى جانب هذا بدأت محاولات الهاشميين ، التي أصبحت مرافقاً لحركات الوحدة العربية فيما بعد، لإقامة الهلال الحصب (٢) بتوحيد العراق وسوريا (٣) . ولكن هذه المحاولات كانت تخفي وراءها ، عدا مصالح الهاشميين وأنصارهم أسياد الارض ، مصالح الامبريالية البريطانية وأعوانها . فالامبريالية البريطانية كانت آنذاك تحاول إبعاد الامبريالية الفرنسية واحتلال مكانها في سوريا ولبنان أولاً وتوطيد مواقعها بضرب الحركات القومية العربية المتقدمة وخاصة في سوريا .

ومن جديد برز التيار الشعبي في حركة الوحدة العربية . ففي ١٩٣١ عقد مؤتمر الاحزاب الشيوعية في سوريا ولبنان وفلسطين وأصدر بياناً جاء فيه ان النظام الامبريالي السائد في البلاد العربية لا يقوم فقط على « استعباد وإخضاع الشعوب العربية بل على الواقع بأنها جزئت وفقاً لمصالح العالم الامبريالي ... ان أهم واجب من واجبات الكفاح الثوري التحرري من الامبريالية في منطقة الشرق الادنى الواسعة هو حل قضية العرب القومية ... (وهي) ... قضية الوحدة القومية والاستقلال لأن العرب ذو لغة واحدة وتقاليد تاريخية واحدة وعدو واحد » (٤) .

(١) المصدر ذاته .

(٢) وفيما بعد سوريا الكبرى ، بتوحيد شرقي الاردن وفلسطين ولبنان وسوريا تحت العرش الهاشمي برياسة امير شرق الاردن عبد الله .

(٣) كتب امين سعيد في « الثورة العربية الكبرى » ، الجزء ٣ ، ص ٥٧٨ ، ان بعض العناصر في سوريا ولبنان وقعت عرائض دعت فيها الى توحيد سوريا والعراق تحت التاج الهاشمي في ١٩٣٣ .

(٤) كما جاء في مقال « احمد نبيل الهلالي » بعنوان « وحدة قوى ثورية ام حركة عربية واحدة ؟ » ، الكاتب (القاهرة) عدد ايار ١٩٦٧ .

وشهدت هذه الفترة نشوء حركات وتيارات اقليمية رجعية ^(١) كانت في بعض الحالات تخدم الامبريالية . والتيار الاول من هذا النوع عرف بالقومية الفرعونية وشاع بديهياً في مصر ^(٢) . ولكن هذا التيار لم ينف الصلة بالعروبة وبالثقافة العربية - الاسلامية . ولم ينفرد هذا التيار في العمل الفكري . فمن الناحية الواحدة كانت قيادة الحركة القومية في مصر تشترك مع سائر القيادات القومية العربية في التضامن مع كفاح الشعب العربي في فلسطين ، ومن الناحية الاخرى كان بعض قادتها ينادون بالوحدة العربية . وكتب احد زعماء الوفد البارزين مكرم عبيد ان المصريين عرب، تربطهم بالعرب اللغة والثقافة والجوار، وان الاستعمار هو الذي يحاول عرقلة تحقيق الوحدة العربية ^(٣) .

أما التيار الثاني فعرف بالتيار القومي الفينيقي وشاع بديهياً في سوريا . ولكنه تميز عن سابقه بأخذه شكلاً تنظيمياً في الحزب القومي السوري . واعتمدت ايدولوجية هذا الحزب على ان سوريا مجتمع مستقل ولا صلة للسوريين بالعرب وان فكرة القومية العربية عقيدة فاسدة ^(٤) . وثبت مع الايام ان هذا الحزب ، انتهج الاسلوب الفاشي في تنظيمه ، والمبادئ النازية في ايدولوجيته وتقلب في ارتباطاته بين الامبريالية النازية قبل الحرب العالمية الثانية وبالامبريالية البريطانية والاميركية بعد الحرب العالمية الثانية ^(٥) .

(١) ونستخدم اصطلاح اقليمي رجعي، لأن الحركات القومية الاقليمية، كما اظهرنا ، لم تنف انتسابها الى العروبة .

(٢) ظهر في الصحافة المصرية وتأثر به طه حسين الذي كتب بهذا المعنى في مجلة المكشوف عام ١٩٣٨ (اثبت النص ساطع الحصري في «آراء وأحاديث في الوطنية والقومية» الطبعة الثانية، بيروت ، ص ٩١ - ١٠٠) وجسمه صلاح ذهني في كتابه « مصر بين الاحتلال والثورة » ، القاهرة ١٩٣٩ ، ص ٧٠ / ٧١ .

(٣) من مقال « المصريون عرب » ، عدد الهلال الذهبي الخاص ببحث « العرب والاسلام في العصر الحديث » ، نيسان ١٩٣٩ ، ص ٣٢ .

(٤) راجع كتاب زعيم الحزب انطوان سعادة « نشوء الأمم » .

(٥) بعد مؤامرة قلب نظام الحكم في لبنان عام ١٩٤٩ اعتقلت السلطات رجال الحزب =

ومن جديد واجهت فكرة القومية العربية فكرة الرابطة الاسلامية التي تجسمت هي الاخرى تنظيمياً في « الاخوان المسلمين » الذين نشطوا في مصر وأقاموا فروعاً لهم في عدد من الاقطار العربية المشرقية .

وصدر الاخوان المسلمون عن اعتبار « حدود الوطنية بالعقيدة لا بالتخوم الارضية والحدود الجغرافية ، فكل بقعة فيها مسلم له حرمة وقداسته ... وكل المسلمين في هذه الاقطار الجغرافية اهلنا واخواننا ... (في حين) ان دعاة الوطنية ليسوا كذلك » ^(١) .

ولم يقاوم هذا التيار الفكرة القومية العربية مباشرة بل اعتبر وحدة الشعوب العربية خطوة في سبيل تحقيق الجامعة الاسلامية وكان دعاة يعلنون ان الاسلام لن ينهض بغير اجتماع كلمة العرب ^(٢) .

واتفق هذا التيار الاسلامي المنظم مع التيار القومي السوري المنظم ، على الرغم من التباين الايديولوجي ، على مكافحة الشيوعية ، واستخدم الاخوان المسلمون الديماغوجية الاجتماعية وبعض نصوص الدين الداعية الى المساواة لامتناس ثورية الجماهير المصرية الكادحة التي كان الاستغلال الطبقي يزيد من كفاحيتها الطبقيية... وقد تدهور التنظيمان الى هيئات تآمرية ^(٣) لم يعد لهما نفوذ في الاقطار العربية المشرقية .

والسؤال : الى أين وصلت قضية الوحدة العربية في هذه الفترة ؟

لقد استمر التماز الاجتماعي من ناحية وتعمق الصراع الطبقي من ناحية

= السوري القومي وقدمتهم الى المحاكمة حيث ثبتت صلاتهم بالامبريالية . آنذاك اصدرت وزارة الانباء هذه الوثائق في كتاب « قضية الحزب القومي » ، ١٩٤٩ .

(١) « الاخوان المسلمون والمجتمع المصري » ، محمد شوقي زكي ، ص ٥٨ - ٥٩ .

(٢) المصدر ذاته ، ص ٦٠ .

(٣) كانت آخر مؤامرة على الحكم في لبنان قام فيها الحزب السوري القومي في نهاية عام

١٩٦١ وآخر مؤامرة قام بها الاخوان المسلمون في مصر عام ١٩٦٦ .

اخرى واستمر التغيير المستمر في توازن القوى. وأصبح من الممكن رؤية معالم اكثر من اتجاه وحدوي يناظر كل منها قوة من القوى الطبقية في المجتمع العربي. فطبقة اسياذ الارض الكبار ومؤيديهم ممن التفوا حول الملوك، مثل فيصل وعبد العزيز آل سعود، كانت ترى في الوحدة العربية اثتلافاً علوياً او توحيداً من فوق يتم بسياسة رجعية موالية للامبريالية او بمعاونة الامبريالية بعيداً عن الجماهير او العمل السياسي... ومثل هذا التوحيد تجسم في معاهدة الاخاء العربي الشككية. وسعى من اجله اسياذ الارض الكبار وأعاونهم في سوريا حين وقّعوا على عرائض تدعو الى توحيد سوريا والعراق تحت تاج فيصل. ولم تكن هذه القوى متجانسة بل متناقضة. والواقع ان السياسة العربية العامة بقيت لمدة طويلة تتأرجح بين التناقض السعودي والهاشمي. واتضح هذا الصراع بين العائلتين المالكيتين في العربية السعودية من ناحية والعراق وشرق الاردن من ناحية اخرى في حياة الجامعة العربية واستمر الى وقت كبير. ولم يكن من الصعب حتى في هذا الوقت المبكر رؤية استحالة قيام وحدة عربية بقيادة الملكيين.

وكان الاتجاه الوحدوي الثاني اتجاه البرجوازية العربية في مصر وسوريا والعراق وتونس وغيرها. وهذا الاتجاه، الذي اعرب عنه مؤتمر القدس في ١٩٣١ ومؤتمر الطلاب الجامعيين في اوروبا في عام ١٩٣٨، بتبني الايديولوجية البرجوازية، ويتصور الوحدة العربية لا في حدود المشرق العربي، مثل اتجاه اسياذ الارض، بل في مشرق العربي ومغربه.

ولكن هذا الاتجاه امتزج تنظيمياً مع اتجاه اسياذ الارض، وظهر هذا في محاولة مؤتمر القدس تنظيم حركة وحدوية تحت اشراف الملك فيصل المهادن للامبريالية البريطانية. كما ظهر في توجه مؤتمر الطلاب الجامعيين نحو بناء الوحدة حول أنظمة الحكم العربية الموالية للامبريالية.

وفي حين اتجهت العناصر البرجوازية العربية في سعيها لتحقيق الوحدة العربية في اتجاه مقاومة الامبريالية واعتبرت الامبريالية العقبة الجوهرية في

التجزئة انتهجت في سياستها نحو التعاون مع القوى الموالية للامبريالية . ولهذا أخفقت حتى في اقامة تنظيم عربي واحد يجمع القوى القومية في الاقطار العربية ...

ان التطور الهام في فكرة الوحدة العربية كان في انتشارها وتغلغلها بين الجماهير العربية الى حد ما ، وفي تصورها الواضح لميدان الوحدة الجغرافي الشامل المشرق والمغرب . ولكن قضية الوحدة لم تتقدم تنظيمياً ولم تجد طريقاً لتنسيق الجهود العامة من اجل تحقيقها .

قيام الجامعة العربية في ظروف الحرب العالمية الثانية

واندلعت الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥ بفعل التناقضات الامبريالية بين دول المحور التي تطلعت الى السيطرة على العالم والدول الامبريالية القديمة . ولقد أدت الحرب العالمية الثانية الى اتساع ميدان نشاط الامبريالية الاميركية على الصعيد الدولي وازدياد تسربها الى مواقع حساسة ، استراتيجياً واقتصادياً . ومن أبرز الميادين التي حاولت الامبريالية الاميركية اجتياحها ميدان الشرق الأوسط الغني بالنفط والهام استراتيجياً . وأحد النتائج السريعة لتلك الحرب ، عدا اليقظة السياسية المتزايدة بين الشعوب العربية ، اضطراب الدول الامبريالية الى اشاعة بعض مظاهر الديمقراطية البرجوازية ...

وبسبب حاجتها الى تقوية الجهود الحربي ، اضطرت الدول الامبريالية ، وخاصة بريطانيا ، الى التسامح مع البرجوازية الصناعية في بعض الأقطار العربية مثل مصر ، وانشأت الورش والمنشآت العسكرية في مصر وفلسطين وسوريا والعراق حيث تجمع ألوف العمال .

وهكذا عجلت الحرب في نمو البرجوازية القومية الى حد ما وفي نمو الطبقة

العاملة نمواً جدياً. وكان من الطبيعي ان تسرع كذلك عمليات التمايز الاجتماعي والطبقي في هذه الاقطار التي مستها التطورات . وحتى في العربية السعودية ، حيث حكمت الاقطاعية القبلية وكان النمو الرأسمالي بدائياً ، نشأت طبقة عاملة تعد بالآلاف في صناعة النفط التي تأسست في عام ١٩٣٣ إثر امتيازات النفط التي فازت بها احتكارات النفط الاميركية .

وزيادة قوة البرجوازية العربية واثار الاحداث العالمية اسرعتا في حركة الوحدة العربية. وفي عام ١٩٤٤ ارتفع التعاون بين الحركات القومية في المغرب العربي الى مستوى أعلى واجتمع ممثلوها في تونس والجزائر والمغرب وأقاموا جبهة شمال افريقيا وهدفها الدفاع عن الاقطار الثلاثة .

وفي مصر ازداد تطلع البرجوازية الى الوحدة العربية ونشطت المنظمات الداعية لها ، وهذا خلق الاوضاع لأن تأخذ مصر المبادرة في السعي لتحقيق الوحدة^(١) . ومن هذه الجمعيات جمعية الوحدة العربية التي اعلنت في برنامجها ان الأمة العربية تسكن الأقطار الممتدة بين المحيطين الاطلسي والهندي . وعرفت العرب باولئك الذين لغتهم اللغة العربية ويتأدبون بأداب الأمة العربية. ورفضت هذه الجمعية التجزئة واعتبرت الوحدة حاجة طبيعية لتحقيق استقلال العرب. كما قدرت ان الاقطار العربية تؤلف تكاملاً اقتصادياً وأن لا تنافس بين اقطارها . لقد عاجلت هذه الجمعية في بياناتها الحياة الاجتماعية

(١) الناشر : هنا ينقل الكاتب هذه الفقرة من مصدر اجني كما يبدو ، ولكنه لم يثبت اسم الكاتب او الكتاب في النسخة التي نقلنا عنها هذه الدراسة . والفقرة هي التالية : « انتشرت فكرة الجامعة العربية الى افريقيا خلال الحرب العالمية الثانية فقط... والطبقات العليا في مصر ، وقد تمتعت بفترة ازدهار صناعي ونمو (نتيجة حماية صناعة الغزل والنسيج من المنافسة البريطانية بسبب قيود الحرب على الملاحه مما أدى الى تقدمها الكبير) بدأت تقدر ميدان السوق العربية . والبرجوازية ، في حلف مع اسيا الارض ، طورت فجأة مطامح سياسية كبيرة... ان كون مصر مركز الاشعاع الثقافي ، والدولة الاقوى اقتصادياً واجتماعياً ، جعلها تتطلع الى مركز قيادة العالم العربي » .

وروجت الى مناهج في الحياة تعرب عن ايدولوجية الديمقراطية البرجوازية^(١). ومن هذه الجمعيات الاتحاد العربي الذي امتاز بمعالجة الشكل الوحدوي ورأى ان الاتحاد (الفيدرالي) هو الطريق نحو الوحدة .

وأدركت الدول الامبريالية قوة الوحدة العربية وأرادت اخضاعها لمصالحها . وجاءت حركة رشيد عالي الكيلاني في العراق في ايار ١٩٤١^(٢)، والهبات القومية في سوريا وغيرها وتصريحات الفاشيين بتأييدهم الوحدة العربية، حافزاً للامبريالية البريطانية لتقوم بعمل يجذب الحركات القومية العربية الى جانبها ويفوت الفرصة على المحوريين الذين نجحوا في كسب ولاء بعض القادة القوميين التقليديين^(٣) .

وفي ايام ايار ١٩٤١، في وقت حركة رشيد عالي الكيلاني، صرح وزير خارجية بريطانيا عن عطف حكومته على امانى القوميين العرب في الاستقلال وتأييدها للمفكرين العرب الذين يرغبون في تحقيق قدر اكبر من التعاون بين الشعوب العربية^(٤) .

وتحرك الساسة الهاشميون الامير عبد الله في الاردن ونوري السعيد رئيس وزراء العراق لتحقيق مشروع سوريا الكبرى وطرحوا على بساط البحث

(١) « مذكراتي على هامش القضية العربية » : بقلم اسعد داغر ، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ . وقد شغل احد مراكز القيادة في هذه الجمعية عبدالرحمن عزام السكرتير الاول للجامعة العربية .

(٢) تطلق على الانقلاب العسكري الذي اقام وزارة معادية للامبريالية البريطانية ، إلا ان بعض قادتها كانوا من الموالين لألمانيا النازية ، ولهذا اتصفت بازدواجية الصفات ، فبينما اعربت عن عداء الشعب للامبريالية البريطانية فقد انحرف بعض قادتها نحو المحور .

(٣) امثال مفتي القدس الحاج امين الحسيني احد زعماء القوميين الفلسطينيين العرب .

(٤) « الدولة العربية الكبرى » محمود كامل ، ص ٥٥٤ . وقد لاحظ نيفل باربوا انه : « في عام ١٩٣٩ كانت حركة العمل على تحقيق الوحدة العربية قد تقدمت تقدماً كبيراً وأن الحرب عجلت بتحقيق الكثير من اهدافها ، ولعل اهم ما ساعد على ذلك تقدم الاذاعة باللغة العربية ... فقد ساعد ذلك على نشر الاسلوب العربي السهل ، الذي يعد بمثابة لغة دولية للعالم العربي وهو بذاته أداة فعالة لتحقيق الوحدة » ، ص ٢١٢ .

مشروعات تستبعد مصر وتهدف الى توحيد سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الاردن لتوطيد العرش الهاشمي وخدمة الامبريالية البريطانية التي رأت في هذا المشروع وسيلة لمد نفوذها الى سوريا ولبنان وتصفية مواقع الامبريالية الفرنسية عن هذا الطريق .

ولم تلق هذه المشاريع اصداء رصينة في العالم العربي . ولهذا كان الجو أفضل حين جاءت المبادرة من رئيس الحكومة المصرية وزعيم الوفد آنذاك مصطفى النحاس .

وأجرى النحاس مباحثات مع رؤساء الحكومات العربية المستقلة ومن بينها رئيسا سوريا ولبنان، القطرين اللذين اعترفت باستقلالهما بريطانيا وفرنسا إبّان الحرب .

وأعربت هذه المحادثات عن تيارين رسميين في التوجه نحو الوحدة العربية على النطاق الحكومي . الاول ويمثله الهاشميون وانصارهم من اسياة الأرض والموالين لهم في العراق وسوريا وفلسطين وشرق الأردن ويدعو الى تنفيذ مشروع سوريا الكبرى^(١) والثاني تمثله البرجوازية السورية التي رفضت هذه الوحدة الضيقة ودعت الى وحدة اوسع .

وفي حين رفض الهاشميون، عند احباط مشروعهم، وحدة عربية مركزية تلزم اعضاءها، دعا ممثلو سوريا الى اقامة وحدة عضوية بزعامة مصر وصرحوا انهم لا يحجمون عن التنازل عن سيادة سوريا في سبيل هذا الهدف^(٢) .

ويصح التقدير هنا ان البرجوازية في مصر وفي سوريا كانت تحركها نحو الوحدة عوامل اقتصادية ، عدا العوامل القومية العامة والرغبة في دولة قوية . ورأت البرجوازية العربية في الوحدة سبيلا لخلق ظروف تسرع في التصنيع

(١) « الدولة العربية الكبرى » لمحمد كامل ، ص ٥٥٤ / ٥٥٥ .

(٢) كتاب : « القومية العربية من الفجر الى الظهر » ، للدكتور حسني علي الخروبلي ،

ص ١٨٣ .

والتسويق والتطور الاقتصادي الشامل . ولهذا كانت تصطدم بالامبريالية
وبالقوى التي تؤيدها والتي تمثلت بالهاشميين .

وبعد المحادثات وقع ممثلو الدول العربية المستقلة سياسياً (وشكلياً في أغلب
الأحيان) على بروتوكول الاسكندرية في ٧ تشرين الاول ١٩٤٤ . ثم وقعوا
الميثاق^(١) وقامت الجامعة العربية رسمياً في ٢٢ آذار ١٩٤٥ .

وأثبت الميثاق الروابط العديدة التي تربط بين الدول العربية وإن الموقعين
عليه حرصاً على دعم الروابط ، وتأمين مستقبل البلاد العربية ، واستجابة
للرأي العام في جميع الاقطار العربية ، اتفقوا على ان تتألف الجامعة العربية
من الدول العربية المستقلة الموقعة على الميثاق وقرروا ان الهدف « تنسيق
خطتها السياسية تحقيقاً للتعاون بينها وصيانة لاستقلالها وسيادتها » ...
« وكذلك من اغراضها تعاون الدول المشتركة في ... الشؤون الاقتصادية
والمالية ويدخل في ذلك التبادل التجاري والجمارك والعملية وأمور الزراعة
والصناعة »^(٢) .

وألحق بالميثاق ملحقان الواحد خاص بفلسطين يعلن استقلال فلسطين
الشرعي وإن الجامعة ستختار مندوباً عنها حتى يزول ما يحجب عنها ممارسة
استقلالها^(٣) ... والثاني خاص بالتعاون مع الدول العربية غير المشتركة في
الجامعة ويوصي الجامعة بإشراك مندوبين عنها في اللجان التي ستعالج اموراً
تتعلق بالعالم العربي كله^(٤) .

لقد صور قيام الجامعة العربية حصيلة واقع العالم العربي . وبما ان استقلال
الدول العربية التي ألفت الجامعة كان مشوهاً جاءت الجامعة مشوهة . وكان من

(١) وقعت آنذاك : مصر ، العربية السعودية ، العراق ، سوريا ، لبنان ، اليمن
وشرق الاردن .

(٢) « حركات الوحدة في الوطن العربي »، فتحي الطوبجي، القاهرة، ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٣) المصدر ذاته ، ص ١٠٨ .

(٤) المصدر ذاته ، ص ١٠٩ .

الطبيعي ان ينعكس فيها الى حد ما التياران الوجدانيان ، تيار اسياذ الارض وتيار البرجوازية .

وبقدر ما كان النفوذ الامبريالي قوياً في هذا القطر او ذاك بقدر ما كان ذلك واضحاً في حياة الجامعة العربية . ولم يكن من الصعب مع مرور الايام تحول الجامعة العربية الى ميدان صراع بين العناصر الموالية للامبريالية البريطانية والعناصر الموالية للامبريالية الاميركية ... وفي يوم من الايام كان معروفاً ان الجبهة الهاشمية تمثل الولاء للامبريالية البريطانية بينما جبهة الرياض (السعودية) والقاهرة (مصر) تمثل الولاء للامبريالية الاميركية .

وفي هذه الظروف انتقل التناقض بين الجماهير العربية وحكوماتها من الصعيد الاقليمي الى ميدان الوحدة العربية المثلة في الجامعة وأشدت الدعوة لتحويل الجامعة العربية الى طريق مكافحة الامبريالية .

وعند هذا الحد من الممكن تقويم الجامعة العربية :

— جسم قيام الجامعة فكرة الوحدة العربية دولياً لأول مرة في التاريخ المعاصر ، ولم يغير من أهمية ذلك مساعي الامبريالية الناجمة في كثير من الاحيان استخدامها لأغراضها او تجميدها ابان المعارك القومية الاستقلالية .

— اشاعت فكرة الوحدة الى حد لم يسبق له مثيل وأصبحت مركز التفاف للحركات القومية العربية التي لم تحقق استقلالها السياسي بعد . وهكذا حين تأسست لجنة تحرير المغرب العربي في القاهرة في اواخر ١٩٤٧ ، وكانت تطويراً لجبهة تحرير شمال افريقيا ، اعلنت باسم الحركات القومية في تونس والجزائر والمغرب الأقصى ان المغرب جزء لا يتجزأ من بلاد العربية ^(١) وتعاونوه في

(١) تضاعف اهتمام الصحافة العربية بالمغرب العربي اثناء مباحثات الجامعة ، وأصدرت جمعية الرابطة المغربية في ١٩٤٤ بياناً تعلن فيه ان المغرب جزء لا يتجزأ من الميراث العربي وأن شعوبه مخلصه للعروبة رغم محاولات الامبرياليين محو روابطه مع العالم العربي . وكتب طه حسين الذي تخلص من آثار الفرعونية يؤكد انه لا يمكن اهمال المغرب العربي. وكتب علل القاسي : =

دائرة الجامعة العربية على قدم المساواة مع بقية الاقطار العربية امر طبيعي ولازم .

— وأصبحت قضية الوحدة العربية من برامج اكثر الاحزاب السياسية في الدول العربية المتقدمة الاعضاء في الجامعة العربية ، وظهرت حركات عربية تحاول ان تنظم على اساس عربي شامل .

— ونجحت سلبياً في عدم الخضوع لأوامر الامبريالية العدوانية ولهذا تجاوزها الامبرياليون بعد الحرب في محاولتهم جر الاقطار العربية الى احلاف عدوانية مثل قيادة الشرق الاوسط وحلف المتوسط .

— وتعمقت الفكرة القائلة بارتباط الوحدة بالنمو البرجوازي... فوجودها جذب البرجوازية النامية في الاقطار العربية . وظهر هذا عينياً في المذكرة التي بعث بها حزب الاستقلال المغربي الى الجامعة العربية وجاء فيها « امام المغرب اختيار بين اتحادين : الاتحاد الفرنسي والاتحاد العربي . أما الاتحاد الفرنسي فالمغرب يجد نفسه فيه في تناقض مع فرنسا قياساً على الماضي فهو لم يكن سوى موطن استغلال ، فثروته سخرت لثلة من المستعمرين الذين يعيشون عالة على السكان . أما الاتحاد العربي فسيجد فيه المغرب نفسه في عائلة شرقية انتسب اليها منذ قرون عشرة وسيكون فيها متمتعاً بكامل الحرية في الاستفادة من تجارب اشقائه لتجديد انظمته ثم المشاركة في احياء هذه الحضارة »^(١) .

وهكذا فالبرجوازية القومية ، في المغرب الأقصى ، التي حرمتها الاحتكارات الفرنسية من التطور ، رأت في الاتحاد العربي طريقاً للتخلص من هذه الاحتكارات ومجالاً للنهوض .

== « لقد اصبحت قضية الجامعة العربية جزءاً لا يتجزأ من برنامج الحركة المغربية ، والقضايا التي تعمل لها جزء لا يتجزأ من اماني الجامعة العربية وأعمالها » ، « الحركات الاستقلالية في المغرب العربي » ، ص ٥٣١ .

(١) « الحركات الاستقلالية في المغرب العربي » ، غلال الفاسي ، ص ٩٣ ؛ .

وتجاوبت الجامعة العربية مع معارك المغرب العربي الى حد ما ، فاهتمت بقضايا تلك الاقطار، ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الاقصى وواصلت إرسال المذكرات الى مختلف المحافل الدولية وتوجيه الدول الاعضاء الى اثارة تلك القضايا في هيئة الامم المتحدة .

ولكن نجاح الجامعة العربية لم يكن عميقاً فقد افتقرت الى الفحوى الجوهرية الذي كان من الممكن توطيده : فحوى مكافحة الامبريالية ... ورؤيا القائمين عليها في هذه الفترة كانت رؤيا التسوية مع الامبريالية السائدة... ولذلك خلت اهدافها من الدعوة الى القضاء على الامبريالية بوصفها العقبة الاساسية امام تحرر الاقطار العربية سياسياً واقتصادياً .

فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية واتساع قاعدة الحركة العربية الوحدوية

قيام الاتحاد السوفياتي بدور حاسم في هزم المانية النازية وايطاليا الفاشية واليابان العسكرية انزل ضربة قوية بالقوى الامبريالية العالمية وغير توازن القوى في العالم ، وأطلق موجة عالمية من التحرر القومي والاجتماعي ... وانفصلت اقطار في اوروبا وفيما بعد في آسيا عن الرأسمالية والامبريالية العالمية وانتصرت الثورة الصينية وتداخلت الثورة القومية التحررية مع الثورة الاشتراكية على نطاق واسع .

وسرت في العالم العربي موجة تحرر قومي تناوب عليها المد والجزر . وحاولت الامبريالية يسندها جوهرياً أسياذ الارض والبرجوازية المرتبطة بالاحتكارات ، صيانة مواقعها والقضاء على الانتفاضات الثورية الشعبية مثل انتفاضة مصر بقيادة العمال والطلاب في شباط ١٩٤٦^(١) ، وثبة العراق في

(١) « تطور الحركة الوطنية في مصر ، ١٨٨٢ - ١٩٥٦ » ، شهدي عطية الشافعي ،

كانون الثاني عام ١٩٤٨ . وحين كانت تتراجع الجماهير كان تراجعها مؤقتاً وكانت لا تلبث ان تعود الى المعركة، وفي هذه الظروف استمرت ازيمات الحكم في كافة الاقطار العربية وانعكست في الانقلابات العسكرية والتغيرات الوزارية .

وأثرت قضية فلسطين ، التي كانت تستنفر التضامن العربي ، على مسيرة الاحداث في المشرق العربي وعلى الجامعة العربية. فما هي معالم القضية البارزة ؟ - في ١٩٤٧ قررت الامم المتحدة تقسيم فلسطين الى دولتين : عربية ويهودية .

ووقعت الحرب الفلسطينية ، وانتهت الامور الى قيام دولة اسرائيل على رقعة من الارض اوسع من تلك التي قررت لاسرائيل بموجب قرارات هيئة الامم وضم ما بقي من القسم العربي الى شرق الاردن وأصبح قطاع غزة تحت الادارة المصرية ، وشرّد مليون عربي .

- بنشوء اسرائيل نشأ وضع جديد في العالم العربي . فحركة الوحدة العربية التي اعتبرت فلسطين جزءاً من العالم العربي وركناً من أركانها ، وحركة التضامن العربي التي بلغت أعلى المستويات تضامناً مع الشعب العربي الفلسطيني واجهتها دولة غربية، تحتل مركزاً استراتيجياً في قلب العالم العربي وفي مركز الارتباط بين مشرقه ومغربيه ، وتتجه في سياستها الخارجية نحو التعاون مع الامبريالية في مقاومة حركة التحرر القومي والوحدة العربية ، كما دلت الاحداث وخاصة الحربان العدوانيتان في ١٩٥٦ و ١٩٦٧ .

- وأوقع اقتران الجامعة العربية بالحرب الفلسطينية الجامعة بأزمة شديدة مما أدى الى عودة بعض التيارات الاقليمية في مصر^(١) والى بعث تيار الجامعة الاسلامية^(٢) .

(١) « آراء وأحاديث في القومية العربية » ، ساطع الحصري ، و « هذا العالم العربي » ، نبيه امين فارس ومحمد توفيق حسين .

(٢) « القومية العربية من الفجر الى الظهر » ، حسني علي الخروبلي .

— بقي تيار الوحدة العربية جارفاً وجرت محاولات لتعديل ميثاق الجامعة العربية لمواجهة الاحداث ، ومن هذه المشاريع مثلاً مشروع ناظم القدسي رئيس وزراء سوريا ^(١) آنذاك، الذي وضع الاختيار بين الوحدة العضوية بين الاقطار العربية او اتحادها الفيدرالي وميَّز الاخير على اعتباره اقرب الى التنفيذ لتباين الظروف في الاقطار العربية .

— ومن مظاهر قوة دوافع الوحدة العربية إقرار الجامعة العربية « الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي » (عام ١٩٥٠) ، فكان بمثابة الرد السلبي غير الثوري على محاولات الدول الامبريالية اقحام الدول العربية المشرقية في الاحلاف العدوانية .

وفي هذه المرحلة التي امتدت الى عام ١٩٥٨ تفاعلت بعض العوامل في قضية الوحدة العربية :

١ — بدأت محاولة تنفيذ التعاون الاقتصادي في اتفاق الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي، ودفعت الجامعة اليه مؤتمراتُ الغرف الصناعية والزراعية والتجارية في الاقطار العربية (الشرقية) . فهذه المؤتمرات (وقد عقدت في ١٩٥٠ و ١٩٥١) أعربت عن الدوافع الاقتصادية في تأييد البرجوازية للوحدة. وفي اجتماع وزراء المال والاقتصاد القومي لدول الجامعة الذي عقد في بيروت في ٢٥ أيار ١٩٣٥ صاغ وزير الاقتصاد القومي اللبناني هذا العامل بخطابه الافتتاحي ، قال : « يجب ان لا يخطيء احد فيفكر في ان أية من الدول العربية تستطيع بشعبها وحده تحقيق درجة من التطور الاقتصادي والتصنيع يكفي لرفع مستوى حياة شعبها ويزودها بدرجة من القوة السياسية والعسكرية الضرورية للدفاع عن أمنها ويحميها إزاء الاخطار المحدقة بها » .

وكان هذا المؤتمر بداية ، أقامت الجامعة العربية بعده المجلس الاقتصادي العربي الذي وضع أسس الوحدة الاقتصادية العربية واتخذ بعض الاجراءات.

(١) في ١٩٥١ .

لتحقيق التعاون الاقتصادي ، إلا ان الاتفاقات الاقتصادية التي توقعها بعض الدول العربية تتعثر ، فالامبريالية تحتل مكاناً هاماً في اقتصاد الاقطار العربية وتتحكم الى حد ما في تجارتها ^(١) . كذلك تؤثر على هذه الاتفاقات العلاقات العربية الناجمة عن تباين سياستها وعلاقاتها الدولية .

٢ - تبلور سعي الحركات القومية في المغرب العربي في تونس والجزائر والمغرب الأقصى لإقامة وحدة اتحادية ^(٢) بينها في دائرة الجامعة العربية .

٣ - اتسع العمل الوحدوي بين الجماهير التي كانت ترى ان الجامعة العربية لم تحقق الآمال التي عقدت عليها . وفي ١٩٥٠ جرت محاولة لعقد مؤتمر عربي شعبي هدفه العمل على مقاومة الضغط الامبريالي على الحكومات العربية الذي أعاق عمل الجامعة العربية . إلا انه لم يعقد لأن العاملين في ميدانه كانوا ينتمون الى القوى الطبقية الحاكمة في الاقطار العربية .

٤ - هذا الاتساع اتخذ شكل مؤتمرات « مهنية » أقامت منظمات دائمة . ومن هذه مؤتمرات الأطباء والمحامين والمعلمين والأدباء والمهندسين والخريجين الجامعيين . كل هذه المؤتمرات والمنظمات العربية العامة جسمت فكرة الوحدة العربية . إلا ان مؤتمرات المحامين والخريجين عاجلت قضية الوحدة العربية عينياً . ومؤتمر الخريجين الثاني الذي عقد في القدس في أيلول ١٩٥٥ واشترك

(١) بين ١٩٥٧ و ١٩٦٠ استورد العراق من الدول الامبريالية بمعدل ٦٧ ٪ من مجموع استيراده واستوردت مصر ٥٢ ٪ وسوريا ٥٨ ٪ . وكانت صادرات العالم العربي للسوق الاوروبية (اي بدون بريطانيا والولايات المتحدة) ٤٦ ٪ او ٣٠٦٦ مليون دولار ووارداتها ٣٨ ٪ من اجمال الواردات او ١٩٣١ مليون دولار ، «الاهرام الاقتصادي» ١٥ / ٣ / ٦٧ . هذا بالإضافة الى امبراطورية النفط التي تحتل مكاناً جوهرياً في اقتصاد العالم العربي مشرقه ومغربه ، وتزود الاحتكارات بئات ملايين الدولارات .

(٢) تم ذلك في مؤتمر طنجة ٢٧ - ٣٠ نيسان ١٩٥٨ ، وأيد المؤتمر استقلال الجزائر ، وقرر اقامة مؤسسات فيدرالية بين الدول الثلاث (مقال مشروع المغرب الكبير . « الاهرام الاقتصادي » ، ١٥ شباط ١٩٦٥) .

فيه ٥٠٠ جامعي من المشرق والمغرب العربيين جعل إقامة دولة اتحاد عربي واجباً من واجباته وهدفاً من اهدافه . كذلك صاغ مؤتمر المحامين الذي عقد في دمشق في أيلول ١٩٥٧ مشروعاً وحدوياً معتبراً تحقيق الوحدة الطريق لدرء الاخطار الامبريالية وحربتها المسمومة اسرائيل . كذلك دعا المؤتمر سوريا ومصر الى المبادرة لإقامة اتحاد فيدرالي يكون مفتوحاً للدول الاخرى التي تستطيع الانتساب اليه .

٥ - كانت الجامعة العربية قد أقرت المعاهدة الثقافية بعد قيامها في ١٩٤٥ لتوثيق الصلات والتعاون الثقافي وتطوير اللغة العربية . ولكن الامر الجديد في هذه الفترة تحرك الأدباء العرب لعقد المؤتمرات الدورية دعوا فيها الى مقاومة الامبريالية وبناء وطن عربي متحرر يحقق الأمان القومي وناشدوا الأدباء لإذكاء الروح العربية وتوطيد اللغة العربية .

٦ - لم يقتصر هذا النشاط على البرجوازية وأصحاب المهن الحرة بل امتد الى الطبقة العاملة . وفي آذار ١٩٥٦ أقام ممثلو نقابات العمال في مصر وسوريا ولبنان والاردن والسودان ، بحضور ممثلي ليبيا والعراق وتأييد عمال البحرين والكويت والعربية السعودية ، الاتحاد الدولي للعمال العرب ووضع من اهدافه مكافحة الامبريالية وتوطيد الوحدة العربية وتحقيق حياة أفضل ورفع مستوى معيشة العمال وتحقيق العدالة وتصنيع الوطن العربي^(١) .

٧ - تأكد ان مكافحة الامبريالية تستنفر التضامن العربي وتعمق ماهيته المعادية للامبريالية ، وظهر هذا في تأييد ثورة الجزائر والانتفاضات الثورية في أنحاء العالم العربي . وتجلى هذا التضامن بشكل مثير حين أمت الحكومة المصرية شركة قناة السويس في ١٩٥٦ . آنذاك ، في منتصف آب تظاهرت الجماهير في مختلف الاقطار العربية تأييداً لهذه الخطوة الثورية ، وعقد في

(١) « اتحاد العمال العرب وسياسته ، ومؤتمرات الاتحاد الدولي الحر ضد عمال افريقيا » ، محمود العجي وعبد المنعم الغزالي ، القاهرة ، ص ٣٧ .

البرلمان السوري مؤتمر شعبي بحضور ممثلي الحركات القومية والثورية في مشرق العالم العربي ومغربه قرر تأييد مصر في مكافحتها الامبريالية .

وحين وقع العدوان الاسرائيلي- البريطاني - الفرنسي على مصر في ١٩٥٦ ارتفع التضامن العربي الى المستوى الثوري ، فنسف العمال في سوريا انابيب النفط التي تنقل بترول العراق عبر أراضيهم ، وقاطع العمال في السودان الطائرات المدنية البريطانية والفرنسية ، ووقف العمال السعوديون ضخ البترول لفترة ما ، وأوقعوا بعض اعمال التخريب في الكويت . كذلك انفجرت انتفاضة قومية في البحرين جمعت بين التضامن مع مصر والمطالبة بحقوق الشعب القومية . وعلى الرغم من الارهاب ، تظاهرت الجماهير في العراق تضامناً مع مصر وتأييداً لمقاومتها حلف بغداد وحكومته الخائنة .

الوحدة بين مصر وسوريا

مثل كل الحركات والعمليات التاريخية ارتبطت قضية الوحدة العربية ، التي اصبحت تتويجاً للحركات القومية التحررية ، بالوضع العالمية. لقد عمقت سنوات الخمسين ما كان بادياً في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية، فتحول النظام الاشتراكي الى نظام عالمي . ورجحت كفة مجموعة الدول الاشتراكية والطبقة العاملة في الاقطار الرأسمالية والحركات القومية التحررية على الامبريالية. وكان من مظاهر ذلك اخفاق الولايات المتحدة في حربها العدوانية على كوريا وهزيمة فرنسا في الهند الصينية على أيدي الثورة القومية التحررية .

واتضح بوجه عام ان الحركات القومية في العالم لم تعد تكتفي بالاستقلال السياسي الشكلي، بل تحتاج المواقع الامبريالية السياسية والاقتصادية، وبعضها يسير في طريق التطور الاقتصادي المستقل .

وظهرت بشكل ملموس على مسرح الحياة السياسية اشكال متعددة من نمو الثورات البرجوازية القومية (او الثورات القومية التحررية) الى ثورات

اجتماعية، تتجسم مظاهرها في التحولات الاقتصادية والسياسية العميقة ، بحيث تؤدي الى التطور غير الرأسمالي .

واتخذت البرجوازية القومية ^(١) (التي ازداد تناقضها مع الاستعمار) مركز الصدارة في الحركات القومية العربية في الاقطار المتطورة نسبياً مثل مصر وسوريا .

ونمت الطبقة العاملة وتزايد نفوذها القومي الذي اقترن بالصراع الاجتماعي الطبقي وتعمق التمايز بين القوى الاجتماعية في الموقف من الامبريالية ومن التحرر القومي والوحدة العربية ^(٢) .

في ظروف الصراع الاجتماعي المتداخل في مكافحة الامبريالية، وفي ظروف الأحداث التاريخية التي جذبت الجماهير الى لجة السياسة اقتحمت البرجوازية

(١) في «تطور الحركة الوطنية المصرية، ١٨٨٢ - ١٩٥٦»، كتب شهدي عطية الشافعي ان في مصر في هذه الفترة كانت توجد ٦٨ منشأة تستخدم الواحدة ٥٠٠ عامل وأكثر، وكانت الصناعة المحلية مثل السكر والسجائر والملح والأنسجة القطنية والأحذية والصابون تسد الطلب المحلي بمعدل ٩٠ ٪ ، ص ١٣٦ - ١٣٧ .

(٢) كتب نبيه امين فارس ومحمد حسين في كتابها «هذا العالم العربي» ، ص ٨٠ : «ان العمال اصبحوا عناصر اساسية قوية في الحركة القومية وأن العمال المصريين بعد الغناء المعاهدة البريطانية المصرية في ١٩٥١ اخلوا المعسكرات البريطانية اسهاماً منهم في مكافحة الامبريالية» . وذكر عبد الرحمن الرافعي في كتابه «مقدمات ثورة ٢٣ تموز ١٩٥٢» : ان العمال في السكة الحديد امتنعوا عن نقل الجنود البريطانيين . ورفض عمال الموانئ تفريغ البواخر البريطانية . ونشرت الاهرام في ٢١ حزيران ١٩٥١ انباء اصطدام الفلاحين المسلح مع الاقطاعي البدراوي وقمع البوليس لكفاحهم، وفي مظاهرة عمال العنابر والسكك الحديد في القاهرة في ٢٦ كانون الثاني ١٩٥٢ ارتفع النداء بقطع العلاقات مع الامبريالية البريطانية واقامة تحالف مع الاتحاد السوفياتي («تطور الحركة الوطنية المصرية، ١٨٨٢ - ١٩٥٦» ، شهدي عطية الشافعي، ص ١٢٣) . وفي سوريا في ١٦ و ٢٩ آب جرت اصطدامات مسلحة بين الفلاحين وأسياد الارض بالقرب من حماة وحمص . ووقعت تمردات فلاحين في العراق بين ١٩٥٢ - ١٩٥٥ (من تقرير عن مسائل في الاصلاح الزراعي ، زكي خيري ، ص ١٦ / ١٨) واضراب العمال في منشآت النفط في العربية السعودية مما اربع السلطات (كراس جبهة التحرير الوطني في السعودية ، ص ٨) . هذه امثلة عن الكفاح الطبقي والقومي احياناً ، فهذا الكفاح شاع في اكثر الاقطار العربية .

الصغيرة والفئات الاجتماعية المتوسطة اكثر فأكثر الميدان السياسي وبدأت في عدد من الأقطار العربية تحتل مواقع هامة. وبفعل التوازن في الصراع الاجتماعي الداخلي ، واخفاق البرجوازية المتحالفة مع أسياد الارض على حله ، ونفوذ الافكار الاشتراكية المتزايدة بانجازات الاتحاد السوفياتي وسائر الاقطار الاشتراكية ، كل هذه العوامل جذبت البرجوازية الصغيرة والفئات الاجتماعية المتوسطة الى اليسار وتبنت ايدولوجيات تدعو الى الاصلاحات الاجتماعية .

وتضاعف التداخل بين الحركات القومية وحركة الوحدة العربية . وبرز هذا الأمر مثلاً حين انتسبت حكومة العراق الى حلف بغداد في شباط ١٩٥٥ . فالحركات القومية العربية قاومت الحلف لأنه فصل العراق عن الأقطار العربية ^(١) . وفي العراق قاومت الجماهير الحلف لأنه شق العراق عن العالم العربي ... وفي هذا الشأن اعلن ١٦ نائباً من البرلمان الذي عينه نوري السعيد ان حلف بغداد سبب الخلاف مع الاقطار العربية . كما ارسل زعماء المعارضة مذكرة الى الملك اعلنوا فيها ان الشعب العراقي يسعى الى تحقيق الوحدة العربية بينا العراق (الرسمي) لا يكتفي بالتخلف عن الركب بل يعيقه ويقوم بدور دمية في خدمة الامبريالية .

ولا جدال في ان الثورة العراقية التي حطمت الملكية واخرجت العراق من حلف بغداد كانت نموذجاً لهذا التداخل بين الحركات القومية والوحدة العربية . فقيام الوحدة بين مصر وسوريا في اوائل ذلك العام كان محركاً من محركات الثورة ، ولقاء زعماء الثورة وزعماء الجمهورية العربية المتحدة في دمشق

(١) في لبنان انعقد المؤتمر الوطني مثلاً كافة الاحزاب والمنظمات الوطنية وندد بالحلف لأنه يهدد اسس التضامن العربي (الطريق اللبنانية العدد ٤ ، ١٩٥٦) . وأطاحت هبة شعبية في الاردن في كانون الاول ١٩٥٥ بحكومة هزاع المجالي وأحبطت الانتساب الى حلف بغداد ، وسقطت الحكومة السورية في شباط ١٩٥٥ لأنها لم تقف بشدة ضد الحلف في اجتماع الجامعة العربية (عن كتاب « من حلف بغداد الى تحرير القنال » ، عزيز شريف ، ص ٢٥) .

والقاهرة في أعقاب الثورة هدف الى توطيد التعاون العربي وتحقيق التكامل الاقتصادي .

ولا بد من القول انه في الخمسينات ، وخاصة بين ١٩٥٤ و ١٩٥٨ ، اجتاحت العالم العربي موجة تحرر ثورية لا مثيل لها من حيث الزخم الثوري والانجازات في مكافحة الامبريالية . ففي ١٩٥٥ انتقلت حكومة مصر التي أطاحت بالملكية وأقامت الجمهورية بثورة ١٩٥٢ الى طريق الحياد والصداقة مع الاتحاد السوفياتي وسائر الأقطار الاشتراكية وبدأت تسير في طريق التطور الاقتصادي المستقل وتشدد مكافحتها الامبريالية . وكان تأميم شركة قناة السويس ضربة كبرى للامبرياليين . وبعد العدوان الثلاثي الذي اخفق في اهدافه تمت تصفية القاعدة البريطانية في منطقة القناة وانزلت الحكومة ضربة بمواقع الامبريالية الاقتصادية باجراءات تمصير الشركات البريطانية والفرنسية . وفي ١٩٥٤ اطاحت قوى الجبهة الوطنية بديكتاتورية الشيشكلي وأقامت حكماً وطنياً برجوازياً ديمقراطياً معادياً للامبريالية . وتمت تصفية مواقع الامبرياليين السياسية وبعض المواقع الاقتصادية . وفي ١٩٥٤ انفجرت ثورة الجزائر وبدأت تمارس تأثيرها وفي الوقت ذاته اجتاحت تونس والمغرب الأقصى موجة نضال ثوري أدى الى استقلال القطرين في عام ١٩٥٥ . وفي ١٩٥٦ نجحت جبهة وطنية في الانتخابات الاردنية وتألقت حكومة منها وألغت المعاهدة المشينة مع بريطانيا وطهرت الجيش من قيادته البريطانية . وبذلك استكملت معالم الاستقلال السياسي . وفي ١٩٥٥ استقل السودان . وفي ١٩٥٨ انفجرت ثورة تموز العراقية التي اطاحت بالملكية ووضعت العراق خارج حلف بغداد^(١) . كما انتصرت المعركة في لبنان في عام ١٩٥٨ برفض مبدأ ايزنهاور .

(١) هذا لا يعني ان الحركات القومية لم تصب بنكسات في هذه الفترة . ففي الاردن جرى في نيسان ١٩٥٧ انقلاب عرف بانقلاب حسين - ماروى اطاح بالحكومة الوطنية ومنح الامبريالية اميركية موقعاً في الاردن . ولكن هذا لا يغير الصورة العامة من النهوض الثوري ونجاحاته الباقية .

في هذا الوضع من النهوض الثوري على النطاق العربي وفي ظروف انجازات
العهدين في مصر وسوريا توحد القطران وقامت الجمهورية العربية المتحدة في
شباط ١٩٥٨ .

واعتبرت الجماهير المتحمسة الوحدة التي تحققت حدثاً هاماً في مكافحة
الامبريالية وارتفاعاً بقضية الوحدة العربية الى مستوى أعلى . ويقيناً جسمت
الوحدة الجديدة الفكرة الصادقة القائلة بأن الوحدة ستكون تنويعاً للتحرر
القومي في الأقطار العربية ^(١) .

ما هي العوامل التي قررت مصير

الوحدة المصرية — السورية

— برجوازية القطرين هي التي حققت هذه الوحدة مدفوعة بآمالها في النمو
وزيادة أرباحها . وأعربت عن ذلك جريدة الأخبار القاهرية حين كتبت :
« ان النتائج الاولى للوحدة ستكون اتساع مجال تداول رأس المال المصري
والسوري ، هذا هو الركن الأساسي في السياسة الاقتصادية . ولسوف تنشأ
سوق عربية مشتركة وستشارك فيها الاقطار المجاورة لنا جغرافياً واقتصادياً
وسياسياً ^(٢) .

— كان من اعتبارات البرجوازية السورية ان تؤدي الوحدة العضوية وحل
الاحزاب التي كانت سترافقها الى ضرب القوى التقدمية وفي طليعتها
الشيوعيون .

(١) ان التآكل في سياسة القطرين من حيث معاداة الامبريالية والصداقة مع الاتحاد السوفياتي
والحياد الايجابي جعل الوحدة ممكنة . وفي خطابه أكد عبد الناصر ان المعارك المشتركة قاربت
بين القطرين ، وذكر معركة الاحلاف العسكرية ، معركة السلام ، معركة عدم الانحياز ،
معركة المؤامرات ومعركة التحرر الاقتصادي . الاهرام ، ٦ شباط ١٩٥٨ .

(٢) نفس المرجع ، ٣ آذار ١٩٥٨ .

— كفرت البرجوازية السورية بالوحدة حين خاب أملها في الحصول على الربح الوفير . ولم تستطع الصمود في بعض الميادين امام منافسة البرجوازية المصرية ، ومن الأمثلة النسيج والأحذية والصابون والنشاط المصرفي ^(١) .

— سنّت الحكومة المركزية الوحدية الاصلاح الزراعي ، إلا ان تطبيقه كان بطيئاً ورافقته بعض النواحي السلبية ^(٢) . واستنفر القانون عداا اسياا الارض ولكنه لم يستنفر الفلاحين وينظمهم لتنفيذه وحمايته .

— تحمست البرجوازية الصغيرة والفئات المتوسطة للخطوة الاولى في سبيل تحقيق الوحدة الشاملة وبناء الدولة العربية الكبرى ، ولكنها بعد فترة من الزمان لم ترَ الآفاق الربحية التي تصورتها .

— كذلك تحمست الجماهير الشعبية للوحدة التي ارتبطت بذاتها بمكافحة الامبريالية والاصلاحات الاجتماعية إلا انها لوقت طويل لم ترَ هذه الاصلاحات. فالفلاحون 'حرموا عملياً من التنظيم ، والطبقة العاملة 'حُرمت من حق التنظيم النقابي الحر والكفاح الطبقي . وكان الاضراب محرماً قانوناً في مصر وسري في سوريا .

— رأى الحزب الشيوعي تعديل الوحدة دستورياً على أساس الاتحاد (الفيدرالي) وأخذ الظروف الموضوعية لكل قطر بعين الاعتبار وصيانة الاقتصاد السوري وجعل الاصلاح الزراعي أشمل وأعمق ، وصيانة حقوق العمال ^(٣) .

— كان لانتصار الثورة القومية المعادية للامبريالية في العراق وبرز دور القوى الشعبية وفي الكفاح من اجل الاصلاحات الاجتماعية (الاصلاح الزراعي

(١) وليد سمان ، في مقاله عن الوضع في سوريا ، مجلة الوقت ، عدد ١٠ و ١١ و ١٢ ، ١٩٥٩ ، ص ١٥٧ .

(٢) مقال « الاصلاحات الزراعية في الجمهورية العربية المتحدة وفي سوريا وفي العراق » ، بقلم السلطي ، مجلة « الوقت » ، تموز ١٩٦٥ ، ص ٧٨ - ٨٨ .

(٣) بيان الحزب الشيوعي في ١٤ كانون الاول ١٩٥٨ ، وعرف بالبند الثلاثة عشر .

وحماية حقوق العمال) تأثيراً على الصراع الطبقي ^(١) على الصعيد العربي العام . وهذا اخرج البرجوازية القومية في الجمهورية العربية المتحدة وزاد من التمايز الطبقي الذي كان يجري في داخلها . ولهذا رفضت الوحدة الاتحادية مع العراق ^(٢) ودعت الى وحدة عضوية تلغي الأحزاب وتبعد عملياً القوى الشعبية بقيادة الشيوعيين عن الميدان السياسي .

— في نهاية ١٩٥٨ عكست البرجوازية القومية في الجمهورية العربية المتحدة عدائها للقوى التقدمية في العراق وفي العالم العربي بالحملة على الشيوعية والى حد ما على الاتحاد السوفياتي . ورأت اوساط ديمقراطية ما أعلنه الشيوعيون من ان الحملة تحمل في طياتها مهادنة للامبريالية وتحطيماً للجبهات الوطنية التي حققت انتصارات رائعة في العالم العربي .

— احتدم الصراع الطبقي في الجمهورية العربية المتحدة بزيادة التفاوت بين البرجوازية والطبقة العاملة ^(٣)، ولا يمكن للبرجوازية ان تحله او ان تنقذ الجماهير الشعبية من بؤس مخلفات القرون الوسطى والامبريالية .

— توطيد الوحدة بين مصر وسوريا، وهي مرحلة أعلى من مراحل التحرر

(١) في هذا الشأن اعرب هيكل محرر الاهرام في عددي ٧ و ١٣ تشرين الاول ١٩٥٨ عن هذا التأثير حين فسر الحملة على الشيوعيين برغبة قيادة الجمهورية المتحدة بالفرز بين « القومية العربية » والشيوعيين بعدما اعتبره نهاية المعركة ضد الامبريالية ، لأن الشيوعيين في الجبهة القومية خلال المعارك مع الامبريالية ارادوا رفع الرايات الحمراء على الوطن العربي .

(٢) نشرت الاهرام في ٣١ كانون الثاني ١٩٥٩ ان عبد الناصر رفض اقتراح الزعيم العراقي كامل الجادرجي بتوحيد العراق مع الجمهورية العربية المتحدة اتحادياً وأصر على وحدة عضوية تلغي الاحزاب التي طالب الجادرجي بتمكينها من العمل .

(٣) وصف عبد الناصر جذور هذا الصراع ونمو البرجوازية القومية المصرية في عهد الوحدة مع سوريا حين ذكر في خطابه في جامعة الاسكندرية في ٢٨ تموز ان حصة اصحاب رؤوس الاموال من الدخل الوطني قبل بدء التصنيع والتطوير الاقتصادي الذي كان ٦٨ ٪ من الدخل القومي فأصبح خلال عملية التصنيع ٧٢ ٪ في حين هبطت حصة العمال من ٣٢ الى ٢٨ ٪ . عن الاهرام ٢٩ / ٧ / ١٩٦١ .

القومي، كان من الممكن ان يتحقق بانجاز مهام الثورة البرجوازية الديمقراطية القومية اولاً ، وبالاتقال الى الثورة الاجتماعية ثانياً . ولكن نظام الوحدة خلال ثلاث سنوات لم ينفذ كاملاً مهام الثورة البرجوازية الديمقراطية القومية مما أثار تدمير الجماهير .

— في تموز ١٩٦١ أثناء الاحتفالات بعيد الثورة المصرية اتخذت قيادة الجمهورية العربية المتحدة اجراءات بعيدة المدى . أمت جميع البنوك وشركات التأمين في الاقليمين و ٧٥ شركة ومؤسسة صناعية كبرى في مصر و ٣٣ شركة ومؤسسة صناعية في سوريا . كذلك أشركت القطاع العام بعدد آخر من الشركات وعدلت قانون الاصلاح الزراعي في مصر لمصلحة الفلاحين ومنحت العمال ٢٥٪ من ارباح الشركات ورفعت ضريبة الدخل وحددت الرواتب^(١) . ولكن في ٢٨ ايلول ١٩٦١ جرى الانقلاب العسكري في سوريا وانفصلت سوريا عن مصر وانتهت المحاولة الاولى لإقامة وحدة عضوية بين قطرين عربيين تكون نواة الوحدة الشاملة .

أسباب الانفصال

— عارض اسياد الارض بسبب الاصلاح الزراعي الوحدة التي حققته . وبغض النظر عن بطيء تنفيذ الاصلاح الزراعي ، فوجوده ومطالبة الفلاحين والقوى التقدمية بتنفيذه وتعميقه استنفد اسياد الارض للعمل ضد الوحدة .

(١) في خطابه في اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطني للقوات الشعبية في ٢٢ / ١٠ / ١٩٦١ ذكر عبد الناصر حوافز هذه الاجراءات فقال : ان الرجعية تسربت الى الاتحاد القومي وأنه شعر بأن الوضع الثوري غير قائم وأن الذين زادت ارباحهم على ١٠ آلاف جنيه سنوياً تضاعف في سنة واحدة وأن البلد ملك ه بالثة . وفي روز اليوسف بتاريخ ١٠ / ٤ / ١٩٦١ والاهرام في ١ / ٦ / ١٩٦١ وصف للأوضاع في الريف ومنها ان اسياد الارض يستأجرون آلاف الافدنة ويزرعونها على حسابهم وأن الفلاحين كانوا يهربون من تملك اراضي الاصلاح الزراعي .

— ونشأت مقاومة البرجوازية السورية الوحدة بسبب الاضرار التي أصابتها من جراء منافسة البرجوازية المصرية ولكن هذه المقاومة اشتدت بعد اجراءات التأميم . وتلاقت البرجوازية مع اسياد الارض في حلف معاد للوحدة ^(١) .

— وفي ظروف انعدام الديمقراطية لم يكن من الممكن حشد القوى الشعبية للدفاع عن اجراءات التأميم وغيرها من الاجراءات التي كانت في مصلحة العمال ^(٢) .

— وأدى انعدام الديمقراطية والاجراءات الادارية التعسفية في مقاومة القوى التقدمية، التي كانت تدعو الى اصلاح أسس الوحدة بين مصر وسوريا، الى تزيق الجبهة الوطنية التي حققت انجازات رائعة قبل الوحدة في كل من القطرين. وحالت الحملة على الشيوعية دون قيام حوار مثمر بين مختلف تيارات القوى الشعبية حول افضل السبل لتحقيق وحدتها واجراءات التحولات الاجتماعية العميقة في اطار مقاومة مؤامرات الامبريالية . وهذا أسهم في جعل القوى التقدمية تقف موضوعياً مع الانقلاب الذي وقف في قيادته ممثلو اسياد الارض والبرجوازية المهادنة بزعامة مأمون الكزبري احد الموالين المعروفين للامبريالية .

الوحدة العربية اليوم

أبرزت الاحداث التي مرت بعد انفصال سوريا عن مصر حتى حزيران ١٩٦٧ ان العالم العربي في حركة مستمرة ، واتضح العالم التالية :

(١) شمل التأميم شركات ومؤسسات سورية بلغت رساميلها ٢٨٠ مليون ليرة و ١٥٩ من الصناعيين الذين تأثروا بالتأميم كانوا يملكون ١٠٠ الف جنيه (« الحياة » البيروتية ٩ / ٨ / ١٩٦١) .

(٢) اضرب العمال في دمشق وحلب حين حاولت حكومة معروف الدواليبي الغاء قانون منح العمال ٢٥ ٪ من الارباح . وكان عدد العمال الذين اضرَبوا في حلب الثلاثة ايام ٣٥٠٠٠ عامل نسيج . ولم يعودوا الا عندما وعدت الحكومة بعدم سن القانون .

— مع ان الانفصال كان نكسة للوحدة العربية، فالحركات القومية العربية حققت انجازات كبرى في مكافحة الامبريالية، وفي نمو الثورة القومية التحررية الى ثورة تحولات اجتماعية عميقة .

وهكذا انتصرت الثورة الجزائرية ونمت الى ثورة تحولات اجتماعية عميقة بتأميم الصناعات والخدمات التي كانت ملك الاحتكارات الامبريالية والمستوطنين وبالموافقة على استيلاء الفلاحين على اراضي المستوطنين النازحين وتسييرها تسييراً دائماً . وبلغت هذه الاراضي نصف الاراضي الزراعية . وباستغلالها اصبحت الجزائر التي كانت محور تضامن عربي واسع تمارس دورها في تقوية التضامن العربي .

وانتصرت الثورة الجمهورية في اليمن في ١٩٦٢ على نظام اقطاع القرون الوسطى وبدأت الادارة الجديدة تنهض بالبلاد اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً . وتجسد التضامن العربي في اسراع الجمهورية العربية المتحدة الى نجدة الجمهورية الفتية في مكافحتها الثورة الملكية المضادة التي تؤيدها الرجعية العربية عامة (بشكل خاص المملكة العربية السعودية) والامبريالية (والبريطانية على وجه التحديد) .

— وعمقت الجمهورية العربية المتحدة تحولاتها الاجتماعية بتوسيع قاعدة التأميم الذي اصبح يشمل ٨٥٪ من الصناعة و ١٠٠٪ من التجارة الخارجية، وبتوطيد الاصلاح الزراعي بتقليص نفوذ الملاكين الكبار نسبياً (وسميت هذه حملة مقاومة بقايا الاقطاعية في الريف) وباشاعة قسط اوفر من الحريات الديمقراطية باطلاق سراح الشيوعيين وتمكينهم من دخول معركة الصراع الايديولوجي الى جانب قوى اليسار ضد الرجعية واليمين . وهذا الصراع يعكس الصراع الطبقي الاجتماعي القائم في الجمهورية العربية المتحدة .

— أطاحت انتفاضة شعبية ، اشتركت فيها الطبقة العاملة بدور كبير ، بالديكتاتورية العسكرية في السودان في تشرين الثاني ١٩٦١ . وقامت حكومة ديمقراطية دخلها الشيوعيون . ولكن اليمين (اسياذ الارض والبرجوازية اليمينية) نجح في السيطرة على الحكم ، وحاول ضرب القوى التقدمية . ولا يزال الصراع بين قوى التقدم واليمين مستمراً .

— ومؤخراً في تشرين الثاني ١٩٦٧ انتصرت ثورة الجنوب العربي وأجلي الجنود المحتلون عن قاعدة عدن بعد احتلال دام حوالي القرن والنصف وقامت جمهورية جنوب اليمن الديمقراطية .

— وفي حزيران ١٩٦٥ جرى انقلاب عسكري في الجزائر وأسقط حكومة احمد بن بيلّا التي قامت بدور كبير في تحقيق التحولات الاجتماعية العميقة ... لم يغير الانقلاب جوهرية مسيرة الجزائر على الطريق غير الرأسمالي إلا أنه يعرقل تلك المسيرة وبذلك يضع التحولات في خطر .

— لم تتوقف الجامعة العربية عن العمل بل استمرت مركز النقاء الدول العربية. وكانت الاقطار التي تستقل تنتسب اليها حال حصولها على الاستقلال. وأسهمت الجامعة في توطيد فكرة الوحدة وعاونت الى حد ما في عملية التضامن العربي إلا انها لم تتمكن لتفاوت اوضاع الاقطار العربية، وبوصفها وعاء عربياً يمثل حكومات تتباين سياستها، من ان تتطور وتصبح شكل الوحدة الضروري. ولم تنجح المحاولات التي جرت لتعديل دستورها بحيث تشدد التزام اعضائها بقراراتها . وخلال سنوات الستين درجت الحكومات العربية لمواجهة بعض القضايا ومنها النزاع العربي الاسرائيلي وقضية فلسطين على عقد مؤتمرات قمة عربية كانت تجسد التضامن العربي بحده الأدنى. ونجحت بعض هذه المؤتمرات، بفضل نفوذ الحكومات المعادية للامبريالية وتأييد الحركات القومية من اتخاذ قرارات تؤيد اتفاقات دولية ايجابية (مثل اتفاق موسكو لحظر التجارب النووية) وتدعو الى تصفية القواعد العسكرية الامبريالية في المنطقة وتطالب بانهاء النظام الكولونيالي — الامبريالي في افريقيا .

وجرت محاولة اقامة وحدة اتحادية بين مصر وسوريا والعراق ، ووقع اتفاق في نيسان ١٩٦٣ لإقامة هذا الاتحاد الفيدرالي ، إلا أنه انتهى الى لا شيء . لقد اعلنت الجمهورية العربية المتحدة رفضها له قبل نهاية العام وبذلك اكدت على ان الوحدة العربية لم يعد من الممكن ان تكون شكلية بل يجب ان تعرب عن مضمون مماثل .

وعقدت الجمهورية العربية المتحدة بعد ذلك اتفاقين الواحد مع العراق والثاني مع اليمن لإقامة مجلس أعلى ينسق سياسة الجمهورية العربية المتحدة والعراق. ومجلس أعلى آخر ينسق سياسة الجمهورية العربية المتحدة مع اليمن. وكان المفروض ان يكون هذان المجلسان خطوتين نحو وحدة شاملة. إلا ان هذين الاتفاقين لم يحققا الاهداف المرجوة منها. ومرة اخرى تأكد ان عملية الوحدة معقدة وتستلزم تماثلاً في المضمون.

بعض النتائج

١ - وأثبتت كل هذه الاحداث ان التطور غير المتعادل الذي كان قائماً منذ البداية قد تعمق وان الاقطار العربية تمر في مراحل متباينة... ومع ان الاطار العام لا يزال مكافحة الامبريالية والكولونيالية الجديدة، فمرحلة المعركة تختلف حسب مواقع الامبريالية في هذا القطر او ذاك وحسب القوى الطبقية التي تحكم في هذا القطر او ذاك... وفي حين فقدت الامبريالية مواقعها في الجمهورية العربية المتحدة وسوريا والمعركة فيها لدرء مؤامرات الامبريالية للعودة الى تلك المواقع، لا تزال الحركة القومية في المغرب الأقصى تحارب الكولونيالية الجديدة.

٢ - وفي بعض الاقطار، الجمهورية العربية المتحدة وسوريا والجزائر، انتقلت الثورة البرجوازية الديمقراطية القومية الى الثورة الاجتماعية وبدأت تلك الاقطار تسير بنسب ووتيرات مختلفة على طريق التطور غير الرأسمالي، في حين ان الاقطار العربية الاخرى ما تزال في مرحلة الثورة القومية التحررية لم تنفذ واجباتها. ولكن هذه الاقطار ليست على مستوى واحد فالعراق غير العربية السعودية وتونس غير لبنان.

٣ - في كل الاقطار العربية يمتزج الصراع الطبقي بالصراع القومي التحرري ولكن ظروفه تختلف اعتماداً على مكان الطبقات في الحياة الاقتصادية

والسياسية . وفي حين يتخذ هذا الكفاح شكلاً كلاسيكياً في الاقطار التي تحكم فيها الطبقات المستغلة فهو يختلف في اقطار اخرى حيث تحكم الفئات المتوسطة .

٤ - لقد عرف ماركس هذه الفئات المتوسطة بالاداريين المهنيين في الصناعة ، مثل المهندسين والمدراء . ومن الممكن استخدام هذا التعريف ليشمل كبار الموظفين والمهندسين والاطباء والمدراء العاملين بأجور وضباط الجيش وأمثالهم . ان هؤلاء ينتسبون في كثير من الاحيان الى البرجوازية الصغيرة او المتوسطة ... وفي بعض الحالات ينتمون الى ملاك الارض . لقد كانت هذه الفئة تقتضي أثر البرجوازية القومية في الاقطار العربية . ولكنها في ظروف رجحان كفة المجموعة الاشتراكية وانحسار الامبريالية وأزمة الرأسمالية وازدياد نفوذ الاشتراكية ، اتجهت نحو اليسار . وهي التي قامت بالتحويلات الاجتماعية العميقة . ولكن هذه الفئات لا تستطيع التخلص حتى الآن من حدودها الايدولوجية الضيقة وبعض رواسب معاداة الشيوعية والاشتراكية العلمية ، لذلك فمن الطبيعي ان لا تدفع التحويلات الاجتماعية العميقة الى امام بالقدر الذي تستلزمه الظروف وأن لا تتمكن من تجنيد الجماهير لتصبح عاملاً حاسماً في العمليات التاريخية الجارية في بلادها . والصراع الاجتماعي - الطبقي الدائر في الاقطار التي تحتل الفئات الوسطى مكان القيادة فيها سيقدر فيما اذا كانت هذه الفئات تستطيع الانتقال الى مواقع الاشتراكية العلمية .

قيادة الوحدة العربية

- من الواضح ان البرجوازية لم تعد تحتل مراكز الحكم في الجمهورية العربية المتحدة وسوريا والجزائر . وقد برهنت الحوادث على ان الجمهورية العربية المتحدة بوصفها اكبر كتلة عربية وأكثر الاقطار العربية تطوراً اقتصادياً وثقافياً واجتماعياً تمارس القيادة في العالم العربي وتؤثر على قوى اجتماعية عربية

خارج حدودها . وموطن الحركة القومية العربية سورية يمارس كذلك نفوذاً كبيراً في العالم العربي ومثله الجزائر التي احتلت مركزاً قيادياً في المغرب العربي بوصفها طليعة مكافحة الامبريالية والتحولات الاجتماعية . كل هذا غير توازن القوى الطبقيّة على الصعيد العربي ولم تعد البرجوازية المتحالفة مع اسياد الارض والملاكين العقاريين التي تحكم في عدد اكبر من الاقطار العربية تستطيع القيادة في حركة الوحدة العربية . والواقع ان الطبقات العربية المستغلة كفرت بالوحدة العربية ولم تعد تروج لها على اعتبار انها لا تخدم مصالحها الطبقيّة . وأعربت عن هذا الأمر ايدولوجياً جريدة « الحياة »^(١) اللبنانية المرتبطة بالرجعية العربية والمحافل الامبريالية حين كتبت : « ان فكرة القومية العربية ليس لها نصيب من النجاح ... لأن الماركسية قد تقمصتها ... ولم تبقَ عقيدة للعرب غير الماركسيين ... وقد استنفدت الدعوة القومية اغراضها . ولذلك فلا بدّ من اللجوء الى العقيدة الدينية بوصفها سلاحاً فعالاً تأخر اللجوء اليه ... للوقوف بوجه الماركسية في المنطقة » . وفعلاً روج فيصل السعودي وحسين الاردني وبورقية التونسي لفكرة إقامة حلف اسلامي نددت به الجماهير العربية والقوى التقدمية فلم يرَ النور بعد .

— ولا يتوقف التوازن الطبقي جامداً في مكان واحد . والاتجاه العام في العالم العربي يسير في اتجاه اليسار . فمن ناحية يشتد الكفاح في الاقطار العربية التي يحكمها مهادنون مع الامبريالية ويتحول الى اليسار بطبيعة المعركة واصداؤها العالمية ، ومن ناحية ثانية تعلم الخبرة العناصر التي دعت الى العدالة الاجتماعية من الفئات المتوسطة وحتى البرجوازية الصغيرة ان الطريق الاشتراكي العلمي يستطيع الاسراع بوتيرة التطور الاقتصادي ورفع مستوى معيشة الجماهير^(٢) .

(١) اورد ذلك نقولا شاوي في مقال «حركة التحرر الوطني في البلدان العربية» ، تموز ١٩٦٦ ، ص ١٠٠ .

(٢) كتب نقولا شاوي في المقال المذكور آنفاً : « وتتجلى في حركة التحرر العربي بمحتواها الجديد في ان البروليتاريا في المدينة والريف ، بل وفئات اجتماعية واسعة غير بروليتارية =

— ومن الممكن القول ان الفئات الاجتماعية المتوسطة التي تحتل مراكز القيادة في الجمهورية العربية المتحدة وسوريا والجزائر ليست متجانسة تماماً فالصراع الداخلي لم يتوقف بين اجنحتها . وتتميز القوى السياسية التي يمكن وصفها بالفئات الاجتماعية المتوسطة بتباين الاتجاهات .

ومن الواضح ان الفئات الاجتماعية المتوسطة هي التي ترفع اليوم علم الوحدة العربية وفي وسعها ان تخطو خطوات ملموسة نحو تحقيقها على اعتبار انها في مركز الحكم في الاقطار العربية القائدة وتساندها قوى سياسية تماثلها ايدولوجيا وتحظى بتأييد جماهير شعبية لمكافحة الامبريالية والقيام بالاصلاحات الاجتماعية . إلا ان ضعفها يكمن في عدم مشاربتها وبغموض نظرتها الايدولوجية .

وهي في هذا الموضع لأن الطبقة العاملة في الاقطار العربية ، على الرغم مما أسهمت به في مكافحة الامبريالية والاصلاحات الاجتماعية لم تستطع الوصول الى مكان القيادة وأحزابها الشيوعية لم تكتسب تأييداً شعبياً يمكنها من قيادة الجماهير والحسم في الاحداث والتطورات . ولعل من ابرز اسباب هذا الوضع ظروف العالم العربي الموضوعية التي تميزت في السنوات الاخيرة باتجاه الفئات المتوسطة نحو اليسار وجذبها للجماهير الى جانبها على اعتبار انها البديل للبرجوازية وأسياد الارض .

— ومن المؤكد ان سيطرة هذه الفئات المتوسطة على الجيش واستخدامها الجيش في تنفيذ الانقلابات والوصول الى السلطة حال دون التطورات السياسية البرجوازية الديمقراطية وحرم الطبقة العاملة وأحزابها من العمل السياسي العلني وعرضها في أكثر الاحيان الى الاضطهاد والملاحقة الشديدة .

= الفلاحين الصغار والمتوسطين والبرجوازية الصغيرة تنخرط في النضال الموجه ضد الرأسمالية وتضع امامها اهدافاً اشتراكية » . وكتب احمد نبيل الهلاي في « الكاتب » القاهرية ايار ١٩٦٧ : « ومن المسحات الاساسية لعصرنا الراهن ان قوى ثورية عديدة تنتقل يوماً بعد يوم من مواقع قومية ، بل وأحياناً من مواقع معادية للاشتراكية ، الى مواقع اشتراكية » .

تيارات الوحدة العربية اليوم

١ - من الممكن القول بأن التيار البرجوازي في قضية الوحدة امتزج في الظروف الحالية بتيار اسياد الارض . ولكن هذا التيار يبدو متجهداً في الوضع الراهن . والتناقض البرجوازي الذي كان عاملاً من عوامل انفصام وحدة مصر وسوريا لا يجعل البرجوازية في اي من الاقطار العربية التي تحكم فيها متحمسة للوحدة...وقد تراجعت تماماً مشاريع الوحدة الفوقية من النوع الذي عرف بالهلال الحبيب ومشروع سوريا الكبرى. وكانت المحاولة الاخيرة التي قام بها الهاشميون في ١٩٥٨ بتأسيس الاتحاد العربي من العراق والاردن مثلاً على استحالة هذه المشاريع .

٢ - أما التيار الوحدوي الفعال فهو تيار الفئات الاجتماعية المتوسطة ، ويستند هذا التيار الى « ان مفهوم الوحدة العربية تجاوز النطاق الذي كان يفرض التقاء حكام الأمة العربية ليكون لقاءهم صورة للتضامن بين الحكومات. ان مرحلة الثورة الاجتماعية تقدمت بهذا المفهوم السطحي للوحدة العربية ودفعت به خطوة الى مرحلة اصبحت فيها وحدة الهدف هي صورة الوحدة... ان وحدة الهدف لا بد ان تكون شعار الوحدة العربية في تقدمها من مرحلة الثورة السياسية الى الثورة الاجتماعية » (١) .

ولكن هذا التيار الذي يربط بين الوحدة العربية ومضمونها الاجتماعي لا يزال تياراً فضفاضاً يجمع ألواناً مختلفة من الاتجاهات السياسية ... والمنظمات الكثيرة التي تدعو له بهذا القدر او ذاك تعرب عن كثرة الجداول الفكرية التي تصب فيه .

٣ - أما التيار الثالث في الوحدة فيدعو الى نهج ديمقراطي ثوري وحدوي . وهو يعتبر ان «الوحدة كانت ولا تزال مطلباً مشروعاً يعبر عن طموح الشعوب

(١) « الميثاق الوطني » ، اصدار الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ص ٩٥ .

العربية وعزمها على التحرر الكامل من السيطرة الامبريالية بشكليها القديم والجديد ، وعلى تصفية جميع مخلفات الامبريالية والأنظمة الاقطاعية وشبه الاقطاعية ، وعلى بناء حياتها الجديدة على اساس غير رأسمالي ، واتحاد بلدانها في ظل أنظمة الديمقراطية الوطنية كمرحلة للانتقال الى الاشتراكية » .

٤ - ويظهر من هذا ان هناك بعض التقارب بين التيارين ، تيار الفئات المتوسطة وتيار النهج الديمقراطي الثوري ، تيار الفئات الشعبية من العمال والفلاحين والمثقفين التقدميين . ومصدر التقارب يكمن في الدعوة المشتركة للربط بين الوحدة العربية والمضمون الاجتماعي، بين الوحدة العربية والانتقال بالثورة البورجوازية الديمقراطية القومية الى ثورة اجتماعية تتميز بالتحويلات الاجتماعية العميقة وطريق التطور غير الرأسمالي .

وأعرب عن هذا التقارب كمال رفعت احد قادة الاتحاد الاشتراكي العربي بقوله : « ان من شروط النضال في سبيل وحدة تقدمية حقيقية هو تحقيق واستكمال التحرر الاقتصادي من خلال حركة الجماهير العربية وتجاوز اطار الثورة الوطنية التحررية الى الاصلاحات الاقتصادية الجذرية وذلك بتخطي مرحلة التطور الرأسمالي ... ومباشرة تحولات سياسية واجتماعية في المجتمع العربي والعمل على خلق اوضاع متناقضة تتفادى وتقضي على التناقضات المختلفة وترسي أساساً متيناً للوحدة » (١) .

وعند هذا الحد يمكن رصد الوحدة العربية على مستوياتها الثلاثة : الفكرة والتنظيم والنهج .

وقبل ذلك يجب ان نلاحظ ان الوحدة العربية تجري في ظروف الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ولذلك لا يمكن مقارنتها مع عملية التوحيد في ايطاليا والمانيا التي تمت في القرن التاسع عشر في عهد سيادة الرأسمالية في اوروبا وانتقالها الى الاحتكار والامبريالية .

(١) مجلة « الكاتب » القاهرية ، آذار ١٩٦٧ ، ص ٢٤ .

ولهذا فالعامل الاقتصادي البرجوازي في عملية التوحيد لم يعد حاسماً في قضية الوحدة العربية . ولكن العامل الاقتصادي لا يزال مقررراً والأقطار العربية تتجه نحو وحدتها لتسرع وتيرة تطورها في الصناعة والزراعة وتتخلص من مخلفات الامبريالية وترفع مستوى الشعب ^(١) . ويبرز عدد من الكتاب الاقتصاديين العرب أهمية الوحدة في التطوير الاقتصادي حيال الأخطار الامبريالية التي تتهددها ...

هذا الأمر يعني ان المرحلة التاريخية العالمية التي تمر فيها الانسانية وظروف الأقطار العربية تفرض إتمام الوحدة اختياراً لا بالعنف . واستخدام العنف او عدمه ليس أمراً مبدئياً، انما ظروف الأقطار العربية وكونها دول ذات سيادة انضمت الى هيئة الأمم وضرورة الحيلولة دون استفادة الامبريالية تجعل القوى الوحدوية تتجه نحو توحيد الأقطار العربية اتفاقاً .

وكذلك لا يعني رؤية الوحدة العربية على مستويات ثلاثة عدم الترابط العضوي بين الفكرة والتنظيم والنهج السياسي ... فهي امور متداخلة ويزداد تداخلها اليوم بازدياد اتساع قاعدة الوحدة العربية على صعيد الحركة والتنظيم .

ومن الممكن القول ان فكرة الوحدة العربية تغلغت بين الجماهير واصبحت قوة مادية دافعة ، وان ايدولوجيتها تطورت تطوراً كبيراً وأصبح تيارها الجوهراني يتخيلان عن ملامح الايدولوجية البرجوازية وبريان في الوحدة العربية اتماماً للتحرر القومي فحسب بل للانتقال الى الثورة الاجتماعية واجراء

(١) في مقاله « بصدد كرامة الروس القومية » كتب لينين : « نحن لسنا قط من انصار الامم الصغيرة ... وفي حالة تساوي الشروط الاخرى نفق بصورة قاطعة الى جانب المركزية ضد المثل الاعلى لصغار البرجوازيين - ضد العلاقات الاتحادية » . وهذا يعني ان الماركسيين يؤيدون توحيد الامم المختلفة اختياراً في مجموعات اكبر ، فكيف بشعوب عربية موحدة المصالح واللغة والثقافة ؟! (حركة شعوب الشرق الوطنية التحررية ، ص ١٣٧) .

التحولات الاجتماعية العميقة والسير في طريق غير رأسمالي ^(١) .
 ولا نستطيع ان نقول بوجود حركة وحدوية واحدة فهناك تيارات وحدوية
 عديدة ولم تصل حتى الآن الى تنسيق جهودها ... ودعوتها الى لقاء القوى
 الثورية قد يثمر بإقامة جبهة وحدوية تؤمن بمجد أدنى من وحدة الهدف .
 ومن الواضح ان نهج مثل هذه الجبهة في الوحدة سيكون نهجاً ديمقراطياً .
 وكما اعلن الميثاق الوطني (ميثاق الجمهورية العربية المتحدة) : « ان الوحدة
 لا يمكن بل لا ينبغي ان تكون فرضاً . فان الاهداف العظيمة للامم يجب
 ان تتكافأ اساليبها شرفاً مع غاياتها . ومن ثم فان القسر بأي وسيلة من الوسائل
 عمل مضاد للوحدة ... هو خطر على الوحدة الوطنية داخل كل شعب من
 الشعوب العربية ومن ثم فهو خطر على وحدة الأمة العربية في تطورها
 الشامل » ^(٢) .



ما هي الآفاق امام الوحدة العربية ؟
 يعود الحديث حول الوحدة العربية المعاصرة الى اكثر من نصف قرن ،
 ومحاولات التوحيد لم تنجح بعد . فهل يمكن تحقيق الوحدة العربية ؟
 عمليات التاريخ طويلة ومعقدة ، ولا تفقد صلاحيتها اذا طال عليها الأمد ،
 او اذا حلت بها النكسات . فالثورة الاشتراكية في عدد من الاقطار الصناعية

(١) من الواضح ان من غير الممكن توحيد الجمهورية العربية المتحدة والعربية السعودية ،
 فالوحدة اصبحت تستلزم تماثلاً في النهج السياسي والاقتصادي والاجتماعي . ان خلاف النهج
 قسم المانيا الموحدة قبل حوالي القرن . والاتفاق لتوحيد اقطار المغرب العربي: تونس والجزائر
 والمغرب الأقصى اتحادياً انهار بسبب تباين طريق هذه الاقطار وباتخاذ الجزائر طريق التطور
 غير الرأسمالي اشتد الخلاف بينها وبين المغرب الأقصى حتى وصل الى الاصطدام المسلح الذي
 سوي بمساعدة اقطار افريقيا والاقطار العربية .

(٢) « الميثاق » ، ص ٩٦ .

المتطورة ، التي تصور ماركس انها ستسبق غيرها ، لم تفقد صلاحيتها للانتقال الاشتراكي ، لأنها تخلفت عن غيرها .

ويقرر مستقبل الوحدة العربية الجواب على السؤال : هل تتوافق هذه العملية التاريخية مع قوانين التطور التاريخية ؟

ارتبطت الوحدة العربية في مسيرتها الطويلة بمكافحة الامبريالية ... وهي اليوم تحافظ على مكافحة الامبريالية بالتحويلات الاجتماعية العميقة، ولهذا تتعلق بها الشعوب العربية وتؤيدها القوى الثورية في العالم .

ولا جدال في ان الامبريالية ستعقد الحركة الوحدوية بقدر طاقتها ، وستكون امبراطورية النفط اذاتها الجوهرية . ولكن تقوية الكفاح ضد الامبريالية سيساعد الحركة الوحدوية، كما ان تقوية الحركة الوحدوية ستشدد مكافحة الامبريالية .

القسم الثالث

نُصُوص

لماركس ، انجلز ، لينين ، ستالين

(١) ماركس وانجلز : التطور البرجوازي

ونشوء الامم الحديثة

وبدافع الحاجة الدائمة الى اسواق جديدة، تجتاح البرجوازية سائر أرجاء الكرة الأرضية. يتعين عليها ان تنغرز في كل مكان ، وان تستثمر كل مكان ، وان تقيم الصلات مع كل مكان .

وباستثمار السوق العالمية ، تضفي البرجوازية على الانتاج والاستهلاك طابعاً كوسموبوليتياً في كل البلدان. وبين يأس الرجعيين وقنوطهم، يُنزع عن الصناعة أساسها القومي . وتدمر الصناعات القومية القديمة ، وما تزال تدمر . وتحل محلها صناعات جديدة يصبح ادخالها مسألة حياة او موت لكل الامم المتمدنة، صناعات لم تعد تستعمل المواد الأولية المحلية بل المواد الأولية الآتية من أبعد مناطق العالم ، ولا تستهلك منتجاتها داخل البلد نفسه فحسب ، بل في سائر أنحاء الكرة الأرضية. وبدلاً من الحاجات القديمة ، التي كانت تلبسها المنتجات القومية ، تتولد حاجات جديدة تتطلب تلبيتها منتجات اقصى البلدان والمناخات . ومكان العزلة القديمة للأقاليم والأمم المكتفية بذاتها تنمو علاقات كونية وترابط كوني بين الأمم . وما يقال عن الانتاج المادي ينطبق أيضاً على الانتاج الفكري. والأعمال الفكرية لكل أمة تصبح ملكاً مشتركاً لكل الأمم . ويوماً فيوماً يصبح ضيق الأفق والانطواء القوميان اكثر استحالة ؛ ويولد من تعددية الآداب القومية والمحلية أدب كوني .

وتجبر البرجوازية الى تيار المدنية كل الأمم ، حتى اشدّها بربرية ، عبر التحسّن السريع في أدوات الانتاج ووسائل الاتصال . ان رخص منتجاتها هي مدفعية ضخمة تدك بعنف كل ما هنالك من أسوار صينية ، وتُكرِه اشد البرابرة عداء وكرهاً للأجانب على الاستسلام . وتجبر البرجوازية كل الأمم ، في ظل موت يهددها ، ان تتبنى النمط البرجوازي في الانتاج ، وان تدخل إليها المدنية المزعومة ، اي ان تصير برجوازية . وبكلمة فانها تصوغ عالماً على صورتها .

لقد اخضعت البرجوازية الرف للمدينة . وأنشأت المدن الضخمة؛ وزادت سكان المدن زيادة هائلة بالنسبة لسكان الريف ، فانزعّت بذلك قسماً كبيراً من السكان من بلادة الحياة القروية . وكما انها اخضعت الريف للمدينة ، كذلك اخضعت البلدان البربرية ونصف البربرية للبلدان المتمدنة ، كذلك جعلت الشعوب الفلاحية تابعة للشعوب البرجوازية ، والشرق للغرب .

وتقضي البرجوازية اكثر فأكثر على تبعثر وسائل الانتاج والملكية والسكان . وقد كدست السكان ومركزت وسائل الانتاج وجمّعت الملكية في ايدي قليلة . وكانت النتيجة المحتومة لهذه التغييرات نشوء التمرکز السياسي . فالمقاطعات المستقلة ، التي كانت العلاقات فيما بينها اتحادية بالكاد ، والتي كانت لها مصالح وقوانين وحكومات وتعرفات جمركية مختلفة ، قد وُحِدَت في امة واحدة وتحت ظل حكومة واحدة وقانون واحد ومصلحة قومية طبقية واحدة ، وراء حاجز جمركي واحد (١) .



(١) مقتطفات من « البيان الشيوعي » ، نقلًا عن « مختارات » لكارل ماركس وفريدريك أنجلز . الطبعة العربية ، المجلد الاول ، ص ٥٥ / ٥٦ ، دار التقدم ، موسكو . وقد صححنا الترجمة وضبطناها على النسخة الفرنسية الصادرة في موسكو . كتبه ماركس وأنجلز في كانون الاول ١٨٤٧ وكانون الثاني ١٨٤٨ ، ونشر لأول مرة في لندن عام في شباط ١٨٤٨ .

(٢) ماركس وأنجلز : البروليتاريا والوطن والقومية

أضف الى ذلك ، أنهم يتهمون الشيوعيين بأنهم يريدون إلغاء الوطن والقومية .

العمال لا يملكون وطناً . وليس ممكناً سلبهم ما لا يملكون . بما ان على بروليتاريا كل بلد ان تستولي اولاً على السلطة السياسية وأن تشيد نفسها كطبقة قومية ، وأن تصبح هي نفسها الأمة ، ومن هنا فهي ما تزال قومية ، ولكن ليس بالمعنى البرجوازي لهذه الكلمة .

ها هي الحدود القومية والتناحرات بين الشعوب تزول اكثر فأكثر مع نمو البرجوازية وحرية التجارة والسوق العالمية وتشابه الانتاج الصناعي وظروف الحياة التي تنجم عنها .

ان البروليتاريا التي تتولى مقاليد السلطة تعمل اكثر من ذلك لإزالتها . ان فعلها (عملها) المشترك ، في البلدان المتقدمة على الأقل ، هو أحد أولى شروط تحررها .

ازيلوا استثمار الانسان للانسان ، تزيلوا استثمار امة لأمة . وفي اليوم الذي يسقط فيه التناحر بين الطبقات في قلب الأمة ، يسقط في الوقت نفسه العداء بين الأمم ^(١) .



(٣) ماركس وأنجلز : الوحدة الالمانية في

رأس مطالب الحزب الشيوعي الالمانى

مطالب الحزب الشيوعي الالمانى :

١ - تعلن المانيا كلها جمهورية واحدة موحدة لا تتجزأ .

(١) نفس المرجع ، ص ٤٠ - ٤١ .

السعي بكل حزم الى تطبيق الاجراءات المذكورة أعلاه في مصلحة البروليتاريا الالمانية والبرجوازية الصغيرة والفلاحين الصغار . ان الملايين ، التي ما تزال تستثمرها في المانيا حفنة ضئيلة من الأفراد ، والتي سيحاولون اضطهادها في المستقبل ايضاً ، لن تتمكن من التوصل الى حقوقها والى السلطة التي تلائمها ، بوصفها صانعة جميع الثروات ، إلا بتطبيق هذه الاجراءات^(١).



(٤) ماركس وانجلز : نظرة العمال الى الوحدة الالمانية

... ثم يحاول الديمقراطيون مباشرة ، إما بناء الجمهورية الفيدرالية ، او يشلوا على الأقل ، ان لم يستطيعوا الحلولة دون قيام جمهورية واحدة موحدة لا تتجزأ ، الحكم المركزي باعطاء الكومونات^(*) والاقاليم أقصى حد من الاستقلال والاستقلال الذاتي . وعلى النقيض من هذه الخطة ، يتعين على العمال ليس متابعة العمل لاقامة جمهورية واحدة لا تتجزأ فحسب ، بل ان يحاولوا ايضاً ان يقيموا داخل هذه الجمهورية أقصى مركزية مطلقة في السلطان توضع

(١) عن « المؤلفات المختارة » ، المجلد الثالث ، الطبعة العربية ، دار التقدم ، موسكو ، سنة ١٩٦٨ ، ص ١٥٦ . في الجزء الثالث ، ص ١٥٦ من « المختارات » المنشورة باللغة العربية الصادرة بموسكو ، كتب الناشر الروسي الملاحظة التالية : « كتبها ماركس وانجلز في باريس بين ٢١ و ٢٩ آذار (مارس) ١٨٤٨ . كانت الدفعة المواجهة (المتطلق) السياسي لعصبة الشيوعيين في الثورة الالمانية البائدة . صدرت بمشور منفرد ، وجرى تسليمها كوثيقة توجيهية الى اعضاء عصبة الشيوعيين العائدين الى الوطن . إبان الثورة ، حاول ماركس وانجلز وأنصارها ترويج هذه الوثيقة البرنامجية بين الجماهير الشعبية . »

(*) اصغر وحدة في التقسيم الاداري يشرف عليها مجلس بلدي . والتعبير هنا قد استخدم بمعنى واسع يشمل ايضاً البلديات في المدن . (نقلاً عن الناشر الروسي) .

بين يدي الدولة . ينبغي على العمال ان لا يستسلموا الخديعة ما يقصه عليهم الديمقراطيون عن حرية الكومونات والاستقلال الذاتي الاداري ، الخ . ففي بلد كألمانيا ، حيث ما يزال واجباً العمل على إزالة العديد من بقايا القرون الوسطى وتحطيم نزعة المحافظة على الخصوصيات particularisme المحلية والاقليمية ، لا يمكن التساهل في حال من الأحوال في ان تشكل كل قرية او مدينة او اقليم عقبة جديدة امام النشاط الثوري ، الذي لا يمكن ان يعطي كل تأثيره وتنطلق كل قواه إلا عندما يصدر من مركز ... وكما كانت الحال في فرنسا عام ١٧٩٣ ، فان تحقيق اقصى شكل صارم من المركزية هو اليوم ، في المانيا ، مهمة الحزب الثوري الحقيقي^(١) .



(٥) انجلز : كيف تفكر الطبقات بقضية الوحدة الالمانية

... إن فكرة الوحدة الالمانية... كانت واسعة الانتشار، لا سيما في الدول الصغيرة . منذ حُلَّت الامبراطورية الالمانية من قبل نابوليون الأول كانت الدعوة الى وحدة الاعضاء المبعثرة لجسد المانيا التعبير الأعم عن السخط ضد الأوضاع القائمة ، وبالحقيقة في الدول الصغيرة بخاصة ، حيث نفقات البلاط والإدارة والجيش ، أي باختصار ثقل الضرائب كان يزداد بما يتناسب طردياً مع عجز الدولة . ولكن الاحزاب كانت متخالفة على مسألة ماذا يجب ان تكون عليه هذه الوحدة الالمانية عند تحقيقها . البرجوازية ، التي كانت لا تريد هزة ثورية عميقة ، كانت تكتفي بالحل الذي كانت تعتبره ، كما رأينا ، « عملياً » ، أي بوحدة لكل المانيا باستثناء النمسا ، تحت سيادة حكومة

(١) حررها ماركس وانجلز عام ١٨٥٠ في لندن . وهي مقتطف من « رسالة الى اللجنة المركزية لعصبة الشيوعيين » . ترجمنا النص عن « المؤلفات المختارة » لماركس وانجلز ، المجلد الاول ، الطبعة الفرنسية ، دار التقدم ، موسكو ، سنة (؟) ، ص ١١١ - ١١٢ .

دستورية لبروسيا ؛ وبالتأكيد ، ذلك كان كل ما يمكن عمله في ذلك الوقت دون اطلاق عواصف خطيرة . البرجوازيون الصغار والفلاحون ، بقدر ما كان هؤلاء الاخرون يهتمون بأمور كهذه ، لم يتوصلوا في يوم من الايام الى تعريفٍ ما لهذه الوحدة الالمانية التي كانوا يطالبون بها بكل هذه الضجة . عدد صغير من الحالمين ، معظمهم من الرجعيين الاقطاعيين ، كانوا يحلمون بأحياء الامبراطورية الالمانية . حفنة من الجبهة ، الراديكاليين المزعومين ، المعجبين بالمؤسسات السويسرية ، الذين لم يكونوا بعد قد اختبروها عملياً ، والتي خيبت فيما بعد آمالهم بشكل هزلي جداً ، كانوا ينادون بجمهورية فيدرالية . والحزب الاكثر تطرفاً (*) هو وحده الذي تجرأ آنذاك على المناداة بجمهورية المانية ، واحدة لا تتجزأ . بحيث ان الوحدة الالمانية كانت هي نفسها مسألة حاملة انقسام وخلاف ، بل حاملة حرب اهلية في بعض الحالات « (١) » .



(٦) ماركس : البرودونية والمسألة القومية

... البارحة ، حدث نقاش في الجمعية الألمية حول الحرب الحاضرة ... المناقشة ، كما كان منتظراً ، دارت حول « مسألة القوميات » عموماً والموقف الذي نتخذه ازاءها . وقد أُجِّل الموضوع الى يوم الثلاثاء القادم .

(*) المقصود الشيوعيون ، والعناصر المتقدمة اليسارية من الحزب الديمقراطي الذين كانوا تحت نفوذ الشيوعيين ، ولا سيما في ولايات « الرين » . (ملاحظة من « هيئة التحرير ») . نقلًا عن Editions Sociales .

(١) عن كتاب انجاز « الثورة والثورة المضادة في المانيا » . صدر في ١٨٥١ ، ١٨٥٢ . نقلنا هذا النص عن كتاب الياس مرقص « الماركسية والمسألة القومية » . دار الطليعة ، كانون الثاني ١٩٧٠ ، ص ٢٢٢ / ٢٢٣ .

الفرنسيون ، وكان عددهم كبيراً ، أطلقوا العنان لكرهم الودي تجاه
الطلّيان .

وأكثر من ذلك ، ان ممثلي « فرنسا الفتاة » (ليسوا عمالاً) أتوا باعلان
مفاده ان كل القوميات بل والأمم هي « أباطيل عتيقة » . هذه شتيرنيرية
برودونية . كل شيء يجب ان يُحلّ في جماعات صغيرة او في « كومونات » ،
يكون عليها ان تشكل بالمقابل « حلفاً » او « اجتماعاً » association ،
ولكن ليس دولة . وهذا التفريد individualisation للبشرية وهذه التبادلية
التعاونية mutualisme المقابلة له يجب ان يستمر بينا يتوقف التاريخ في سائر
الاقطار ، وبينما ينتظر العالم اجمع حتى ينضج الفرنسيون للثورة الاجتماعية .
عندئذ سيبرهنون لنا على التجربة ، وباقي العالم سيلحق بهم ، تحت دفع قوة
تجربتهم. بالضبط هذا ما كان فورييه قد توقعه من تنظيمه المثالي « الفالانستير » .
أما من يربك المسألة « الاجتماعية » بـ « أباطيل » العالم القديم فهو « رجعي » .
لقد ضحك الانكليز كثيراً حين بدأت خطابي بالقول ان صديقنا لافارغ
والآخرين ، الذين صرفوا القوميات ، قد تحدثوا الينا بالفرنسية ، أي بلغة
لم يفهمها تسعة اعشار الحاضرين . وألححت ايضاً الى ان لافارغ ، حين ينفي
القوميات ، انما يقصد بصورة لاشعورية امتصاصها في الأمة الفرنسية
النموذجية ^(١) .



(٧) انجلز : بشارك يؤدي جزءاً من عملنا

القضية تبدو لي كما يلي : المانيا قد جُرفت من قبل بادنغه (اسم تحقير
لنابوليون الثالث) في حرب من اجل وجودها القومي . اذا هزمها بادنغه ،

(١) من رسالة لماركس الى انجلز ، تاريخها ٢٠ / ٦ / ١٨٦٦ . نقلاً عن كتاب الياس مرقص
المذكور ، ص ٢٠٥ / ٢٠٦ .

ستعزز البونابرتية لسنوات وستتحطم المانيا لسنوات وربما لأجيال . في هذه الحال لا يمكن ان يكون ثمة مجال لحركة عمالية طبقية المانية مستقلة، والنضال من اجل إحياء وجود المانيا القومي سيتمص كل شيء . وفي أحسن احتمال ، سينجر العمال الالمان وراء العمال الفرنسيين . اذا انتصرت المانيا ستتحطم البونابرتية الفرنسية حتماً ، وستخلص اخيراً من الرتل الطويل حول إقامة الوحدة الالمانية ، وسيصبح العمال الالمان قادرين على تنظيم انفسهم على نطاق قومي مختلف تماماً عن الإطار المهيمن حتى الآن . والعمال الفرنسيون ، أياً كانت الحكومة التي ستعقب هذه ، سيكون لهم بالتأكيد مجال اكثر حرية مما هو الحال في ظل البونابرتية . ان كل جمهور الشعب الالمانى في كل طبقة قد أدرك ان المسألة ، اولاً وفوق كل شيء ، هي مسألة وجود قومي ، فاندفع في الحركة . اما ان يعظ سياسي الماني ، في هذه الظروف ، سياسة المعارضة ، على طريقة فيلهلم (ليكنشت) ، واضعاً شتى ضروب الاعتبارات الثانوية قبل الاعتبار الرئيسي ، يبدو لي مستحيلاً .

الى ذلك يجب ان نضيف ان بادنغه ما كان يقدر على القيام بهذه الحرب لولا شوفينية جمهور السكان الفرنسيين : البرجوازية ، البرجوازية الصغيرة ، الفلاحون ، وبروليتاريا البناء الهوسمانية الامبريالية المنحدرة من الفلاحين ، التي أنشأها بونابرت في المدن الكبرى . والى ان تصاب هذه الشوفينية بضربة في رأسها ، بضربة جيدة ونظيفة ، يبقى السلام بين المانيا وفرنسا مستحيلاً . كان يمكن ان يتوقع المرء ان تتولى هذا العمل ثورة بروليتارية ، ولكن ما دامت الحرب قد قامت ، لا يبقى للامان سوى ان يتولوا المهمة بأنفسهم وسريعاً .

والآن تأتي الاعتبارات الثانوية . ان يكون ليان (اسم تحقير للملك بروسيا غليوم الاول) وبسمارك وشركاهما على دفعة القيادة في هذه الحرب ، وأن يكون ذلك سيساعد على تمجيدهم الوقي اذا ما قادوا الحرب بنجاح ، فان الفضل في ذلك يعود الى وضع البرجوازية الالمانية البائس الحقير . هذا بلا شك

امر مزعج جداً ولكن لا يمكن تبديله . ولكن اذا انطلقنا من هذا الاعتبار لتضخيم خط مناهضة البسماركية وتحويله الى مبدأ موجّه وحيد ، نكون قد ارتكبنا حماقة كبيرة . في المقام الاول ، ان بسمارك اليوم ، كما في ١٨٦٦ ، يؤدي جزءاً من عملنا ، بطريقته الخاصة ، وكأنه لا يقصد ذلك ، ولكنه مع ذلك يؤدي العمل . انه يفتح الطريق لنا بشكل افضل من ذي قبل . فضلاً عن اننا لم نعد في سنة ١٨١٥ . ان الالمان الجنوبيين ملزمون الآن بالدخول في الرايشستاغ (أي برلمان الدولة الالمانية) ، وهذا سينمي ثقلاً مقابلاً لبروسيا . ثم هناك الواجبات القومية والتي ، كما كتبت ، ستمنع الحلف الروسي من الخارج . وبوجه الاجمال ، من حماقة ان نحاول ، كما يفعل ليبكنشت ، ان نعبد عجلة التاريخ الى الوراء ، رجوعاً عن كل ما حصل منذ ١٨٦٦ ، لمجرد ان ذلك حصل بما لا يتفق مع ميله . بيد اننا نعرف الماننا الجنوبيين النموذجيين . ليس من شيء يمكن عمله مع هؤلاء المجاذيب .

اعتقد ان جماعتنا تستطيع :

١ - الانضمام الى الحركة القومية - يمكنك ان ترى من رسالة كوجلان مدى قوة هذه الحركة - بقدر ما وطالما بقيت هذه الحركة مقتصرة على الدفاع عن المانيا (الامر الذي لا يستبعد الهجوم ، في بعض الظروف ، حتى مجيء السلم) .

٢ - التأكيد ، في الوقت نفسه ، على الفرق بين المصالح القومية الالمانية ومصالح السلالة المالكة البروسية .

٣ - ... ٤ - ...

٥ - التأكيد الدائم على وحدة المصالح بين العمال الالمان والفرنسيين الذين لا يؤيدون الحرب ، والذين لا يحارب بعضهم بعضاً .

٦ - ...

مضحكٌ قول فيلهلم (ليبكنشت) انه نظراً لأن بسمارك شريك سابق لبادنغه (نابوليون الثالث) ، فان الموقف الصحيح هو البقاء على الحياد .

لو كان ذلك هو الرأي السائد في المانيا ، سرعان ما كان سيقوم « اتحاد الراين (*) » من جديد ، والنبيل فيلهم (ليبكنشت) كان سيري أي نوع من الادوار سيلعب في ذلك ، وماذا كانت ستؤول اليه حركة العمال . ان شعباً لا ينال إلا الضربات والصفعات هو المؤهل ، بالحقيقة ، لصنع ثورة اجتماعية ، وفي الدول الصغيرة العديدة التي يحبها فيلهم (١) !!



(٨) انجلز : البرنامج الثوري في مسألة الوحدة الالمانية

ان البرنامج السياسي لـ «الجريدة الرينانية الجديدة» (٢) Neue Rheinsche Zeitung يتضمن نقطتين أساسيتين : جمهورية المانية ديمقراطية ، واحدة لا تتجزأ ، والحرب ضد روسيا ، التي كانت تحتوي البعث البولوني . كانت الديمقراطية البرجوازية الصغيرة منقسمة آنئذ الى جزئين : الأول في شمال المانيا الذي كان يتطلع الى امبراطور لبروسيا ديمقراطية ، والثاني في الشمال الذي كان يريد تحويل المانيا الى جمهورية فيدرالية ، مشابهة لسويسرا . وكان علينا ان نناضل ضد الاثنين . ان بروسة prussification المانيا كانت مخالفة ايضاً لمصالح البروليتاريا ، مثل استمرار تجزئتها الى عدد من الدول . ان مصالح البروليتاريا تتطلب بالحاح إعادة توحيد المانيا بصورة نهائية في امة

(*) عمل «توحيدي» قام به نابوليون الاول في غربي وجنوبي بروسيا ضد الوحدة الالمانية . رغم ان هذا العمل كان توحيدياً ، الا انه كان موجهاً نحو ابقاء وتحسين وتعميق التجزئة الالمانية - هذا ما نراه في مؤلفات ماركس ، انجلز ، لينين - لصالح فرنسا وهيمنتها . (ملاحظة ل الياس مرقص) .

(١) مقتطفات من «رسالة من انجلز الى ماركس» يعود تاريخها الى ١٥ / ٨ / ١٨٧٠ ، نقلاً عن كتاب الياس مرقص المذكور ، ص ٢١٦ / ٢١٨ .

(٢) مجلة اسسها ماركس وانجلز . كانت لسان الحال النظري لعصبة الشيوعيين . صدرت من كانون الاول ١٨٤٩ الى تشرين الثاني ١٨٥٠ . صدر منها ستة اعداد فقط .

واحدة، إذ انها الوسيلة الوحيدة للتخلص من سائر العقبات الموروثة الموجودة في ساحة المعركة ، حيث ستتواجه البرجوازية والبروليتاريا . بيد ان البروليتاريا لم يكن لها أية فائدة ايضاً في ان ترى البلد موحداً بقيادة بروسيا: فبروسيا ، بقوانينها وتقاليدها واسرتها المالكة ، كانت العدو الجدي الداخلي الوحيد للثورة ، التي ينبغي لها ان تسحقه ؛ فضلاً عن ذلك فان بروسيا لا تستطيع توحيد المانيا إلا بتمزيقها باستبعاد النمسا الالمانية . ان تفكيك الدولة البروسية وتصديق الدولة النمساوية وإعادة توحيد المانيا فعلياً كجمهورية : هذا ما كانه البرنامج الثوري الوحيد الذي استطعنا تبنيه في ذلك الوقت^(١)...



(٩) لينين : التطور الرأسمالي ومسألة القوميات

... ذلك ان الرأسمالية تعرف في تطورها اتجاهين تاريخيين في المسألة القومية: الأول هو استيقاظ الحياة القومية والحركات القومية ، والنضال ضد كل اضطهاد قومي ، وإنشاء دول قومية . والثاني ، تطور شتى العلاقات بين الامم وتكاثرها المتزايد ، وهدم الحواجز القومية ، وإنشاء وحدة الرأسمال العالمية ووحدة الحياة الاقتصادية بصورة عامة، ووحدة السياسة والعلوم، الخ. وكلا الاتجاهين هما قانون عالمي للرأسمالية . فالأول يسود في بدء تطورها والثاني يميز الرأسمالية الناضجة السائرة نحو تحولها الى مجتمع اشتراكي. وبرنامج الماركسيين في المسألة القومية يأخذ هذين الاتجاهين بعين الاعتبار .

ان مبدأ القوميات امر محتم تاريخياً في المجتمع البرجوازي . ان الماركسي، اخذاً بعين الاعتبار هذا المجتمع ، يعترف اعترافاً كاملاً بالشرعية التاريخية

(١) مقتطف من مقال كتبه انجلز في شباط وأوائل آذار عام ١٨٨٤ ، وعنوانه: «ماركس والجريدة الرينانية الجديدة». ترجم النص عن « المؤلفات المختارة » الطبعة الفرنسية ، المجلد ٢ ، ص ٣٦١ ، دار التقدم ، موسكو ، سنة (؟) .

للحركات القومية . ولكن ، لكي لا يتحول هذا الاعتراف الى تمجيد للتعصب القومي ، ينبغي له ان يقتصر بدقة على ما لهذه الحركات من تقدمي ، وإلا يؤدي الى تعمية الوعي البروليتاري بالايديولوجية البرجوازية .

ان استيقاظ الجماهير من الخمود الاقطاعي إنما هو امر تقدمي ، وكذلك نضالها ضد الاضطهاد القومي أياً كان ، وفي سبيل سيادة الشعب ، في سبيل سيادة الأمة . ومن هنا ينجم هذا الواجب المطلق الذي يقضي على الماركسيين بالدفاع عن الروح الديمقراطية ، بأقوى مظاهرها وأشدها حزمًا ومعقولة ، في جميع جوانب المسألة القومية . وتلك مهمة سلبية بخاصة . ولكن لا يسع البروليتاريا ان تمضي أبعد من ذلك في دعم المذهب القومي ، إذ انه ، أبعد من ذلك ، يبدأ نشاط البرجوازية « الايجابي » الرامي الى تقوية المذهب القومي le nationalisme ^(١) .



(١٠) لينين : النضال في سبيل الديمقراطية وارتباطه بالثورة الاشتراكية

ليست الثورة الاشتراكية عملاً واحداً ، وليست معركة واحدة في جبهة واحدة ، إنما هي عصر من النزاعات ، وسلسلة طويلة من المعارك في جميع الجبهات ، أي في جميع مسائل السياسة والاقتصاد ، معارك تنتهي فقط بنزع ملكية البرجوازية . ومن فادح الخطأ الاعتقاد ان النضال في سبيل الديمقراطية يمكن ان يصرف البروليتاريا عن الثورة الاشتراكية او ان يكشف هذه الثورة

(١) مقتطف من مقالة «ملاحظات انتقادية حول المسألة القومية» ، نقلًا عن طبعة دار التقدم الصادرة بكتاب عنوانه «مسائل السياسة القومية والأمية البروليتارية» ، موسكو ١٩٦٩ . وقد ضبطنا ترجمة النص ، وسائر النصوص الاخرى ، على النسخة الفرنسية الصادرة في موسكو ، كتبها لينين في تشرين الاول - كانون الاول ١٩١٣ .

او يحجبها ، الخ . بل على العكس ، فكما انه يستحيل انتصار الاشتراكية إذا لم نحقق الديمقراطية الكاملة ، كذلك لا تستطيع البروليتاريا ان تهيم نفسها للتغلب على البرجوازية اذا لم تشن نضالاً شاملاً ، منهجياً وثورياً ، في سبيل الديمقراطية ^(١) .



(١١) لينين : انقسام الامم ، المطالب الديمقراطية

... يترتب على الاشتراكية-الديمقراطية ان تضع في برنامجها فكرة انقسام الامم الى أمم ظالمة ، مضطهدة ، وأمم مظلومة مضطهدة ، وأن تبرز هذه الفكرة بوصفها حقيقة واقعية أساسية وجوهرية ومحتومة في عصر الامبريالية...
... على نقيض الديمقراطيين البرجوازين الصغار ، لم يرَ ماركس في جميع المطالب الديمقراطية بلا استثناء شيئاً مطلقاً ، بل رأى فيها التعبير التاريخي لنضال الجماهير الشعبية بقيادة البرجوازية ضد الاقطاعية... ومن جهة اخرى ، وعلى نقيض البرودونيين الذين كانوا ينكرون المسألة القومية « باسم الثورة الاجتماعية » ، نرى ان ماركس قد وضع في المرتبة الاولى مبدأ الأمية الاشتراكية القائل ان شعباً يظلم شعباً اخرى لا يمكن ان يكون حراً ^(٢)...



(١٢) لينين : ثلاثة نماذج من البلدان بالنسبة للحركة القومية

ينبغي ، من هذه الزاوية ، تمييز ثلاثة نماذج رئيسية من البلدان :
اولاً ، البلدان الرأسمالية المتقدمة في اوروبا الغربية والولايات المتحدة .

(١) مقتطف من مقالة « الثورة الاشتراكية وحق الأمم في حق تقرير مصيرها » ، نفس المرجع ، كتبها لينين في كانون الثاني - شباط ١٩١٦ .
(٢) نفس المرجع ، ونفس المقالة .

فالحركات القومية التقدمية البرجوازية في هذه البلدان قد انتهت منذ زمن بعيد. ان كل امة من هذه الامم « الكبيرة » تضطهد أماً اخرى في المستعمرات وفي داخل البلاد . ان مهام بروليتاريا الامم المهيمنة هي بالضبط نفس مهام البروليتاريا في انكلترا بالنسبة لاييرلندا في القرن التاسع عشر .

ثانياً ، شرق اوروبا ، اي النمسا والبلقان ، وروسيا بخاصة . ففي هذه البلدان ، كان القرن العشرون هو القرن الذي تطورت فيه بخاصة الحركات القومية البرجوازية الديمقراطية ، وارتدى النضال القومي فيها طابعاً محتتماً . لذا لا تستطيع البروليتاريا في هذه البلدان ان تنهض بمهامها ، سواء من اجل اتمام تحويل هذه البلدان تحويلاً برجوازيّاً ديمقراطياً ، او من اجل مساعدة الثورة الاشتراكية في البلدان الأخرى ، إلا اذا خاضت غمار النضال دفاعاً عن حق الأمم في تقرير مصيرها . ان المهمة الصعبة والهامة جداً هنا هي مهمة دمج وتوحيد النضال الطبقي الذي يخوضه عمال الامم الظالمة مع نضال عمال الامم المظلومة .

ثالثاً ، البلدان نصف المستعمرة ، كالصين وايران وتركيا وجميع المستعمرات ، التي يبلغ عدد سكانها حوالي ١٠٠٠ مليون نسمة . هنا ، الحركات البرجوازية الديمقراطية إما انها تخطو خطواتها الاولى ، او انها ما تزال بعيدة عن ان تستنفد مهامها وتبلغ حدها . لذا يترتب على الاشتراكيين ألا يطالبوا فقط بتحرير المستعمرات فوراً وبلا شروط ودون اي تعويض (ان هذا المطلوب ، في تعبيره السياسي ، ليس سوى الاعتراف بحق تقرير المصير) ؛ وعلى الاشتراكيين ان يدعموا بأشد الحزم العناصر الاكثر ثورية في الحركات الديمقراطية البرجوازية للتحرر القومي في هذه البلدان وان يساعدوا انتفاضاتها (او حريها الثورية ، عند الاقتضاء) ضد الدول الامبريالية التي تضطهدها ^(١) ...



(١) نفس المرجع ، ونفس المقالة .

(١٣) لينين : لا يمكن للبروليتاريا ان تنتصر

إلا عن طريق الديمقراطية

... وبعد . الامبريالية تعني تخطي رأس المال لإطار الدولة القومية ، تعني إتساع الظلم القومي وتفاقمه على اساس تاريخي جديد . وما يستنتج من ذلك على الرغم من بارابيلوم ، هو انه يتوجب علينا ان نربط النضال الثوري في سبيل الاشتراكية ببرنامج ثوري في قضية القوميات .

ويستنتج من آراء بارابيلوم انه باسم الثورة الاشتراكية ينبذ باحتقار البرنامج الثوري المستقيم (الاورتودكسي) في الميدان الديمقراطي . وهذا غير صحيح . فالبروليتاريا لا يمكنها ان تنتصر إلا عن طريق الديمقراطية ، أي عن طريق تحقيق الديمقراطية بصورة تامة ، وعلى ان تربط بكل خطوة من خطوات نضالها المطالب الديمقراطية مصاغة بالصيغة الأشد حزمًا . ومن الحماقة ان نعارض بالثورة الاشتراكية والنضال الثوري ضد الرأسمالية إحدى قضايا الديمقراطية ، قضية القوميات في هذه الحالة . يجب علينا ان نربط النضال الثوري ضد الرأسمالية ببرنامج ثوري وتكتيك ثوري حيال جميع المطالب الديمقراطية ... وما بقيت الرأسمالية لا يمكن تحقيق جميع هذه المطالب ، إلا في حالات استثنائية ، ولا بدّ لهذا التحقيق من ان يأتي مشوهاً وغير كامل . ونحن ، إذ نستند الى الديمقراطية التي جرى تحقيقها ونفضح عدم كمالها في عهد الرأسمالية ، نطلب اسقاط الرأسمالية ومصادرة املاك البرجوازية باعتبار ذلك قاعدة لا بدّ منها للقضاء على بؤس الجماهير ولتحقيق جميع هذه التحويلات الديمقراطية تحقيقاً كاملاً وشاملاً . وسيبدأ اجراء بعض هذه التحويلات قبل اسقاط البرجوازية وإجراء بعضها الآخر في مجرى اسقاطها ، وإجراء قسم ثالث بعد اسقاطها . ان الثورة الاجتماعية ليست معركة واحدة وإنما هي عصر جملة كاملة من المعارك تدور حول جميع قضايا التحويلات

الاقتصادية والديمقراطية على اختلافها ، التي لا تنتهي إلا بمصادرة املاك البرجوازية . وباسم هذا الهدف النهائي على وجه الدقة ، يتوجب علينا ان نصنع كل مطلب من مطالبنا الديمقراطية بصيغة ثورية حتى النهاية . ومن المحتمل كل الاحتمال ان يقوم العمال في هذا البلد او ذاك بإسقاط البرجوازية قبل ان يتم تحقيق أي تحويل من التحويلات الديمقراطية الاساسية تحقيقاً كاملاً . ولكن لا يمكننا ان نتصور ابدأ ان البروليتاريا ، بوصفها طبقة تاريخية ، تستطيع ان تغلب على البرجوازية اذا لم تحضرها لذلك التربة بروح الديمقراطية الثورية الحازمة كل الحزم والمستقيمة كل الاستقامة (١) .



(١٤) لينين : الثورة الاشتراكية في عصر الامبريالية

... اسمحوا لي ان أتناول ببضع كلمات الحالة الراهنة كما تبدو بالنسبة لقوميات الشرق . انتم تمثلون منظمات واحزاباً شيوعية تنتسب لمختلف شعوب الشرق . وينبغي لي ان اقول انه اذا تيسر للبلاشفة الروس احداث صدع في الامبريالية الهرمة ، اذا تيسر لهم القيام بمهمة في منتهى العسر وان تكن في منتهى النبل ، هي مهمة احداث طرق جديدة في الثورة ، ففي انتظاركم انتم ممثلي جماهير الكادحين في الشرق مهمة أعظم واكثر جدة . إذ يتضح كل الوضوح ان الثورة الاشتراكية التي تتقدم في جميع أصقاع العالم لن تكون قط مجرد انتصار للبروليتاريا في اي بلد من البلدان على برجوازياتها . فلو كانت الثورات تجري بسهولة وسرعة لكان ذلك من الأمور الممكنة . ونحن نعلم ان الامبرياليين

(١) مقتطف من مقالة بعنوان « البروليتاريا الثورية وحق الامم في تقرير المصير » ، عن كتاب « حركة شعوب الشرق الوطنية التحررية » ، صادر عن دار التقدم ، موسكو ١٩٦٧ ، ص ١٦٨ / ١٦٩ ، كتبت بتاريخ لا يسبق ١٦ تشرين الاول ١٩١٥ ، ونشرت لأول مرة عام ١٩٢٧ .

لن يسمحوا بذلك ، وان جميع البلدان مسلحة ضد بلشفيتها الداخلية ، وان تفكيرها يتجه كله الى الانتصار على البلشفية في ديارها . ولذلك تنشأ في كل بلد من البلدان حرب أهلية 'يُجذب للاشتراك فيها الى جانب البرجوازية الاشتراكيون القدماء دعاة الوئام . وعلى ذلك فالثورة الاشتراكية لن تكون لا كلياً ولا بصورة رئيسية عبارة عن نضال البروليتاريين الثوريين في كل بلد من البلدان ضد برجوازياتهم ؛ كلا، بل ستكون نضالاً من قبل جميع المستعمرات والبلدان التي تظلمها الامبريالية ، نضالاً من قبل جميع البلدان ضد الامبريالية العالمية (١) ...



(١٥) لينين : تحول حركات التحرر القومي ضد الرأسمالية

... فنجد بداية القرن العشرين حدثت في هذه الناحية تغيرات كبيرة تتلخص فيما يلي : ان الملايين ومئات الملايين (وفي الواقع الاكثرية الكبرى من سكان المعمورة) تبرز في الوقت الحاضر بصفة عوامل ثورية نشيطة مستقلة . ومن الواضح كل الوضوح ان هذه الحركة التي تقوم بها غالبية سكان العالم ، والتي تهدف في الأصل الى التحرر القومي ، سوف تتحول ضد الرأسمالية والامبريالية في المعارك الفاصلة التي ستخوضها الثورة العالمية في المستقبل ، وقد تلعب دوراً ثورياً اكبر مما نتوقع (٢) ...



(١) مقتطف من « تقرير في المؤتمر الثاني لعامة روسيا للمنظمات الشيوعية لشعوب الشرق » ، نشر في كانون الاول ١٩١٩ ، المرجع السابق ، ص ٣٣٩ / ٣٤٠ .

(٢) مقتطف من « تقرير عن خطة الحزب الشيوعي الروسي » ، القى في المؤتمر الثالث للأمية الشيوعية ، بتاريخ ٥ تموز ١٩٢١ .

(١٦) ستالين : ما هي الأمة ؟

... ما هي الأمة ؟

الأمة هي ، قبل كل شيء ، جماعة ، جماعة معينة من الناس .
هذه الجماعة ليست عرقاً ولا عشيرة . لقد تشكلت الامة الايطالية الحالية من الرومان والجرمان والإتروسك واليونان ، الخ . والأمة الفرنسية قد تكونت من الغاليين والرومان والبريتونيين والجرمان ، الخ . ويقال الشيء نفسه بالنسبة للانكليز والالمان والآخرين ، الذين تكونوا في أمم من بشر ينتمون الى عروق وعشائر مختلفة .

وعلى هذا فان الأمة ليست جماعة عرقية او عشائرية ، بل هي جماعة من الناس قد تكونت تاريخياً .

ومن جهة اخرى ، فما لا شك فيه انه لا يمكن ان يطلق اسم أمة على الدولتين الكبيرتين ، دولة سيروس او الاسكندر ، رغم انها قد تكونت تاريخياً من عشائر وعروق مختلفة . لم يكونا أمتين ، بل هما أكداس طارئة وعرضية من فئات من الناس وضعيفة الارتباط فيما بينها ، تتبعثر وتتوحد تبعاً لنجاحات او هزائم هذا الفاتح او ذاك .

لذا فان الأمة ليست 'كدساً عرضياً' ولا وقتياً ، بل هي جماعة ثابتة من الناس .

ولكن كل جماعة ثابتة لا تخلق الأمة . فالنمسا وروسيا هما ايضاً جماعات ثابتة ، ولكن لا احد يسميها أمة . ما الذي يميز الجماعة القومية عن جماعة تؤطرها دولة ؟ واقعة ، من وقائع عديدة ، انه لا يمكن تصور جماعة قومية بدون لغة مشتركة ، في حين ان رابطة اللغة المشتركة ليست أمراً ضرورياً بالنسبة لجماعة مؤطرة في دولة . كان مستحيلاً ان توجد امة تشيكية في النمسا وبولونية في روسيا بدون لغة مشتركة لكل منهما ؛ في حين ان وجود عدد من اللغات داخل روسيا والنمسا لم يحل دون وحدة كل من هاتين الدولتين .

ونحن هنا بصدد اللغات الشعبية المحكية بالطبع وليس اللغات الرسمية
للادارات الرسمية .

وعلى هذا فان **جامعة اللغة** هي احدى السمات المميزة للأمة .

هذا لا يعني بالطبع القول ان مختلف الامم تتكلم دوماً وفي كل مكان لغات
مختلفة ، او ان سائر الأمم التي تتكلم نفس اللغة تكونّ أمة واحدة بالضرورة .
لا بد لكل أمة من لغة مشتركة ، ولكن ليس من الضروري ان يكون ثمة
لغات مختلفة للأمم مختلفة ! ليست امة من تتحدث عدة لغات في آن واحد ،
ولكن هذا لا يعني ايضاً ان لا يمكن ان توجد امتان مختلفتان تتحدثان نفس
اللغة ! ان الانكليز والاميركيين الشماليين يتحدثون بنفس اللغة ، بيد انهم لا
يشكلون امة واحدة . والأمر كذلك بالنسبة للنرويجيين والدانمركيين ،
الانكليز والاييرلنديين .

ولكن لماذا ، مثلاً ، لا يشكل الانكليز والاميركيون الشماليون امة
واحدة ، رغم اللغة المشتركة بينهما ؟

اولاً ، لأنهم لا يعيشون جنباً الى جنب ، بل على اقاليم مختلفة . فالأمة
لا تتكون إلا كحvisلة لعلاقات دائمة ومنظمة ، كحvisلة للحياة المشتركة بين
الناس تستمر جيلاً بعد جيل . والحال ان حياة مشتركة طويلة بين الناس هي
امر مستحيل دون ارض مشتركة . كان الانكليز والاميركيون في القديم
يسكنون ارضاً واحدة . ثم هاجر قسم من الانكليز من انكلترا الى ارض
اخرى ، في اميركا ، وهناك على تلك الارض الجديدة ، كونوا مع مر الزمن
أمة جديدة ، هي الأمة الاميركية الشمالية . ان اختلاف الارض وانقطاعها
قد قاد الى تشكيل امم مختلفة .

وعلى هذا فإن جامعة الارض هي إحدى السمات المميزة للأمة .

ولكن هذا ليس كل شيء . ان رابطة الارض لا تكونّ بحد ذاتها امة .
ولهذا لا بدّ ان توجد فضلاً عن ذلك صلة اقتصادية داخلية ، تلحم مختلف
اجزاء الأمة في كل واحد . ان صلة كهذه لم توجد بين انكلترا وأميركا الشمالية

ولهذا فإنها يشكّلان امتين مختلفتين . غير ان الاميركيين الشماليين انفسهم لا يستحقون ان يُسمّوا امة ، لو ان مختلف اصقاع اميركا الشمالية لم تكن مترابطة فيما بينها مُشكلةً كلّاً اقتصادياً واحداً ، بفضل تقسيم العمل فيما بينها وبفضل تطور طرق المواصلات ، الخ .

لنأخذ الجيورجيين، كمثّل. ان الجيورجيين قبل الاصلاح ^(١) كانوا يعيشون في اقليم مشترك ويتكلمون لغة واحدة ؛ بيد انهم لم يكونوا يشكلون امة ، بالمعنى الحصري الضيق للكلمة ، وذلك لأنهم لم يكونوا يستطيعون ، بسبب انقسامهم الى جملة إمارات منفصلة عن بعضها البعض ، العيش في حياة اقتصادية مشتركة ، وكانوا خلال قرون يحاربون بعضهم بعضاً ، وينزلون الخراب ببعضهم البعض ، ويجرضون الايرانيين والأتراك بعضهم على الآخر . ان إعادة الوحدة الوقتية والعارضة بين هذه الامارات، التي نجح احياناً قيصر محظوظ في تحقيقها ، لم تكن تضم ، في احسن الحالات، سوى المجال الاداري السطحي ، ثم سرعان ما تتحطم هذه الوحدة امام نزوات الامراء ولا مبالاة الفلاحين . فضلاً عن ذلك فإن الأمر لم يكن ممكناً ان يجري على نحو آخر بسبب تشرذم جيورجيا الاقتصادي . ان جيورجيا ، كأمة ، لم تظهر إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، عندما دفعت تصفية القنانة وتقدم الحياة الاقتصادية للبلد ونمو خطوط المواصلات ونشوء الرأسمالية الى قيام تقسيم العمل بين المناطق الجيورجية ، وإلى زعزعة الانعزال الاقتصادي للامارات بصورة نهائية ، لتوحيدها في كل واحد .

والأمر نفسه ينطبق على الأمم الاخرى التي اجتازت مرحلة الاقطاع وتطورت في داخلها الرأسمالية .

كذلك ، فان هذا ليس كل شيء . ففضلاً عن كل ما قلنا ، ينبغي ان

(١) وهو الاصلاح الذي جرى في فترة ١٨٦٣ / ١٨٦٧ ، الذي ألغى القنانة في روسيا ، (ملاحظة للناسر الفرنسي) .

يؤخذ بعين الاعتبار الخصائص النفسية للناس الموحدون في أمة. فالأمة لا تتميز عن بعضها بشروط الحياة فحسب ، بل تتميز بالعقلية التي تتجلى في خصائص الثقافة القومية . وإذا كانت انكلترا وأمريكا الشمالية وإيرلندا تتكلم كلها لغة واحدة وتشكل مع ذلك ثلاث أمم ، فإن دوراً هاماً قد لعبه ، في الحالة هذه ، هذا التكوين النفسي الأصيل الذي أنضج وتبلور لدى هذه الأمم جيلاً بعد جيل ، تبعاً لظروف وشروط وجودها المختلفة .

من الواضح ان التكوين النفسي بالذات ، وبتعبير آخر «الطابع القومي» ، يبدو للملاحظ وكأنه شيء لا يمكن التقاطه ؛ ولكن لأنه يتجلى في أصالة الثقافة المشتركة للأمة ، لذا فهو أمر يمكن التقاطه ولا يمكن ان يكون أمراً غير معروف .

من نافلة القول ان « الطابع القومي » ليس شيئاً ثابتاً ثباتاً نهائياً ، وانه يتغير مع تغير شروط وظروف الحياة ؛ ولكن بقدر ما يكون موجوداً في لحظة معينة ، يسم بميسمه سحنة الأمة .

وعلى هذا فان جامعة التكوين النفسي ، التي تتجلى في جامعة الثقافة ، هي إحدى الخصائص المميزة للأمة .

وبهذا نكون قد استنفدنا الحديث عن سائر العلامات المميزة للأمة .

الأمة هي جماعة ثابتة من الناس تألفت تاريخياً على أساس جامعة اللغة والارض والحياة الاقتصادية والتكوين النفسي الذي يجد تعبيراً عنه في الثقافة المشتركة .

ومن البديهي ، ان الأمة خاضعة ، كأية ظاهرة تاريخية ، لقوانين التطور ، وهي تملك تاريخاً ، ولها بداية ونهاية .

من الضروري ان نؤكد ان أيّاً من العلامات المذكورة لا تكفي بفردتها لتعريف الأمة. بل أكثر من ذلك فان الافتقار ولو الى واحدة من هذه العلامات يكفي لكي لا تبقى الأمة أمة .

من الممكن تصور جماعة من الناس يتوفرون على «طابع قومي» مشترك ، ولكن لا يمكن ان يقال انها تشكل أمة واحدة، اذا كانت منفصلة اقتصادياً، اذا كانت تعيش على اراضي مختلفة (منفصلة) ، اذا كانت تتكلم لغات مختلفة، الخ . تلك هي، مثلاً، حالة اليهود الروس والغالييسيين والجيورجيين ، وهؤلاء الذين يعيشون على جبال القوقاز، الذين لا يشكلون ، في رأينا ، أمة واحدة. من الممكن تصور جماعة من الناس حياتهم الاقتصادية مشتركة وأراضيهم مشتركة، ولا تشكل امة مع ذلك، اذا لم تتوفر على جامعة اللغة و « الطابع القومي » . تلك هي ، مثلاً ، حالة الالمان والليتوانيين في بلدان البلطيق . وأخيراً ، فان النروجيين والدانمركيين يتكلمون لغة واحدة ، دون ان يشكلوا ، بسبب ذلك، امة واحدة، نظراً لعدم توفرهم على العلامات الاخرى. ان توفر هذه العلامات كلها مجتمعة هو الذي يخلق الأمة .

قد يخال البعض ان « الطابع القومي » ، ليس مجرد علامة من العلامات ، بل العلامة الأساسية الوحيدة للأمة ، وان سائر العلامات الاخرى تكوّن ، بالمعنى الضيق للكلمة، شروط تطور الامة لا علاماتها. وجهة النظر هذه يتقاسمها، مثلاً ، المنظران الاشتراكيان الديمقراطيان للمسألة القومية ، المعروفان في النمسا ، ر. شبرنجر ، وأوتو باور بخاصة . لنمحص نظريتهما في الامة .

يقول شبرنجر : « الأمة هي جَمْع association من الناس يفكرون ويتكلمون على نحو واحد ... هي جامعة ثقافية لأناس متعاصرين لم يعودوا مرتبطين بأرض معينة » .

اذأ « جَمْع » من الناس يفكرون ويتكلمون على نحو واحد ، مهما بلغ التفكك والفصل فيما بينهم وأينما قطنوا . ويذهب باور الى أبعد من ذلك :

« ما هي الأمة ؟ هل جامعة اللغة هي التي توحد الناس في أمة ؟ ولكن الانكليز والاييرلنديين ... يتكلمون لغة واحدة دون ان يكونوا مع ذلك

شعباً واحداً. اليهود ليس لهم مطلقاً لغة مشتركة، ويشكلون مع ذلك أمة». ما هي الأمة ، إذن ؟

يقول باور : « الأمة هي جماعة من الناس ذات طابع نسبي » .

ولكن بالتحديد ما هو هذا الطابع ، الطابع القومي ؟

الطابع القومي هو « جملة العلائم المميزة لبشر ينتمون الى قومية عن بشر آخرين ينتمون الى قومية أخرى ، وهو مركب صفات مادية ومعنوية تميز قومية عن أخرى » (باور) .

ان باور ، الذي يعرف ان الطابع القومي لا يسقط من السماء ، يضيف قائلاً : « ان سمات الناس ليست محددة بشيء آخر سوى بمصيرهم ، ... » الأمة ليست شيئاً آخر سوى جامعة مصير « ، وهي بدورها تتحدد بـ « الظروف التي ينتج فيها الناس وسائل عيشهم ويقتسمون خلالها نتاج عملهم » .

وهذا نصل الى « اكمل » تعريف للأمة ، جاء به باور :

« الأمة هي مجموع كل الناس الموحدون في جامعة الطابع القومي المرتكزة على جامعة المصير » .

إذن جامعة من الخصائص القومية المرتكزة على جامعة المصير ، مأخوذة بمعزل عن الرابطة الالزامي مع الارض واللغة والحياة الاقتصادية ، هي ما يكون الأمة .

ولكن ما الذي يبقى ، في هذه الحالة ، من الأمة ؟ ولكن هل يمكن الحديث عن « جامعة مصير » لدى أناس منفصلين اقتصادياً بعضهم عن الآخر ويعيشون على اراضي مختلفة ويتكلمون جيلاً بعد جيل لغات مختلفة ؟

يتكلم باور عن اليهود بوصفهم أمة ، رغم انهم — حسب رأيه — « لا يملكون البتة لغة مشتركة » ؛ ولكن أي « جامعة مصير » واي تلاحم قومي يمكن الحديث عنها ، مثلاً ، لدى اليهود الجيورجيين والداغستانيين والروس والاميركيين ، المنفصلين تماماً عن بعضهم البعض ، ويعيشون في اراضٍ مختلفة ويتكلمون لغات مختلفة ؟

ان هؤلاء اليهود يعيدشون ، بلا ادنى شك ، في حياة اقتصادية وسياسية مشتركة مع الجيورجيين والروس والاميركيين ، ويحيون في جو ثقافي مشترك مع هذه الشعوب ؛ وهذا لا يمكن إلا ان يترك أثراً على طابعهم القومي ؛ واذا كان قد بقي لهم شيء مشترك ، فهو الدين وأصلهم المشترك وبعض رواسب طابعهم القومي . كل هذا هو أمر لا ريب فيه . ولكن كيف يمكن التأكيد جدياً ان الطقوس الدينية المتبسة والرواسب النفسية التي تضحل تؤثر على « مصير » اليهود المذكورين بقوة اشد من تأثير الوسط الحي الاجتماعي والاقتصادي والثقافي الذي يحيط بهم ؟ والحال انه انطلاقاً من هذه الفرضية فقط يمكن الحديث عن اليهود بشكل عام بوصفهم امة واحدة .

ما الذي يميز إذن امة باور عن « الروح القومية » الصوفية والمكتفية بنفسها ، روح الروحانيين ؟

إن باور يضع حداً لا يمكن اختراقه بين « السمة المميزة » لأمة ما (الطابع القومي) و « شروط » حياتها ، بفصل الاولى عن الأخيرة . ولكن ما هو « الطابع القومي » ان لم يكن انعكاس شروط الحياة وظروفها ، ان لم يكن تكييفاً وبلورة لامارات وبصيات البيئة المحيطة على الأمة ؟ كيف يمكن ان 'نحصر في الطابع القومي فقط ، بعزله وفصله عن الارض التي أفرزته ؟

ثم ، ما الذي كان يميز ، بالمعنى الضيق للكلمة ، الأمة الانكليزية عن الاميركية الشمالية في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، عندما كانت اميركا الشمالية ما تزال تسمى « انكلترا الجديدة » ؟

بالطبع ، لم يكن ما يميزهما هو «الطابع القومي» ، وذلك لأن الاميركيين الشماليين كانوا من اصول انكليزية ؛ وكانوا قد حملوا معهم الى اميركا ، فضلاً عن اللغة ، الطابع القومي الانكليزي ، الذي لم يستطيعوا بالطبع ان يتحولوا عنه بسرعة ، على ان طابعاً خاصاً بهم كان يتشكل حقاً تحت تأثير الظروف الجديدة . بيد انه كانت تتشكل منذ تلك الحقبة ، رغم جامعة الطابع القومي الكبيرة الى هذا الحد او ذاك ، امة متميزة عن الأمة الانكليزية ! من الواضح

ان « انكلترا الجديدة » ، بوصفها أمة ، كانت لا تتميز آنئذ عن انكلترا ، بوصفها امة ، من حيث الطابع القومي الخاص ، او ان تميزها من حيث الطابع القومي كان اقل من تميزها عن الوسط الانكليزي المختلف وظروف الحياة فيه . وعلى هذا النحو يتضح انه لا توجد ، في الحقيقة ، علامة مميزة وحيدة للأمة . توجد فقط مجموعة من العلائم ، وعند اجراء مقارنة بين الامم تبرز بوضوح تارة هذه العلامة (الطابع القومي) وتارة اخرى تلك (اللغة) وتارة ثالثة هذه (الارض ، الظروف الاقتصادية) . الأمة هي حصيلة تضافر سائر العلائم .

ان وجهة نظر باور تطابق بين الأمة والطابع القومي ، وتنتزع الأمة عن الأرض وتجعل منها ضرباً من قوة غير مرئية ، تكفي نفسها بنفسها . وعندئذ لا تعود أمة حية متحركة ، بل تصبح ضرباً من صوفية لا يمكن التقاطها ، ماورائية . لأنه ، مكرراً القول ، ماهي ، مثلاً ، هذه الأمة اليهودية ، المؤلفة من يهود جيورجين وداغستانيين وروس وأميركان وآخرين ، والتي لا يفهم بعضهم البعض الآخر (يتكلمون لغات مختلفة) ، ويعيشون في اصقاع مختلفة من المعمورة ، والذين لن يروا بعضهم بعضاً ، ولم يتحركوا قط بصورة مشتركة ، لا في زمن الحرب ولا في زمن السلم ؟ كلا ، ليس لمثل هذه « الامم » ، التي لم توجد إلا على الورق ، أقامت الاشتراكية - الديمقراطية برنامجها . ان الاشتراكية - الديمقراطية لا تستطيع ان تأخذ بعين الاعتبار إلا الامم الحقيقية الفعلية ، التي تعمل وتتحرك ، والتي تجبر الآخرين ، لهذا السبب ، على ان يحسبوا لها حساباً . ان باور يخلط بوضوح بين الأمة ، وهي مقولة تاريخية ، والعشيرة ، وهي مقولة إثنوغرافية .

غير ان باور نفسه يشعر ، كما هو ظاهر ، بضعف موقفه . ان باور الذي ينادي بتصميم ، في بداية كتابه ، بأن اليهود أمة ، يعود فيصحح نفسه في نهاية الكتاب ، مؤكداً ان « المجتمع الرأسمالي بوجه عام لا يسمح (لليهود) بأن يحافظوا على انفسهم كأمة » ، وهو يدبجهم في أمم اخرى . والسبب ،

كما يبدو له ، هو ان « اليهود لا يملكون اقليماً محدداً لاستيطانهم » ، في حين ان ثمة اقليماً للتشيك ، مثلاً ، الذي يُفترض ، حسب رأي باور ، انهم سيحافظون على انفسهم بوصفهم امة . والخلاصة ، فان السبب في ذلك يكمن في الافتقار الى ارض .

ان باور عندما يعقل الأمور على هذا النحو ، يريد ان يبرهن ان الاستقلال الذاتي القومي لا يمكن ان يكون مطلب العمال اليهود ، غير انه ينسف ، بسبب هذه الواقعة ، وهو غير عامد ، نظريته الخاصة ، التي تنكر جامعة الارض ، بوصفها احدى علائم الأمة .

غير ان باور يذهب الى أبعد من ذلك . فهو يصرح بحزم في اول كتابه ان « اليهود ليس لهم قطعاً لغة مشتركة » ، ولكنهم يشكلون امة مع ذلك » . ولكن ما ان يصل الى الصفحة ١٣٠ حتى يغير وجهته بنفس الحزم : « مما لا ريب فيه ان أية أمة ليست ممكنة الوجود بدون لغة مشتركة » .

ان باور كان يريد ان يبرهن هنا ان « اللغة هي الأداة الأكثر أهمية في خلق العلاقات بين البشر » ، غير انه قد برهن ، في نفس الوقت كذلك ، وهو غير عامد ، على ما لم ينو البرهنة عليه ، إلا وهو : قصور نظريته في الأمة ، النظرية التي تنكر أهمية جامعة اللغة .

وهكذا تكذب هذه النظرية نفسها بنفسها ، وهي النظرية المنسوجة بخيط مثالي ^(١) .

(١٧) ستالين : ما هي الأمة الحديثة ؟

كثيرة هي الأمم الحديثة على هذه الارض . ثمة أمم قد نمت وتطورت في عصر الرأسمالية الصاعدة عندما جمعت البرجوازية ، بقضائها على الاقطاعية

(١) مقتطف من كتاب ستالين « الماركسية والمسألة القومية والكولونيالية » ، ص ٢٠/١١ ، المنشورات الاجتماعية ، باريس ، ١٩٤٩ ، حررها ستالين في كانون الثاني ١٩١٣ .

والتشرذم الاقطاعي ، الأمة في كل واحد ولحمت بنيانها . تلك هي الأمم المسماة بـ « الحديثة » .

انك تزعم ان الامم ولدت ووجدت قبل الرأسمالية . ولكن كيف يمكن للأمم ان تولد وأن توجد قبل الرأسمالية ، خلال الفترة الاقطاعية ، في حين ان البلدان كانت مجزأة الى إمارات مستقلة ، ولم تكن غير مرتبطة ببعضها بروابط قومية فحسب ، بل كانت تنكر بتصميم ضرورة مثل هذه الروابط؟ ورغم تأكيدك الخاطئة ، فإنه لم تكن توجد ولا كان ممكناً ان توجد امم في المرحلة ما قبل الرأسمالية ، نظراً لأنه لم يكن قد وجد بعد اسواق قومية ولا مراكز قومية اقتصادية ولا ثقافية ، ولأنه لم يكن يوجد بالتالي عوامل تصفي التجزئة القومية لشعب ما وتجمع اجزاء هذا الشعب الذي كان مجزأ ، حتى ذلك الحين ، في كل قومي واحد .

لا شك ان عناصر الأمة (اللغة ، الارض ، الثقافة المشتركة ، الخ ...) لم تسقط من السماء بل تشكلت وتكوّنت شيئاً فشيئاً منذ المرحلة ما قبل الرأسمالية . بيد ان هذه العناصر كانت في حالة جنينية ، وهي في احسن الاحوال كانت تشكل عناصر كامنة من زاوية التشكّل والتكوّن المقبل للأمة عند حضور بعض الشروط والظروف المواتية . هذه العناصر الكامنة لم تتحول في الحقيقة إلا في مرحلة الرأسمالية الصاعدة ، بأسواقها القومية وبرأكزها الاقتصادية والثقافية ^(١) .



(١٨) ستالين : المحتوى الاجتماعي للحركة القومية

... فيما يتعلق بالمسألة الثانية (مسألة المحتوى الاجتماعي الداخلي للحركة القومية في العصر التاريخي الراهن) ، فقد أكدت في خطابي ان الرفيق سيمتش

(١) مقتطف من نفس المرجع ، ص ٢٥١ / ٢٥٥ ، كتب في ١٨ آذار ١٩٢٩ .

« لا يرغب في ان يتصور المسألة القومية بوصفها مسألة فلاحية أساسها » .
هل هذا صحيح ؟ لنقرأ المقطع التالي من خطاب الرفيق سيمتش في اللجنة
اليوغوسلافية ، واحكموا على ذلك بأنفسكم .
« ما هو المعنى الاجتماعي للحركة القومية في يوغوسلافيا ؟ يتساءل الرفيق
سيمتش ، ثم يجيب فوراً : هذا المضمون الاجتماعي إنما يمكن في صراع التنافس
بين العاصمة الصربية من جهة والعاصمة الكرواتية والسلوفينية من جهة أخرى » .
ان يكون لصراع التنافس بين البرجوازية السلوفينية والكرواتية مع
البرجوازية الصربية دوراً ما في هذا المجال ، فهذا امر لا شك حوله طبعاً .
ولكنه امر لا يقبل الجدل ايضاً ان المرء الذي يرى المضمون الاجتماعي
للحركة القومية في صراع التنافس بين مختلف القوميات لا يستطيع ان ينظر
الى المسألة القومية بوصفها مسألة فلاحية أساسها . ما الذي يشكل جوهر
المسألة القومية ، الآن وقد أصبحت المسألة المحلية او الداخلية للدولة مسألة
عالمية ، مسألة نضال المستعمرات والقوميات التابعة ضد الامبريالية ؟ ان
جوهر المسألة القومية اليوم هو نضال الجماهير الشعبية في المستعمرات والقوميات
التابعة ضد الاستثمار المالي وضد الاستعباد السياسي وضد ضياع الشخصية
الثقافية لهذه المستعمرات والقوميات الذي تسببه البرجوازية الامبريالية للأمم
المهيمنة . وعندما تطرح المسألة القومية على هذا النحو ، أي مغزى يمكن ان
يبقى لصراع التنافس بين برجوازيات مختلف القوميات ؟ ليس مغزى حاسماً
بالتأكيد ، بل لا يبقى له ، في بعض الحالات ، من أهمية . من الواضح تماماً
ان الموضوع الرئيسي هنا ليس كون برجوازية قومية ما تحوز او يمكن ان
تحوز في صراع للتنافس مع برجوازية قومية أخرى ، بل كون المجموعة
الامبريالية للقوميات المهيمنة تستثمر وتضطهد كتلة الجماهير الأساسية ، وتستثمر
وتضطهد قبل كل شيء الجماهير الفلاحية في المستعمرات والقوميات التابعة ؛
وهي باضطهادها واستثمارها لهم إنما تدفعهم في نفس الوقت الى النضال ضد
الامبريالية ، وتجعلهم حلفاء للثورة البروليتارية . لا يمكن النظر الى المسألة

القومية بوصفها مسألة فلاحية أساسها ، لو ان المضمون الاجتماعي للحركة القومية يمكن ان يُرَدّ او يقصر على صراع التنافس بين برجوازية مختلف القوميات . وبالعكس ، لا يمكن رؤية المضمون الاجتماعي للحركة القومية في صراع التنافس بين برجوازية مختلف القوميات ، لو انه من الممكن النظر الى المسألة القومية بوصفها مسألة فلاحية أساسها . من غير الممكن اطلاقاً اقامة ضرب من المساواة بين الصيغتين .

يستند الرفيق سيمتش الى مقطع من كراس ستالين : « الماركسية والمسألة القومية » ، الذي كتب في نهاية عام ١٩١٢ ، وجاء فيه : « النضال القومي هو صراع الطبقات البرجوازية فيما بينها » . انه يريد من وراء هذا الاستشهاد، كما هو ظاهر، ان ينوه بصواب صيغته التي تميل الى تحديد المضمون الاجتماعي للحركة القومية في ظروف تاريخية آنية . غير ان كراس ستالين قد كتب قبل الحرب الامبريالية ، في حين لم تكن فيه المسألة القومية بعد ، في مفهوم الماركسيين ، مسألة ذات مضمون ومدى عالمي ، وفي حين كان فيه المطلب الأساسي للماركسيين الخاص بحق الأمم في تقرير المصير يعتبر لا جزءاً من الثورة البروليتارية بل جزءاً من الثورة الديمقراطية البرجوازية. من المضحك ألا يرى المرء ان الوضع الدولي قد تغير جذرياً بعد ذلك ؛ وان الحرب من جهة وثورة اكتوبر في روسيا من جهة اخرى قد حولتا المسألة القومية من كونها جزءاً من الثورة الديمقراطية البرجوازية الى جزء من الثورة الاشتراكية البروليتارية ...

ثمّة بخس في تقدير قوة الحركة القومية وعدم إدراك لطابعها الشعبي العميق، والثوري العميق^(١) ...

(١) مقتطف من نفس المرجع ، ص ٢١١ / ٢١٩ ، نشر في ٣٠ حزيران ١٩٢٥ .

فهرس

الموضوع

الصفحة

٥	تقديم
٧	القسم الاول : الماركسية والأمة والمسألة القومية
٩	الماركسية والأمة بقلم مكسيم رودنسون
١١	١ - مسألة الأمة في الحركة الايديولوجية الماركسية
٣٥	٢ - التكوينات ذات النمط الاقوامي وعلم الاجتماع الماركسي
٤٧	٣ - القيم القومية والايديولوجية الماركسية
٥٣	حول النظرية الماركسية في الأمة بقلم مكسيم رودنسون
٥٤	- مقال ستالين
٦٢	- نظرة نقدية اولية
٦٦	- نحو منظور تاريخي
٧٠	- الوطنية قبل الأمة
٧٤	- موقف الحركة الاشتراكية
٧٥	- امم المستعمرات
٧٧	القسم الثاني : الماركسية والقومية العربية والوحدة العربية
	الامة العربية ، الوحدة العربية ، الامبريالية ، الثورة الاشتراكية
٧٩	بقلم الياس مرقص
١٠٧	الماركسية والقومية العربية بقلم مكسيم رودنسون
١٠٧	القوم العربي
١١٠	سير تطور القومية العربية
١١٢	الايديولوجيات من الطراز القديم
١١٣	الايديولوجية الجديدة
١١٧	الانجازات الحديثة

١٢٣	بقلم اميل توما	الوحدة العربية في التطور التاريخي
١٢٤		ظروف تطور العالم العربي التاريخية
١٢٧		اثر احتلال الامبريالية للولايات العربية ودورها في تطور الاحداث
١٢٨		المحاولة الاولى لإقامة الدولة العربية الكبيرة
١٣١		الحركات القومية والفكر السياسي
١٣٧		بين الثورة البرجوازية التركية والحرب العالمية الاولى
١٤٤		الحرب العالمية الاولى
١٤٩		ثورة اكتوبر والموجة الثورية في العالم العربي
١٥٣		معركة الوحدة العربية الحديثة الاولى
١٦١		الفترة ما بين الحربين
١٧٥		قيام الجامعة العربية في ظروف الحرب العالمية الثانية
١٨٢		فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية واتساع قاعدة الحركة الوحدوية
١٨٧		الوحدة بين سوريا ومصر
١٩١		ما هي العوامل التي قررت مصير الوحدة السورية المصرية
١٩٤		أسباب الانفصال
١٩٥		الوحدة العربية اليوم
١٩٨		بعض النتائج
١٩٩		قيادة الوحدة العربية
٢٠٢		تيارات الوحدة العربية
٢٠٧		النصوص

٢٠٩ - ٢١٩	نصوص ماركس وانجلز حول التطور البرجوازي والوحدة الالمانية
٢١٩ - ٢٢٥	نصوص لينين حول مسألة القوميات وتحوّل الحركة القومية
٢٢٦ - ٢٣٧	نصوص ستالين حول الأمة والمحتوى الاجتماعي للحركة القومية

الامة، المسألة القومية، الوحدة العربية

الساكنية

يضم هذا الكتاب ثلاثة اقسام :

القسم الاول كتبه مكسيم رودنسون ، وقد عرض فيه النظرية الماركسية الى مسألة الامة والتكوينات والقيم القومية ، كما تناول نظرية ستالين بالنقد والتحليل مبيناً ثغراتها وحدودها والعواقب السياسية الضارة التي تؤدي اليها . ان دراسة رودنسون هذه تكشف التزييف والسطحية التي أصابت المقولات الماركسية على أيدي الماركسين التقليديين والماركسين الاقتصاديين المستحدثين .

القسم الثاني كتبه رودنسون ومرقص وتوما ، ويتضمن تحليلات ماركسية لتطور الحركة القومية العربية كحركة جماهيرية ولتحتوى الوحدة العربية المعادي للامبريالية .

القسم الثالث يتضمن نصوصاً لماركس وانجلز تقدم فكرة عن مسألة الامة الحديثة والحركة القومية عموماً وعن موقفها من الوحدة الالمانية خصوصاً . كما يتضمن نصوصاً للينين تعطي فكرة عن رؤيته للثورة القومية المعاصرة وعلاقتها بالثورة الاشتراكية . كما يحوي هذا القسم نص مقال ستالين حول الامة ويحتوى الحركة القومية في عصر الامبريالية .